النشاط الثقافي في ليبيا

من الفتح الاسلامي حتى بداية العصر التركي

بقلم الدكتور:

أحمد مختار عمر



النشاط الثقافي في ليبيا

من الفتح الاسلامي حتى بداية العصر التركي

بقلم الدكتور:
أحمد مختار عمر

منشورات الجامعة الليبية
كلية التربية
1391 هـ - 1971 م

مقدمة

تتاخـــم ليبيا من جهة الشـــرق الحـــدود المصرية ومن جهـــة الغرب الحدود التونســـية وقد قتل الدارســـون بحثا كل ما يخص مصر وتونس من الناحية الثقافيـــة ولكننـــي لم أجد أحدا منهم يعرج على ليبيا ليكشـــف عن دورها فـــي مجـــال الثقافة أو يقدم لنا صـــورة تفصيلية لأوجه نشـــاطاتها المختلفة منذ دخلها الإســـلام وقد فســـر بعضهـــم ذلك بأن ليبيا الإســـلامية لم يكن لها أي دور ثقافي وأنها لم تشـــترك في دفع عجلة البحث العلمي إلى الامام ولهـــذا لم يجـــد الباحثون ما يكتبونه عنها في هـــذا الخصوص وكدت أصدق هذا الزعم وأردده مع المرددين لولا أنني شغلت نفسي منذ تعاقدت للعمل مع الجامعة الليبية بقراءة كل مايتعلق بليبيا الاسلامية في كتب الادب والتاريخ والتراجم وغيرها وكنت أســـجل في بطاقات خاصة كل ما يصادفني في هذا الخصـــوص وبعد قرابـــة عامين من التنقيب والتقييـــد تجمعت عندي آلاف من البطاقات والمســـجلات التي رأيت فيها ما يصلح نـــواة لبحث مركز عن الدور الثقافي لليبيا الإسلامية.

وحيث عزمت على البدء في الكتابة أخذت أســـائل نفســـي: عند أي فترة زمنية ســـاقف؟ وإلى متى سأســـير بالبحث؟ لقـــد كان واضحا أمامي أن من الســـهل أن يميز المرء بين فترتين مختلفتين من تاريخ ليبيا وهما: فترة ما قبل الإســـلام وفترة ما بعد الاســـلام ولكن ليس من الســـهل ان يميز بين فترتين أو أكثر في تاريخها الاســـلامي ليكون ذلك مســـوغا لتقســـيم نشـــاطها على أســـاس موضوعـــي لا اعتباطي ولهدف علمي لا تحكمـــي لأن تاريخ ليبيا منذ دخلها الاسلام يعد امتدادا لحياة واحدة وطابع فكري معين.

ومع ذلك رأيت ان من الخير لي وللبحث أن أبحث عن نقطة في وسط الطريق أقف عندها حتى لا تتشعب بي السبل وأضل وسط خضم متلاطم من الأحداث التي تمتد قرابة اربعة عشر قرنا بالحساب الهجري. وبعد تأمل وتدبر استقر رأيي على ان أقف بالبحث عند بداية العصر العثماني لأن الفترة الممتدة من الفتح الاسلامي حتى دخول الأتراك يمكن ان تسمى فترة وسيطة في تاريخ ليبيا تسبقها فترة قديمة وتتلوها فترة حديثة وقوى من تمسكي بهذه الوقفة ما رأيته عند كثير من المؤرخين من اعتبارهم الحكم التركي بداية العصر الحديث ونهاية العصر الوسيط ومن فعلوا ذلك الاستاذ الدكتور حسن سليمان محمود في كتابه ليبيا بين الماضي والحاضر اذ قسم الفترة الاسلامية قسمين جعل عنون اولهما الليبيون في العصور الوسطى الاسلامية وقف به عند الحكم العثماني وعنوان ثانيهما ليبيا في العصور الحديثة بدأه بالعهد العثماني.

وهكذا استقر رأيي على تخصيص هذا البحث لتتبع النشاط الثقافي لليبيا الاسلامية خلال عصرها الوسيط اي منذ الفتح الاسلامي حتى بداية العصر التركي.

وقد وجدت من الصعب في كثير من الاحيان ان افصل ليبيا في عصورها الاسلامية عن مناطق اخرى مثل مصر وبلدان المغرب المتاخمة فإن ليبيا وان كان لها مدلول خاص الان وحدود متفق عليها سواء من الشرق او الغرب او الجنوب فهي لم تكن كذلك في العصور الاولى ولم تكن حدودها فيما مضى تتفق مع حدودها الموجودة حاليا فقد كانت منطقة برقة تتبع في كثير من الاحيان مصر وقد يكون لها استقلالها الخاص والمناطق الساحلية من طرابلس كانت احيانا تستقل بوضع خاص عن المناطق الجنوبية من طرابلس وكانت تتحد معها وفي كلتا الحالتين كانت تعد اداريا جزءا من مناطق تمتد

إلى جهة الغرب.وبالإضافة إلى هذا فهناك ظاهرة انتقال العلماء من مكان إلى آخر وبخاصة في العصور الوسيطة فمنهم من ولد خارج ليبيا ثم جاء واستوطن فيها ومنهم من ولد بها ثم تركها واستوطن في مكان آخر ومنهم من قسم حياته بين عدة بلدان من بينها ليبيا فعلى اي اساس تحدد جنسية الشخص اعلى مولده ام على موطن ثقافته ام مكان استقراراه ام مكان وفاته وما الحال اذا كان عمره مقسما بين عدة بلدان بطريقة لا تسمح بتغليب بلد على آخر.

ومن اجل هذا وذاك كان لابد في بعض الاحيان من ادخال مناطق في البحث خارج حدود ليبيا الحالية وفي بعض الاحيان كنا نجد انفسنا مضطرين إلى ادراج بعض العلماء او الادباء في البحث رغم عدم انتسابهم إلى ليبيا بمدلولها الحديث وذلك نظر لانضوائهم تحت لواء دولة كانت تضم اراضي ليبيا او بعض اجزائها.

وقد رأيت قبل ان أعرض عن نشاط ليبيا الثقافي ان اقدم فصولا لا تتعلق بحال البربر سكان ليبيا الاصليين قبل مجيء الاسلام وبكيفية انتشار الاسلام في المنطقة وبحال اللغة العربية وتقدمها وانتشارها في المنطقة ثم بمراكز الثقافة التي يسرت لليبيين سبل البحث وهكذا استقر اخراج هذا الكتاب في بابين على النحو الاتي:

الباب الأول: دراسات تمهيدية؛ وتحته فصول اربعة هي بالترتيب: البربر قبل الاسلام - انتشار الاسلام في المنطقة - الصراع اللغوي في المنطقة - وسائط الثقافة لدى الليبيين.

الباب الثاني: النشاط الثقافي؛ وتحته فصول ثلاثة هي بالترتيب الدراسات الاسلامية – الادب - الدراسات اللغوية.

ثم انهيت بخاتمة تهدف إلى تقييم النشـاط الثقافي لليبيا في عصرها الوسـيط ووضعـه في مكانه بين سـائر النشـاطات التي قامـت بها الدول الاسلامية الاخرى.

وليـس من همي في هذا البحـث الدرس التفصيلي لـكل فرع من فروع المعرفـة فذلك ما لايمكن علاجه في مجلد واحد بل يحتاج إلى عدة مجلدات تكـون اشـبه بدائرة معـارف كما انـه يحتاج إلـى متخصصـين مختلفي التخصـص يعالج كل منهم الفرع الذي يدخـل تحت تخصصه كذلك ليس من همي هنا الدراسـة التفصيلية المقارنه لأعمـال الليبيين بأعمال غيرهم في جميع مجالات الثقافة التي طرقوها فهذا جهد جماعة لا جهد فرد واحد وهـو عمل اولى ان يقسـم إلى عدة ابحاث منفصلـة. وأرجو أن اكون بعملي هذا قد وفقت في عرض الصورة العامة وتقديم الخطوط الرئيسية لجهود ليبيا في عصرها الوسيط في مجالات الثقافة المختلفة.

والله الموفق.

مدينة الحدائق طرابلس

د. احمد مختار عمر

1970 – 1390

الباب الاول

دراسات تمهيدية

الفصل الاول

البربر قبل الاسلام

أصل البربر:

يعد البربر أقدم سكان الشمال الافريقي المعروفين لنا او على الاقل من اقدم السلالات المعمرة في الشمال الافريقي[1] وقد كانوا حين الفتح الاسلامي طائفتين: طائفة الحضر وطائفة الرحل أما الاولون فكانوا يسكنون النواحي الشمالية الخصبة واتلسفوح المزروعة وهؤلاء بمرور الزمن اندمجوا في الروم ونسي بعضهم قوميتهم وعاداتهم[2] وأما الاخرون فكانوا يسكنون الصحاري والواحات والجبال وهؤلاء احتفظوا بقوميتهم وعاداتهم وكثيرا ما قاوموا الروم ولم يتركوا فرصة للثورة عليهم الا انتهزوها حتى انه بمجيء القرن السابع الميلادي كان نفوذ الروم قد تقلص من داخل ليبيا وانحصر في السواحل[3].

وآثار البربر تدل على انهم جيل عزيز مرهوب الجانب شديد البأس كثير الجمع مضاه لأمم العالم واجياله من العرب والفرس والروم وهناك آراء متعددة في بيان اصل البربر وموطنهم الاول وكيفية وجودهم في الشمال الافريقي لا يخرج بعضها في الحقيقة عن ان يكون مجرد فروض[4] واهم هذه الاراء:

1 - ان البربر كانوا يسكنون فلسطين وكان ملكهم جالوت فلما قتله داود عليه السلام خرج البربر متوجهين إلى المغرب حيث انتهوا إلى لوبية

1 - الجوهري : السلالات البشرية ص723 .
2 - الزاوي : تاريخ الفتح العربي ص82.
3 - المرجع والصفحة وشيت خطاب قادة فتح المغرب العربي 81،71/1.
4 - يقول مبارك الميلي معبرا عن ذلك الحديث في اصل البربر من اكثر الاحاديث اضطرابا واوسعها خلافا بحث فيه المؤرخون قديما وحديثا واطالوا البحث ولكنهم لم يحصلوا من ذلك الا على روايات متضاربة واراء متناقضة تاريخ الجزائر في القديم والحديث ص84 ويقول صاحب الاستقصا :» واعلم ان الخلاف في نسب البربر طويل وقد تركنا جله اختصارا (36/1)

ومراقية وهما كورتان من كور مصر الغربية فتفرقوا اولا هناك[5] وقيل ان الذي اخرجهم من فلسطين بعض ملوك فارس[6] ويذكر بعضهم ان تلك الهجرة كانت في العصر الحجري وقبل ميلاد المسيح بمدة لاتقل عن ثلاثين قرنا[7] ويفهم من كلام صاحب الاستقصا ان هجرة البربر إلى الشمال الافريقي تمت على مرحلتين المرحلة الاولى في فترة متقدمة من التاريخ حين تنازع بنو حام مع بني سام فترك عدد منهم فلسطين وذهبوا إلى المغرب اما الباقون فظلوا بفلسطين حتى زمن داود فلما قتل داود جالوت امر بإجلائهم عن بلاد كنعن وفلسطين إلى ارض المغرب[8].

2 - ان البربر نشأوا بالمغرب وليسوا منقولين من مكان آخر[9].

3 - أن أصلهم من اليمن من عرب حمير[10].

4 - أن أصلهم من عرب الشمال وبالتحديد من لخم وجذام.

5 - والرأي الذي اختاره ابن خلدون من ولد كنعان بن حام بن نوح وذكر ان ابناء حام ثلاثة: كنعان جد البربر ومصرايم جد قدماء المصريين وفلسطين جد الفلسطينيين القدماء[11].

والذي يهمنا من رأي ابن خلدون ما توصل اليه من ان البربر حاميون وليسوا ساميين وهو الرأي الذي ترجحه الدراسات اللغوية المقارنة التي تربط

5 - ابن عبد الحكم : فتوح مصر وافريقيا . مقتبس في احسان عباس : ليبيا في كتب التاريخ والسير ص92
6 - عبد المنعم عبد العال : لهجة شمال المغرب ص32
7 - دبوز : تاريخ المغرب الكبير 23/1
8 - الاستقصا 60/1
9 - مبارك الميلي ص48
10 - الزاوي : تاريخ الفتح العربي ص17
11 - عبد المنعم عبد العال : لهجة شمال المغرب ص22

اللغتين البربرية والمصرية القديمة برباط واحد وتضعهما في مجموعة واحدة كما سنفصل الحديث فيما بعد.

6 - ويفرق جوستاف لوبون بين نوعين من البربر فيقول ان المهاجرين السود الشعور قد أتوا من شواطىء الفرات ومن شمالي الجزيرة العربية او من مكان ابعد من ذلك اما المهاجرون الشقر الشعور الزرق العيون فقد جاءوا من شمالي اوربة[12].

وخطورة هذا الرأي انه من ناحية يدعى وجود جنسين متميزين او عصبيتين مختلفتين ومن ناحية اخرى يريد ان يخلق شعورا عند بعض البربر بانتمائهم إلى اصل اوربي حتى يقتل عندهم الاحساس بالشخصية المستقلة ويوهمهم ان ارتباطهم بفرنسا واوربا ارتباط قوي من قديم ولذا لا يوجد معنى لمقاومة الاستعمار الاوربي من أي نوع.

وشبيه بهذا الرأي ما حاوله رين Rinn من ادعاء انتماء البربر إلى اصول اوربية متعددة معتمدا على بعض المقارنات اللغوية اللفظية[13].

7 - وهناك نظريات اخرى مثل القول بأنهم من الفرس او من الهند او من اخلاط شتى[14].

أصل كلمة بربر:

كما اختلف في اصل البربر اختلف في اصل الكلمة نفسها واول من استعملها:

12 - حضارة العرب ص244 وقد علل د. محمد عوض محمد في كتابه : الشعوب والسلالات الافريقية وجود الشقرة عند بعض السكان بوجود هجرات اوربية شمالية ولكن في وقت لاحق ونزول اصحابها بديار المغرب (ص 342 . 343)
13 - مبارك الميلي 53/1
14 - مبارك الميلي 49/1 و 50 الاستقصا 60/1

1 - فقيل ان البربر سموا انفسهم بذلك انتسابا إلى جدهم « بربر بن تملا» وقد عرفوا بهذا الاسم من قبل الفتح الاسلامي وقبل ان يعرفهم العرب[15].

2 - وقيل ان اول من سماهم بذلك افريقس بن قيس بن صيفي من ملوك التبابعة لما غزا المغرب وافريقية وبنى المدن والامصار فحين سمع رطانتهن ولاحظ اختلافها وتنوعها تعجب من ذلك وقال: ما أكثر بربرتكم فسموا بالبربر[16].

3 - ويرى بعضهم ان الكلمة يونانية الاصل وانها مشتقة من لفظ «فرفاروس» التي تعني اصلا: اللفظ او الصوت الذي يصدره الالثغ ثم صار اليونانيون يطلقونها على كل من يتكلم بلغة تختلف عن لغتهم ولذلك سموا ايطاليا «برباريا»[17].

4 - ويرى بعض آخر انها مشتقة من لفظ لاتيني قديم هو Barbarus أي المتلعثم في كلامه ويظهر ان الرومان لم يستطيعوا فهم لغة البربر فأطلقوا على اصحابها هذا الاسم[18].

5 - ويذهب بعضهم إلى انها مأخوذة من لفظ «وروا « باللغة السنكريتية ومعناه «غريب»[19].

6 - ويقال ان العرب هم الذين اطلقوا هذا الاسم على سكان شمال افريقية جميعا. ونتيجة لذلك حلت كلمة «بربر» محل كلمة «ليبيين»

15 - دبوز 1/ 26
16 - دائرة معارف البستاني 277/5
17 - المرجع السابق 276/5
18 - ملامح المغرب العربي ص55
19 - البستاني في دائرة معارفه 277/5

منذ الفتح الاسلامي وسبب التسمية عدم فهم العرب للغتهم[20] ولكن يعترض محمد علي دبوز على هذا الرأي قائلا: «ولو صح هذا لسموا كل جنس لايفهمون لغته بربرا كأقباط مصر ولغتهم حامية كلغة البربر»[21].

أصل اللغة البربرية:[22]

أما الحديث عن اصل اللغة البربرية، وإلى أي المجموعات اللغوية تنتمي فحديث طويل متشعب وتتباين فيه وجهات النظر بشكل ملحوظ وذلك لانه يعالج لغة ذات تاريخ طويل لا يرجع فقط إلى عهد اليونان او الرومان ولكن إلى فترة ما قبل التاريخ[23] والخلاف في اصل اللغة البربرية لايخرج في مجموعة عن النظريات الاربع الآتية:

1 - انها تنتمي إلى مجموعات اللغات السامية.

2 - انها تنتمي إلى مجموعة اللغات الحامية.

3 - اما النظرية الثالثة فهي تجمع الرأيين السابقين وتضع المجموعتين في مجموعة واحدة.

4 - وأما النظرية الرابعة فتخرج البربرية عن المجموعة السامية او الحامية وتعتبرها اخلاطا او مزيجا من لغات متعددة معظمها اوربي.

20 - دبوز 26/1 وملامح المغرب العربي ص55
21 - 26/1
22 - هل يصح اعتبار البربرية لغة واحدة ذات لهجات متعددة او هي مجموعة من اللغات المختلفة؟ تختلف نظرة اللغويين في ذلك فمنهم من يعتبر البربرية لغة ويعد الخلاف بين متكلميها وان كان كبيرا خلافا لهجيا ومن هؤلاء O.Bates الذي يقول عن البربرية : «والتفاوت كبير بين اللهجات وان وجد تشابه اساسي في النحو والمفردات « (ص 73 The Eastern Libyans كذلك اعتبرها لغة مؤلفا Libya Notes (ص10) ومنهم من يعتبرون البربرية مجموعة من اللغات ولذلك اطلقوا عليها اسم «اللغات البربرية» ومن هؤلاء Applegate في بحثه The Shelha (ص324)
23 - The Eastern Libyans ص79.

وإليكم الحديث عن كل نظرية بالقدر الذي يسمح به المقام:

1 - أمــا اصحــاب النظريــة الاولى فهم اولئـك الذين يــرون ان الليبيين القدامى يرجعون إلى اصل سامي وانهم نزحوا اما من اليمن بعد انفجار سد مــأرب او من العراق بعد حدوث طوفان مدمــر[24] ويؤيد اصحاب هذه النظرية دعواهــم بما يوجد من تشــابه بين البربرية ومجموعة اللغات الســامية مثل تلـك الاصوات التي تجدها في البربرية وقلما تجدها في غير اللغات الســامية كالحاء والضاد والغين[25].

وهــذه النظرية في الحقيقة تبــدو ضعيفة ولاتقوى على الصمود امام ما وجه إليها من اعتراضات كما سيأتي عند عرض النظرية الثانية.

2 - امــا النظرية الثانية فتبدو اقوى النظريات واقربها إلى العلمية وقد توصل إليها اصحابها بعد اجراء مقارنات متعددة بين اللغة البربرية واللغات السامية من ناحية وبينها وبين الحامية من ناحية اخرى.

وقــد كان البروفســر Francis Newman (عــام 1836) اول مــن انكر الاصــل الســامي للغــة البربرية[26] كمــا ان من اصحابها عالم الســاميات القدير Renan الذي يقول: انه رغم وجود شبه بين البربرية وبعض الساميات فهي مختلفة عنها ولايوجد تشــابه بين أي لهجة بربرية ولغة ســامية مثل التشــابه الموجود بين لغتين ســاميتين[27]. ويقول Sergi في كتابه المشهور The Mediterranean Race: «اللغة البربرية حامية وهي قريبة الصلة بالمصرية وغيرها من الحاميات الشرقية» ويقول «ولا يمكن ان نقول ان الليبيين

24 - حسن سليمان محمود : ليبيا بين الماضي والحاضر ص27 والادب المغربي لابن تاويت وعفيفي ص26

25 - حسن سليمان محمود ص28 وسعد زغلول : تاريخ المغرب العربي ص57 . 58

26 - Libyan Notes ص10 .

27 - The Eastern Libyans ص73

لــم يكونوا حاميين وانهم اكتســبوا اللغــة الحامية من الغــزاة لأنا نعلم ان المصريــين لم يغــزوا هذه البلاد واذا كان قد حدث هــذا فقد كان محصورا في بعض القبائل الشرقية ولفترة محدودة حقا ان مصر قد اقامت علاقات تجارية مع القبائل الداخلية ولكن لم يكن لها ســلطان سياسي عليها. وعلى هذا فاللسان البربري هو اللسان الاصلي لهذا الفرع الحامي»[28].

ويميل إلى هذا الرأي كذلك الاســتاذ مبارك الميلي الذي يقول:» فأما اللغة فلا مشابهة بين لغات البربر واللغات السامية نحوا وتصريفا ولها مشابهة مــن حيــث التركيــب بلغة قدمــاء المصريــين والنوبــة والحبشــة والصومال والهوصا..»[29].

ويؤيــده ايضا الدكتور يســري الجوهري في كتابه الســلالات البشــرية اذ يقــول: «الليبيــون من الناحيــة اللغوية ينتمون إلى الحاميــين كما انهم من الناحية السلالية يشبهون جيرانهم المصريين وغيرهم من الشعوب التابعة للفرع الشرقي من الحاميين»[30].

أما المشــابهات بــين البربريــة والمصرية القديمــة - وهي ايضــا حامية - فأهمها التشــابه في النظــام الفعلي. وفي نظام الجمــع والضمائر. كما ان مقارنة المفردات في اللغتين تثبت ان هناك قدرا مشتركا بينهما في الكلمات البدائية[31]. ويعلق Oric Bates على ذلك بقوله: «وان الوحدات المشــتركة فــي مفردات البربريــة والمصرية والتشــابه النحوي المثير يجعــل من الممكن الاطمئنان إلى القول بوجود علاقة قوية بينهما «[32].

28 - ص56

29 - تاريخ الجزائر في القديم والحديث 51/1

30 - ص329

31 - انظــر ص81 The Eastern Libans وقــد ضــرب المؤلف امثلة للكلمــات البدائية المشتركة بين اللغتين فانظرها في الصفحات 81، 83

32 - المرجع السابق ص84

ويمكـن دعم هـذا الرأي كذلك بالاكتشـافات الأثرية الحديثـة للألفبائية البربرية التي يربطها العلماء بنظام هجائي مشـترك يشـمل كريت ومصر وكل الشمال الافريقي واسبانيا وسنزيد هذه النقطة تفصيلا فيما بعد.

ولا ينكر اصحاب هذه النظرية وجود بعض مشابهات بين البربرية واللغات السامية ولكنهم يلفتون النظر إلى الحقائق الاتية:

ا-علـى الرغـم مما لوحظ من وجود عدد مشـترك من الجـذور بين البربرية والساميات فإن الاغلبية العظمى من المفردات مستقلة[33].

ب- ان التشـابه بين البربرية وبعض اللغات السـامية مرجعه التشـابه بين المجموعتين الحامية والسـامية فقد ثبت بالمقارنة وجود تقارب بينهما في بعـض الخصائص الصوتية وفي خاصية الاصل الثنائـي او الثلاثي وفي نظام الضمائر وفي بعض طرق الاشتقاق[34].

ج- بعض هذا التشابه مرجعه اسـباب سياسية مثل الغزو والفتوحات القديمة[35].

د- اعتـرف فريـق من المؤرخين ان بعض القبائـل البربرية التي وجدت اثناء الفتح ذات اصل عربي ومن بينها صنهاجة وكتامة ذات الاصل اليمني[36].

ومعنـى هذا انه وجد تلاق بين الحامية والسـامية او بـين البربرية وعربية هاتـين القبيلتـين في فتـرة ما من فترات التاريخ سـمح بنوع مـن التبادل او التأثير والتأثر.

33 - Libyan Notes ص10

34 - Barton في Semitic and Hamitic Origins ص21-23 وبعد ان عدد المؤلف احد عشـر وجه شـبه (ص 17-25) قال : « الفحص اللغوي يثبت وجود علاقة بين المجموعتين الحامية والسامية « (ص259)

35 - سعد زغلول : تاريخ المغرب العربي ص58

36 - لهجة شمال المغرب ص33

3 - وأما النظرية الثالثة فيريح أصحابها انفسـهم من هذا الصراع بين انصـار الاصل الحامي او الاصل السـامي ويربطون المجموعتـين برباط واحد او أصل مشترك سماه بعضهم «المجموعة الافروآسيوية « وبعضهم «المجموعة الحامية السامية» ويعتمد هؤلاء واولئك في ربطهم المجموعتين في مجموعة واحدة على النقاط الاتية:

أ- اللغات الحامية تختلف عن سائر لغات افريقية.

ب- اللغات الحامية تبدو مشـابهة بقدر كبير للغات السامية مما يسمح بالقول بوجود قرابة لغوية قوية بينهما.

ج- ان السـاميات تبـدو وكأنهـا تطور عـن الحاميات انها صـورة خاصة للحاميات تطورت فيها اللغة إلى ان تكون اعرابية .

د- مـا نادى به عالم المصريات القدير Adolf Erman من أن ما يسـمى بالجنس الحامي ماهو الا سـامي هاجر إلـى افريقية من جنوب الجزيرة العربية ثم اختلط بدماء افريقية متنوعة[38].

ومـن أصحاب هذه النظرية جرينبرج الذي يعد من اقدر علماء اللغات في العصر الحاضر وقد نادى بنظريته هذه بعد ان قدم دراسة عن اللغات الافريقية اسـتغرقت السـنوات من 1949 إلى 1955 وانتهى إلى القول بان لغة البربر واللغات السـامية تمت كلها إلى اصل واحد سماه «المجموعة الافرواسيوية « كما أن من أصحابها مارسـيل كوهين الذي نادى بأن اللغات الحامية ليسـت - في حد ذاتها - وحدة تقف موقف التقابل من اللغات السـامية، بل انهما يكونان أسرة أكبر هي «المجموعة الحامية السامية»[39].

37 - A Study of Race in the Anicient Near East ص55

38 - Semmitic and Hamitic Origins ص10

39 - انظـر : Encyclopaedia Britannica مـادة African Languages الشـعوب

4 - وأما النظرية الرابعة فهي اضعف النظريات وابعدها عن الواقع. وقد نادى بها فريقان من العلماء احدهما يضم اولئك الذين عجزوا عن رد اللغة البربرية إلى مجموعة معينة ومنهم علماء عاشوا في الفترة التي سبقت الدراسة الجادة لهذه اللغة ومقارنتها بغيرها من اللغات ليمكن التنبؤ بأصلها اما الفريق الآخر فيضم بعض الساسة المحترفين الذين يزيفون الحقائق العلمية لخدمة اغراضهم الاستعمارية.

فمن الفريق الاول Joseph Applegate الذي يعتبر اللغات البربرية تشكل مجموعة لغوية مستقلة تسمى «مجموعة اللغات البربرية» التي تشمل لغات مثل Shilha و Rif و ال Touareg و ال Kabyle وغيرها[40]. ومنهم بيروني Peyronnet الذي يرى ان البربرية لغة غريبة مجهولة الأصل[41].

أما الفريق الثاني فيضم عالمين كبيرين احدهما M.Olivier الذي نشر بحثا حاول فيه ان يظهر القرابة بين الجذور البربرية والجذور الهندأوربية ويعلق مؤلفا كتاب Libyan Notes على ذلك بقولهما: «ولكن الأمثلة التي ذكرها ابعد عن أن تقنعنا بما ذكر بالإضافة إلى أن علم اللغة الآن قد تقدم إلى الامام وخلف وراءه مرحلة الزعم بأن وجود تشابه قريب او بعيد بين المفردات يمكن أن يؤدي إلى القول بوجود علاقة بين المفردات يمكن أن يؤدي إلى القول بوجود علاقة بين لغات لا تتفق في تركيبات صيغها»[42]. وأما الآخر فهو Rinn الذي ناظر بين ألفاظ بربرية واخرى هندية اوربية وانتهى إلى القول

والسلالات الافريقية لمحمد عوض ص338 افريقية الارض والناس لمحمد عبد الفتاح ص140-142 ازمة المغرب الاقصى لروم لاندو ص96.

40 - انظر : The Middle East Journal الجزء الثاني العدد الثالث سنة 1957 ص324

41 - تاريخ الجزائر في القديم والحديث 85/1

42 - ص10

بأن مفردات اللغة البربرية ترجع إلى أصول ايطالية قديمة والمانية والجليزية وسويدية ونروجية بل لم يكتف بذلك فطار إلى روسيا واتانا منها بمفردات اتعب نفسه في تقريبها من مفردات بربرية ويعقب الاستاذ مبارك الميلي على هذا بقوله: «لقد كتب بقلم سياسي لا بقلم علمي يريد ان يمزق البربر ويوزعهم على امم اوربية لكي يسهل على البلعوم الاوربي ابتلاعهم»[43].

خصائص اللغة البربرية[44]:

من خصائص اللغة البربرية ما يأتي:

1 - الابتداء بالساكن وتتابع مثل: تزاليت بمعنى الصلاة، وتمارت بمعنى اللحية، وتفويت بمعنى الشمس، وتفاوت بمعنى النار.

2 - قد ينقلب فيها الفعل اسما والاسم فعلا.

3 - تاء التأنيث فيها تكون في اول الاسم لا في آخره وقد يختم الاسم بناء كذلك لكن لابد من تاء في اوله كقولهم: تامطوت بمعنى امرأة وتامروت بمعنى بندقية.

4 - يكثر بدء اسمائها بالهمزة مثل اجنا بمعنى السماء.

5 - علامة التثنية فيها كلمة وليست حرفا فتثنية اتري (النجم): سن ايتران ومعناها: اثنان من النجوم (سن = اثنان وايتران = جمع اترى).

6 - الماضي يبتدىء بالياء والمضارع والأمر بالهمزة. وقد يكون الأخير بدون همزة كما في العربية. ومثاله سُو بمعنى اشرب[45]. وفي بعض اللهجات يضاف للماضي سابقة هي tsoua أو tsou.

44 - تاريخ الجزائر في القديم والحديث 52/1 و 53

45 - سنستفيد بهذا الموضوع فيما بعد حين الحديث عن الصراع اللغوي في المنطقة وتأثير كلا جانبي الصراع على الآخر .

7 - عدم وجود أدوات أما السابقة «أل» الموجودة في البربرية الحديثة فمأخوذة من العربية.

8 - وجود علامة للمذكر وهي البدء ب «أ» او «إ».

9 - تشكيل المستقبل عن طريق إضافة السابقة Ad (d =ذ) للماضي.

10 - الضمائر نوعان متصلة كلواحق بالأسماء أو الحروف او الأفعال ومستقلة باعتبار كل منها فاعلا لفعل.

11 - هناك فرق في الصيغة بين الضمير المتصل المباشر وغير المباشر.

12 - الأفعال التي تنصب مفعولين تشكل عن طريق السابقة S للجذر.

13 - الجمع يشكل عن طريق تغيير داخلي او تغيير خارجي.

14 - تتبع الصفات الاسماء في التذكير والتأنيث وغيره[46].

15 - يقع الفعل في أول الجملة ثم الفاعل ثم المكملات[47].

الخط البربري:

ظل العلماء حينا من الدهر يظنون ان البربرية لغة منطوقة لا مكتوبة حتى ظهر فساد هذا الرأي بعد الكشوف الحديثة التي تمت في مناطق متعددة من الشمال الافريقي موطن البربر القدماء.

ويقول مؤلفا Libyan Notes: «إن الاكتشاف الذي انتهت اليه بحوث الاستاذ A.J.Evans والبروفسور F.Petrie وهو أن الالفبائية التي ظهرت في كثير من النقوش التي عثر عليها في كل الشمال الافريقي - تشكل

46 - دبوز 49/1 وأمثلته مأخوذة من البربرية الميزابية وهي بربرية موجودة في الصحراء بجنوب الجزائر .

47 - Libyan Notes ص13

The Eastern Libyans ص74

جزءا من نظام واحد مشترك بين كريت ومصر من ناحية واسبانيا وغيرها من ناحية اخرى - هذا الاكتشاف يعد واحدا من اهم الاكتشافات الحديثة حول الآثار قبل التاريخية». ويقولان ايضا: «وقد أثارت هذه النقوش اهتمام الباحثين لمدة على الخمسين سنة وقد وجدت في مسافات تمتد إلى خليج سيناء شرقا وجزر الكناري غربا والصحراء جنوبا «[48].

واذا كان هذا الكتاب قد طبع عام 1901 ويتحدث عن الخمسين سنة الثانية من القرن التاسع عشر فإن البحوث التنقيبية لم تتوقف في القرن العشرين بل زادت وبخاصة منذ 1946 يقول Goodchild: «ان أعمال التنقيب التي تمت داخل منطقة طرابلس خلال السنوات الخمسين الاخيرة وبخاصة منذ سنة 1946 قد أدت إلى اكتشاف عدد كبير من النقوش التي تمدنا بمعلومات هامة عن لغة الليبيين وحياتهم خلال العصر الروماني»[49]. ولكن المؤلف مع ذلك يعترف بأن النقوش المكتشفة ما تزال قليلة وأنها لا تكفي الباحثين اللغويين لكي يصلوا إلى نتائج لغوية محققة[50].

والنقوش التي عثر عليها تشكل ثلاث مجموعات رئيسية:

أما المجموعة الاولى فقد كتبت باللغة البربرية ولكن في حروف لاتينية وقد أطلق الباحثون عليها اسم Latino Libyan وقد لوحظ ان كاتب هذه النقوش كان يستخدم إلى جانب الرموز اللاتينية رموزا غير لاتينية للتعبير عن الأصوات التي لا توجد لها رموز في تلك اللغة[51]. ومن أمثلة هذه النقوش تلك التي ذكرها Goodchild وهي:

وأما المجموعة الثانية فقد بخط غير لاتيني. ومن بينها نقوش تم العثور

48 - ص72

49 - The Latino Libyan Inscriptions ص135

- المرجع ص143

- المرجع ص135 Inscriptions in the Libyan Alphabet ص112 , 113

عليهــا بين عامــي 1953 و 1957 في غرزة. وتبــدو ابجديتها صورة من صور الأبجدية الليبية التي سبق العثور عليها في تونس والجزائر والمغرب[52]. وتعد نصوص غرزة ذات أهمية خاصة للكتابة الليبية لســببين: أولهما أنها يمكن تأريخهــا بالقــرن الرابع الميلادى وما تلاه فهي تســد الثغرة بــين الخط الليبي القــديم والحديث. وثانيهمــا أن معظمها قد وجد على مبان ســكنية وأدوات منزلية في أماكن مســتقرة وليســت من نوع النقوش الجنائزية أو المرسومة على القبور[53].

وأما المجموعــة الثالثة فتمثل عددا من النقوش المزدوجة اللغة. بعضها فينيقــي – ليبــي وبعضها لاتيني – ليبي وبمســاعدة هــذه النصوص تمكن الباحثــون الفرنســيون من معرفــة القيمــة الصوتية لاثنين وعشــرين رمزا مســتعملا ومــن قراءة عدد كبير من أســماء الأعلام الليبيــة وعدد قليل من الكلمات العادية[54].

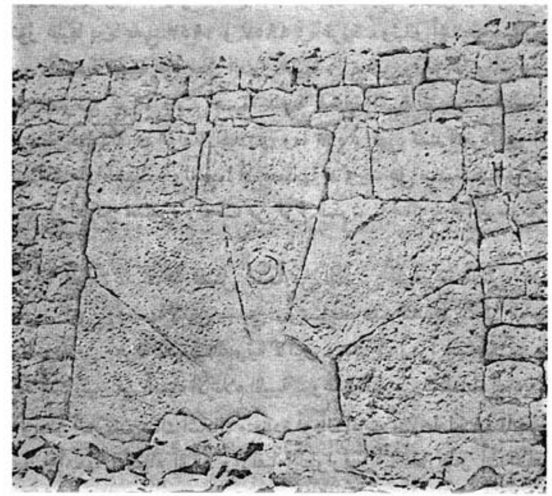
ويبدو أنه كان هناك أشكال متعددة او ألفباءات متنوعة لكتابة المجموعة الثانية أهمها الألفباء الليبيــة والألفباء الطوارقية[55]. كما يبدو أن الالفباء الواحدة قد تعرضت لأنواع من التطوير والتعديل من آن لآخر مما أدى إلى تعدد الصور التــي قدمها لنا العلماء للخط البربري وعلــى هذا يكون عندنا ثلاثة نمــاذج على الأقل يصــور أحدها مراحل تطور الخط البربــري ويمثل ثانيها الخط الليبي ويمثل ثالثها الخط الطوارقي.

52 - Inscriptions in the Libyan Alphabet ص 112 . 113

53 - المرجع ص 113

54 - المرجع ص 113 . 114

55 - وجد كذلك الخط الجرامنتي الذي كان يكتبه الجرامنت الذين استوطنوا جنوب ليبيا ومن الحفريات القليلة التي عثر عليها تبين أنه يختلف كلية عن التيفيناغ (جرمة في عصر ازدهارها ص 164).



a. Doorway of Romano-Libyan fortified farm-house at El-Ureia, showing inscription *in situ*



b. Inscription at El-Ureia

أما مراحل تطور الخط البربري فقد شـرحها كل من الأستاذ محمد علي دبوز والاستاذ مبارك الميلي. ومن مجموع ما قالاه يتبين ما يأتي:

أ - أن الحروف البربرية في القديم كانت تركب من عشـرة حروف يسمونها «تيفينـاغ» ومعناها الحروف المنزلة من عند الاله لأنهم كانوا يعتقدون أنها ليسـت من وضع البشـر وصورة هذه الحروف كما يلي (مفسرة بما يوافقها أو يقاربها من الحروف العربية):

ⵏ	ⵍ	ⵎ	ⵔ	ⵙ	ⵢ	ⵜ	ⴷ	ⵊ	ⴱ
ن	ل	م	ر	س	ي	ت	د	ج	ب

ب- وأضيف إليها خمسـة أشكال تسـمى «تيدباكين» ومعناها الدليل على العمل والتوسع ويعتقدون انها من وضع البشر ثم اضيفت حروف أخرى في وقت لاحق مثل:

ⵣ	ⵥ	ⵛ	ⵜ
ز	ژ	ش	ت

ج- وأضيف كذلك أشكال أخرى وعلامات للحركات مثل:

o وتدل – في الأكثر – على الضمة.

8 وتدل – في الغالب – على واو المد.

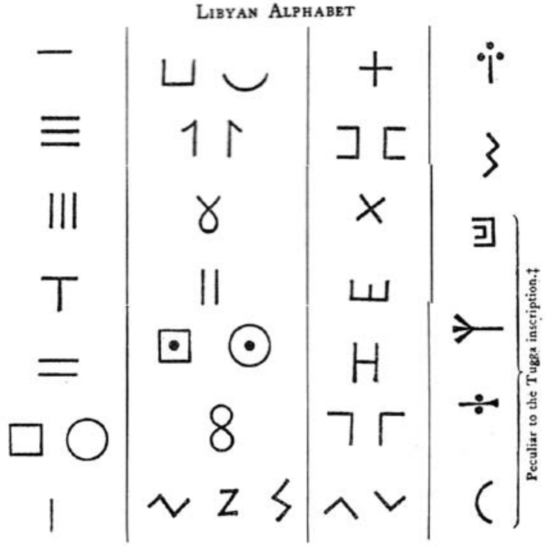
حتى صار مجموع حروفهم ثلاثة وعشرين حرفا.

د- ويقال كذلك إن الملك مسينيسـا Massinissa (ولد سنة 238 قم) مؤسس مملكة نوميديا (الجزائر) قد وجه عنايته للخط البربري ورقاه وزاد في حروفه حتى استقر على النحو الذي نجده اليوم[56].

56 - انظـر دبـوز 64/1 . 65 . 149 وةالميلـي 87/1 . 88 ودائرة المعارف الاسـلامية – بربر ص502

وأمـا الألفبـاء الليبية فأشـمل صـورة لها تلـك التي قدمها الاسـتاذ Faidherbe والتي تحتوي على 27 حرفا. وهي[57]:

LIBYAN ALPHABET

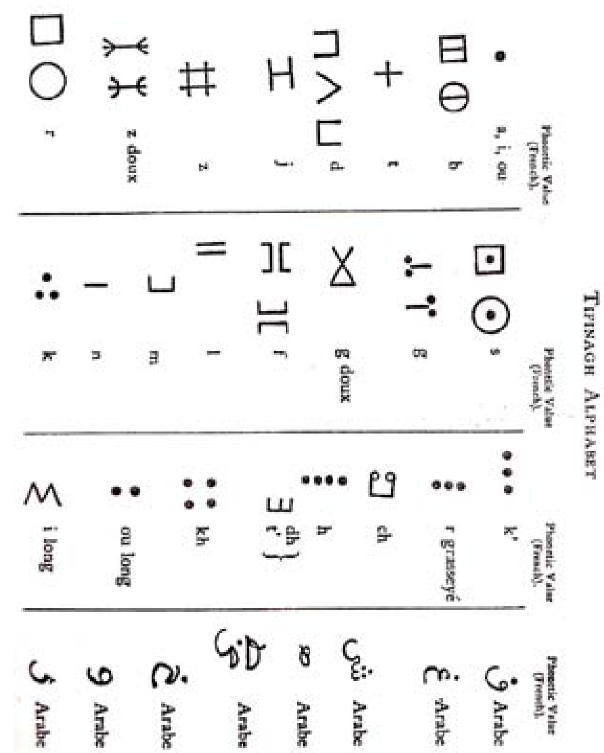


أمـا الأبجديـة الطوارقيـة أوال Tifinagh فقـد أكتشـفها الدكتـور Oudney الفرنسـي سـنة 1822 ووجـد رموزهـا فـي منطقـة مـرزق Mourzouk فـي فزان ووصفها بقولـه:» توجد الرموز الطوارقية على كل حجر تقريبا ولايهم أن تكون الحروف مكتوبة من اليمين إلى اليسار او العكس أو عموديا»[58]. وقد قدم Oudney لنا 19 حرفا فقط. ولذا فقائمته تنقص عن تلك التي قدمها العالم Hanoteau والتي هي[59]:

57 - Libyan Notes ص 73

58 - Libyan Notes ص 74 وقـد كان هذا في القديم ثم تأثر البربر بالعرب بعد الاسـلام فصاروا يلتزمون اتجاها في الكتابة هو الاتجاه العربي من اليمين إلى اليسار (دبوز/67)

59 - Libyan Notes ص 74 . افريقية الارض والناس ص 59



وبعض هذه الحروف تتجمع في تشكيلات هكذا:



ويلاحظ أن الأبجديتين الليبية والطوارقية متقاربتان فيما عدا ما أدخلته الطوارقيــة من تعديلات تتمثل في وضع نقط بــدل الخطوط في الحروف رقم 16، 17، 18، 20، 22، 23[61](لاحظ العد من جهة اليسار).

61 - Libyan Notes ص 75 وانظر كذلك The Mediterranean Race ص 53

وهنــاك نظريــات متعددة فــي أصل الخط البربــري. فبعضهم يــرده إلى المصريــين. وبعضهم إلى اليونانيــين. وبعضهم إلى الونــدال. وبعضهم إلى الســبئيين. وبعضهم إلــى الاثيوبيين. كما أن بعضهم يربطــه بالصفوية او الثمودية المنسوبتين إلى شمالي الجزيرة العربية كما فعل Littmann[61].

ولكــن الــذي يبــدو صحيحــا أن الخــط البربري قد بــدأ البربــر بوضعه أولا [62]. ثــم عدلــوا فيه او زادوا عليه حروفا اســتفادوها من كتابات شــعوب اخــرى مثل المصريــة القديمة والفينيقية وخط المســند القديم لأهل شــمال الجزيرة العربية في فلسطين والشام والعراق فقد صرح Evans و Flinders بــأن بعض الرمــوز الخطية (أي المؤلفة من خطوط) التــي وجدت على الاواني الفخاريــة المصرية القديمة جدا تتطابق مع تلك الموجــوده في الرموز الليبية والطوارقيــة[63]. ومــن ناحية اخرى أثبت Halèvy (في أواخر القرن التاســع عشــر) أن بعضا منها مأخوذ من الفينيقية التي وجدت في شــمال افريقية وقــد وجد Halevy ســتة رموز من بين الرمــوز الليبية تتماثل في شــكلها وفي قيمتها الصوتية مع الرموز الفينيقية[64]. وقد مثل الاســتاذ دبوز لهذا التماثــل برمــز التاء في البربرية والفينيقية وهو واحــد ويكتب هكذا + ورمز الدال الذي يكتب في البربرية هكذا ^ وفي الفينيقية هكذا Δ وغير ذلك[65]. كذلك صرح الاستاذ دبوز أن التشابه بين حروف المسند القديمة وحروف البربر لايمكــن إنكاره ومثل لذلــك برموز الزاي والبــاء والتاء التي تتشــابه في كلتا الكتابتين[66].

61 - The Eastern Libyans ص 85 وانظر دائرة المعارف الاسلامية مادة بربر
62 - دبوز 64/1
63 - Libyan Notes ص 75. و انظر دبوز 64/1
64 - The Eastern Libyans ص 85 ، 86 وانظر دبوز 64/1
65 - 66/1
66 - المرجع والصفحة

وهناك حقائق اخرى تتعلق بالخط البربري تحتاج إلى التنبيه عليها وهي:

1 - أن حـروف العربيـة لها مـا يماثلها فـي البربرية ماعدا العـين والحروف المعجمة الثاء والذال والظاء[67].

2 - البربر لايعجمون حروفهم.

3 - العين تكتب غينا في البربرية. وتقرأ عينا أو غينا بحسب السياق. وقد وجـدت عندهم العين نتيجة اختلاطهم بالفينيقيين والعرب ولذا لم يفردوا لها رمزا مستقلا[68].

4 - يقول Rinn: «المظنون أن اللاتينيين قد أخذوا حروفهم عن البربر لأنهم يسـمون حروفهـم الهجائية «المنتـا» وحروف ل م ن هـي الاولى في الحروف البربرية[69].

5 - أنـه لا صحـة لمـا يقال من أن الطـوارق هو الوحيـدون دون جميع البربر الـذي لهـم كتابة خاصة[70]؛ فقد ثبت مما سـبق ان الكتابـة كانت موجودة عند البربر بعامة كما يؤيد ذلك النقوش القديمة التي وجدت في مسـاحات واسعة ومناطق لم يسكنها الطوارق مطلقا[71].

6 - الأبجديـات البربريـة تعد من النـوع الألفبائي وليـس المقطعي. ولكن بسـبب الاختصارات في اسـتعمالها ولغياب رموز العلل (في العادة) فمن الممكن اعتبارها أبجدية شبه مقطعية[72].

7 - أن الخـط الطوارقي مايزال مسـتعملا حتى الآن بـين الطوارق ولكن في مجـالات ضيقة وبصورة تختلف قليلا او كثيـرا عن صورته مما يجعلهم في

67 - دبوز 64/1
68 - دبوز 64/1
69 - الميلي 88/1
70 - الشعوب والسلالات الافريقية ص 353
71 - Race of Africa ص 96
72 - المرجع السابق ص 95

كثير من الأحيان عاجزين عن قراءة نقوش اجدادهم[73].

8 - أنه لا مجال للشك في بربرية النقوش التي عثر عليها لأن تردد الاسماء البربريـة في هذه النقوش يدل على أن هـذه الكتابة كانت خاصة بالمواطنين الأصليين وليست بأي مستوطنين آخرين[74].

9 - أن بعـض النقـوش التي عثر عليها في الجزائر وتونس محفوظة أصولها في المتحف البريطاني[75].

10- يصـرح الاسـتاذ Oric Bates أنه لم يعثر علـى نقوش للخط البربري أقدم من القرن الرابع قبل الميلاد[76].

ديانات البربر قبل الإسلام:

كان معظـم البربـر حتى بعد دخـول اليهودية والمسـيحية البلاد يدينون بالوثنيـة أو المجوسـية وكان بعضهـم يعبد إلهـة معينـة وبعضهم يعبد الشمس وبعضهم يعبد القمر[77].

وقـد بدأ دخـول الدين اليهودي بلاد المغرب نتيجـة لهجرات يهودية تمت ابتداء من القرن الثالث قبل الميلاد وقد نزلت هجراتهم الاولى على الفينيقيين في تونس بحكم الصلات الجنسـية واللغوية[78]. وسـجل التاريخ لهم ثورات مبكرة منذ اسـتوطنوا بلاد المغرب وقعت إحداها عام 115م في برقة وكانت ضد الحكـم الروماني وأعقبها اتجاههم نحو الجنـوب وتوزعهم في كل اجزاء الشمال الافريقي[79].

73 - الصحراء الكبرى ص 103 Race of Africa ص 96
74 - Libyan Notes ص 73
75 - المرجع ص 72
76 - The Eastern Libyans ص 85
77 - انظر الدعوة إلى الاسلام لتوماس ارنولد ص 45 ودبوز 405/1 و Libyan Notes ص 9 وقادة فتح المغرب العربي 19/1 وتاريخ الفتح العربي في ليبيا للزاوى ص 18 ، 19
78 - السلالات البشرية ص 331 وملامح المغرب العربي ص 59
79 - The Eastern Libyans ص 208 والممالك الاسلامية في غرب افريقيا ص75،76

ويبدو ان اليهود قد حققوا لأنفسهم - رغم قلتهم النسبية - نفوذاً كبيراً في المنطقة استمر حتى مجيء الإسلام. «ففي عام 688م تمكن الجراوة Djeraoua في جبل اوراس الذين اعتنقوا اليهودية، ونصبوا امرأة منهم تدعى كاهنة قائدة لهم - تمكنوا من مطاردة العرب بقيادة حسان حتى خليج قابس ثم تتبعوهم حتى طرابلس»[80]. ويحدثنا Blake في بحث له انه قد عثر قرب مصراته على احجار قبور نقشت عليها كتابة عبرية ترجع إلى عام 1142م مما يدل على وجود مجتمع يهودي اذ ذاك[81].

أما الدين المسيحي فقد وصل إلى المغرب في القرن الثاني الميلادي على ايدي رهبان اتوا من مصر[82]. وصارت المسيحية الدين المسيحي الرسمي للدولة الرومانية منذ ارتقى قسطنطين على عرش روما سنة 312 م فارتبطت المسيحية في نظر البربر منذ ذلك الحين بالرومان فكرهوها كما كانوا يكرهونهم، وأدى ذلك إلى مخالفتهم واعتناق البربر للمذهب الدوناتي المسيحي وهو مخالف للمذهب الارثوذكسي الكاثوليكي الذي كان عليه الرومان. وقد أدى هذا الخلاف المذهبي إلى نشوب معارك طاحنة بين البربر والرومان[83]. ويبدو انه - إلى جانب المذهبين السابقين - كان يوجد بعض

80 - قدر Sir Johnston عدد اليهود وقت الفتح بحوالي 100 الف والمسيحيين بحوالي 300 الف والبربر بعدة ملايين A History of the Colonization of Africa ص 61) ويفهم من هذا انه لم يعتبر المسيحيين واليهود من سكان البلاد الاصليين الذين سماهم بالبربر وقد صرح محمد سليمان ايوب في بحثه بعنوان «جرمة في عصر ازدهارها « بأن «أكثر الذين اعتنقوا المسيحية من سكان المدن أي من ابناء الاغريق والفينيقيين والرومان بينما ظل أغلب البربر في ليبيا على وثنيتهم « (ص 173)

81 - الصحراء الكبرى ص 72

Misurata ص 11

82 - حسن سليمان محمود : ليبيا بين الماضي والحاضر ص 94 ولكن يرى بعضهم ان البربر اخذوا دين المسيحية عن الروم لأنهم كانوا مغلوبين لهم (انظر : شيت خطاب قادة فتح المغرب العربي ص 19)

83 - دبوز 406/1

المسيحيين الذين يدينون بالمذهب اليعقوبي السائد في مصر؛ فإن المراجع العربية تتحدث عن مناطق من ليبيا أهلها أقباط[84].

ونعود إلى الصراع المذهبي فنقول ان المذهب الدوناتي نشأ في أوائل القرن الرابع الميلادي في شمالي اوراس الذي كان يغلي بمقت الرومان وقد أنشأه راهبان كان كل منهما يسمى «دونتوس» فسمى بالمذهب الدونتوسي أو الدوناتي وكان هذا المذهب يرمي إلى غايات سياسية مثل تحرير المغرب من ايدي الرومان ورفع لواء المسيحية.

وما كاد القرن الرابع ينتصف حتى كان جمهور البربر المسيحيين في المغرب دنتوس وحتى أقضت قلاقل الدنتوسيين مضاجع الرومان الحكام وقد بدأت المتاعب بثورة الدنتوسيين ضد الكنيسة وروما وفي ثورتهم ضد الامبراطور تعاونوا مع جماعة الدوارين Circumcelliones وهي فئة متعصبة دأبت على سلب حواف الصحراء ووكل أمر القضاء على الفوضى وإعادة تأسيس حكم الدولة إلى الكونت بونيفاس ولكنه أعلن الصورة على روما واستعان بالوندال وفي عام 429م اندفع الوندال بنسائهم واطفالهم إلى افريقيا من اسبانيا وكانوا نحو ثمانين الفا بينهم نحو عشرين الف مقاتل وحكموا البلاد فشعر بونيفاس بخطئه وانضم الدنتوسيون إلى الوندال لما كان يربطهما من كراهية للكنيسة الكاثوليكية وفي سنة 533 قاد بلزاريوس جيشا بيزنطيا وكما حدث للوندال قبله رحب الناس به كمخلص لهم من الوندال وفي خلال ثلاثة أشهر من وصول بلزاريوس كتب إلى الامبراطور جوستنيان ان افريقية عادت رومانية ولكن ما أن عاد إلى بيزنطة حتى أخذ البربر يزالون ما اعتادوه من حب تقليدي للحرية وصاحب ذلك اعلان جوستنيان «أن المذهب الكاثوليكي هو الدين الرسمي لبلاد المغرب» وفي سنة 535 انتزعت املاك

84 - تاريخ ليبيا لإحسان عباس ص 14

المخالفين من دنتوسيين ويهود وغيرهم وجردوا من حماية القانون وحجر عليهم العمل بمذهبهم وطردوا من مناصبهم واخذت الكنيسة تراقب الولاة والحكام واهل الوظائف وتتدخل في جميع شئون الدولة السياسية والمالية والادارية والحربية بالإضافة إلى فرض ضرائب باهظة على البربر وابتزاز اموالهم مما عمق الفجوة بين البربر وحكامهم من الرومان[85].

ويبدو ان حركات الاضطهاد ضد أصحاب المذاهب الأخرى قد أفادت المسيحية إلى حد ما وأدت إلى نشرها في الصحراء بعد أن كانت وقفا على المناطق الساحلية[86]، فقد أصبحت الصحراء ملجأ لطريدي الاضطهاد الديني والقصص المثيرة المعروفة عن القديس بريتوا Perpetua وغيره من شهداء شمال افريقيا لا تترك مجالا للشك في أن الافا من الرهبان الضعفاء قد فروا إلى الصحراء في الجنوب[87]. ويستدل بعضهم على انتقال المسيحية إلى الصحراء حيث يسكن الطوارق بوجود كلمات في لغتهم ذات اصل مسيحي مثل اسم ميسي ومعناه اله والجلوس ومعناه ملاك واسماء صموئيل وداود وشارك وغيرها من الاسماء التي تندر بين عرب افريقية[88]. ومن اجل هذا الصراع لم يجد الاسلام حين وفد على المنطقة دينا سماويا قويا ولم يكن عدد المسيحيين وقت الفتح الاسلامي كبيراً. «وعلى كل حال

85 - دبوز 407/1 ، 408 ، 445 والممالك الإسلامية في غرب افريقيا ص 77 ، 78 ، 79 ولكن جاء في بعض المراجع ان المذهب الدوناتي نسبة إلى صاحبه دونات Donat أحد الأساقفة الثائرين على الدولة الرومانية (انظر شيت : قادة فتح المغرب العربي 40/1)

86 - يقول أرنولد :» الولايات الرومانية في افريقية التي كان الأهالي المسيحيون محصورين فيها لم تمتد قط بعيدا إلى الجنوب فان الصحراء الكبرى تقف حاجزا منيعا في هذا الاتجاه (ص144) ومع ذلك فهناك من الباحثين من يقطع بأن بربر طرابلس رغم انهم ساحليون لم يعتنقوا المسيحية مطلقا Libyan notes ص 8

87 - الممالك الاسلامية في غرب افريقيا ص 74 ويقال ان الخلافات الدينية والسياسية وما تبعها من حروب واضطهادات (تم معظمها على يد حكومة الامبراطوءر جوستنيان) قد أفنت خمسة ملايين من الافريقيين (ارنولد ص 146)

88 - الممالك الاسلامية في غرب افريقيا ص 74

ليس من المحتمل ان تكون المسيحية - حتى اذا كانت قد وضعت اقدامها في المنطقة - قد احتلت قلوب الناس»[89]، او على حد تعبير باحث آخر «وعند الفتح العربي كان هناك عدد من القبائل البربرية المسيحية، ولكن المسيحية لم تكن متمكنة بينهم ولذا لا توجد بقايا مسيحية قوية كما وجدت في مصر»[90]. ويقول باحث ثالث: «وقبل ظهور محمد كان من الواضح ان الكنيسة المسيحية قد عجزت عن أن تقنع هؤلاء الناس. انها اختيرت كديانة رسمية للامبراطورية الرومانية، وصارت ديانة اوربية بدلا من سابق عهدها كديانة افريقية أو اسيوية. ولذا فإنها أصبحت في نظر الناس تمثل حكما استبدادياً لا يطاق»[91].

وهكذا كان الواقع الديني في المنطقة يعمل في صالح الاسلام، وقد أعانه على أن يثبت اركانه ويرفع لواءه بطريقة أدهشت العالم وأذهلته كما سنتحدث في الفصل التالي.

89 - Libyan Notes ص 8

90 - The Eastern Libyans ص 208 ، 209

91 - The Romance of Nearest East ص 178

الفصل الثاني

انتشار الاسلام في المنطقة

واجهت الجيوش العربية صعوبات جمة في فتح الشمال الافريقي وصادفت من الثورات والانقلابات والحركات الخارجية ما فاق نظيره في البلدان المفتوحة الأخرى ولا نريد أن ندخل في تفصيلات حول الفتح الاسلامي ومراحله وما صادفه من صعوبات وأسباب ذلك فمجاله كتب التاريخ السياسي وانما نريد ان نتتبع في سرعة وايجاز حركة الفتح الاسلامي ومعدل انتشار الاسلام في المنطقة مبرزين فقط العوامل الرئيسية او مايسمى بنقاط التحول سواء في جانب انتشار الإسلام أو ضده.

من المعروف أن الفتح الإسلامي للمنطقة قد بدأ عام 21هـ على يد عمرو بن العاص الذي أرسل جيشا بقيادة عقبة بن نافع إلى برقة فلم يحاربه أهلها وآثروا الصلح فصالحهم على مبلغ سنوي يدفعونه وتم فتح برقة سنة 22هـ وبعد ذلك اتجه عقبة إلى الواحات الداخلية حيث لواتة ونفوسة وهوارة التي اشتهرت بمقاومتها للحكم البيزنطي ووفق في فتح بعض مناطقها ومنها عاصمة فزان حينئذ «زويلة» وفي نفس الوقت سار عمرو ببقية الجيش متجها إلى طرابلس ففتح المدن التي صادفته في طريقه إلى طرابلس وحين وصل طرابلس حاصرها نحو شهر ثم اقتحمها وهرب الروم من البحر وغنم المسلمون غنائم كثيرة وأمنوا الناس على اموالهم وأعراضهم ومعابدهم وتحرك عمرو لفتح صبراته وأرسل بسر بن ابي أرطاة لفتح ودان وهكذا استمر الفتح الإسلامي يتقدم من نصر إلى نصر حتى تم فتح جميع الأراضي الليبية وفي أثناء إتمام عمليات الفتح كانت البلاد تنتقض بمجرد خروج جيش الفتح منها وقد تولى عقبة ثلاثة أعمال حربية في ليبيا أولها مع جيش الفتح وثانيها في ولاية عمرو بن العاص الثانية على مصر (من 38-43) والثالث سنة 46 أو 49 هـ وفيها أعيد فتح فزان وودان وغدامس...

وغيرها وبعدها أصبح الحكم الإسلامي في ليبيا راسخا متينا اذ لا نسمع ان سكان أي من مناطقها قد تأثروا بثورة كسيلة وبمقتل عقبة سنة 63هـ وبذا انفصلت ليبيا مؤقتا عن حركة المقاومة التي استطار شررها في افريقية وأصبحت ليبيا مركزا للجيوش الاسلامية أو منطلقا للقوى الذاهبة إلى المغرب لإخضاع الثورات في افريقية او ملاذا للتراجع والانحياز حتى انه لما قتل عقبة واحتل كسيلة مدينة القيروان وانقلبت افريقية ضد العرب انسحب زهير بن قيس البلوي الذي كان عقبة قد خلفه في القيروان إلى برقة انتظارا لرأي الخليفة بدمشق[92].

وعلى الرغم من تمام الفتح الإسلامي للمرب على يد موسى بن نصير عام 88 هـ [93]. فقد تخلل فترة الفتح هذه وتلاها إلى نهاية القرن الاول كثير من الحركات الخارجية التي كانت تهدف إلى التخلص من الحكم الجديد ونبذ سلطان الإسلام يقول ابن خلدون: «ارتد البربر في افريقية عن الاسلام اثنتى عشرة مرة، ولم يثبتوا على الاسلام الا في عهد موسى بن نصير»[94]. وقد كان من أكبر الحركات المضادة ثورة «الكاهنة» التي أشعلت البلاد نارا في

92 - حسن سليمان محمود ص 103 ، 104 وتاريخ ليبيا لإحسان عباس ص 28 ، 29

93 - يعلل الاستاذ دبوز طول الفترة التي استغرقها الفتح الاسلامي للمغرب بالأسباب الآتية: 1 - كثرة الممالك وتعددها واستقلال كل منها ولم يكن المغرب دولة واحدة يخضع اذا اسقطت حكومته بل كانت فيه حكومات وملوك فإذا هزم احدهم لم يفتح المسلمون الا ناحيته. -2 كره البربر للأجنبي. -3 عداوة الروم المستعمرين للإسلام. -4 قوة المغرب. -5 طبيعة بلاد المغرب الجبلية. -6 شجاعة البربر واباؤهم وتمسكهم بمبادئهم (109/2) وقد ظهرت الصعوبات في حكم البربر واسلاس قيادهم من قديم ومع أن الرومان كانوا في الغالب يقنعون بفرض الجزية على البربر وتجنيدهم وتركوا حكم القبائل لشيوخها فإن نار الرغبة في الاستقلال لم يخمد اوارها في صدور البربر فبدت حينا في شكل فتن يقودها وطنيون تتفاوت درجة تأثرهم بالرومان مثل تاكفاريناس Tacfarinas (17-29م) وحينا آخر في شكل غارات يقوم بها بدو الصحراء او القبائل التي تعيش في الداخل والتي لم تأخذ بأسباب الحضارة ومنذ نهاية القرن الثالث الميلادي اخذ نفوذ الرومان يتقلص كما تشهد بذلك حركات البربر الناشطة التي كانت تزداد قوة على قوة ووضحت شخصية البربر باعتناقهم مذاهب تخالف مذهب حكامهم كالدوناتية (انظر دائرة المعارف الإسلامية مادة بربر)

94 - حسن سليمان محمود ص 115 ، 116

طولها وعرضها ومهما يكن سبب هذه الثورة فقد كانت ثورة دينية تهدف إلى التخلص من النفوذ الإسلامي واسم هذه الكاهنة «داهية» وكان لها عسكر عظيم من البربر والروم وكان نفوذها في منطقة جبل اوراس وكانت أمرأة ساحرة ذات شوكة وقوة[95]. وقد استفحل أمر هذه الكاهنة فيما بعد حتى شمل المنطقة من طرابلس إلى طنجة وحاربها حسان بن النعمان (ولى افريقية والمغرب سنة 77 هـ او سنة 78 هـ) في معقلها عند جبال اوراس ولكنها هزمته شر هزيمة وفر حسان في نفر قليل من اصحابه إلى طرابلس وأرسل بهزيمته إلى عبد الملك بن مروان بمصر فأرسل اليه عبد الملك ان ينتظر حيث أدركه كتابه فأدركه في اراضي سرت فأقام بها خمس سنين ينتظر المدد. وأتاه المدد سنة 84 فأستأنف حسان غزو الكاهنة ونشبت بينهما حرب قاسية انتهت بقتل الكاهنة وزوال ملكها سنة 84هـ[96]. وكانت الكاهنة قد أصدرت أوامرها حتى تعوق تقدم المسلمين بقطع المزروعات والأشجار وحرق الغابات والأحراش وتدمير كل ما يوجد في طريق المسلمين من طرابلس حتى طنجة وذلك فيما بين عامي 82-84[97]. مما ألحق بالبلاد شر الأضرار وادى بالكثيرين إلى الهجرة ومغادرة البلاد. يقول ابن عذارى: «يقال ان افريقية كانت ظلا واحدا من أطرابلس إلى طنجة وقرى متصلة ومدائن منتظمة حتى لم يكن في أقاليم الدنيا أكثر خيرات ولا أوصل بركات ولا أكثر مدائن.. مسيرة ألفي ميل في مثله فخربت الكاهنة كل ذلك «[98]. وبمقتل الكاهنة وتشتت جمعها قفلت صفحة من صفحات الحروب الدينية. ولم يأت عام

95 - المونس لابن دينار مقتبس في : ليبيا في كتب التاريخ والسير لإحسان عباس ص 198 - 201

96 - ولاة طرابلس للزاوي ص 29 ، 30 ويبدو ان الكاتب قد أخطأ في اسم عبد الملك بن مروان وان صحة الاسم عبد العزيز بن مروان الذي ولى مصر منذ عام 66 هـ إلى عام 85هـ كما جاء في النجوم الزاهرة .

97 - الزاوي : تاريخ الفتح العربي ص 6

98 - البيان المغرب 36/1

100هـ حتى كان الإســلام قد بسط نفوذه على الإقليم كله. يقول صاحب المونس: «وعلى رأس المائة الاولى دانت افريقية للعرب من برقة إلى الســوس، ولم تقم بعدها للنصارى والبربر قائمة؛ فمنهم من دخل الإسلام ومنهم من بقى على النصرانية فضربت عليهم الجزية»[99].

واذا كان القــرن الاول قد مــر تقريبا في إتمام عملية الفتح وتثبيت جيوش المســلمين في المنطقة فــإن القرن الثاني يمتــاز بأنه قرن الدعوة الإســلامية وإرســال الدعاة ورجال الدين إلى المنطقة ليعلموا الناس دينهم ويطلعوهم على أسراره وخفاياه واذا كان موسى بن نصير (في اواخر القرن الاول الهجري) قد وصــف بأنه أول من أهتم بتعليــم البربر القرآن الكريم وعلــوم الدين[100]. فإن اســماعيل بن عبيد الله بن ابي المهاجر (تولى في المحرم ســنة 100 هـ) قد اقترن عهده بوفود عشــرة فقهــاء من أعيان التابعين إلى المغرب لإرشــاد البربر وتعليمهم الدين الإســلامي واللغة العربيــة. وقد تم ذلك عام 100 هـ في خلافة عمر بن عبد العزيز وانتشــروا في انحاء البلاد. وقد كان اســماعيل نفســه حسن الســيرة ولذلك لم يبق احد من البربر في ولايته الا أسلم، مع قصر فترة ولايته التي لم تبلغ العامين[101].

أما أســماء هؤلاء العشرة من فقهاء التابعين فقد حفظها لنا ابو العرب فــي كتابه «طبقات علمــاء افريقية وتونس» حيث قــال[102]: «حدثني فرات بــن محمد ان عمر بن عبد العزيز ارســل عشــرة من التابعــين يفقهون أهل افريقية منهم: موهب بن حي المعافري، وأقام بإفريقية حتى مات بها، وحبان

99 - حسن سليمان محمود ص 117

100 - المرجع ص 115 ، 116

101 - انظــر : شــيت خطــاب : قادة فتح المغرب 166/2 ، 167 وحســن ســليمان محمود ص116 ، 117

102 - ص 84-87

بــن ابي جبلة، واســماعيل بن عبيد الله الأعور القرشــي مولاهم، وكان رجلا صالحا اســتعمله عمر بن العزيز ليفقههم ايضاً، واسماعيل بن عبيد مولى الانصــار.. وطلق بن حابان.. وبكر بن ســوادة الجذامي، وعبــد الرحمن بن رافع التنوخي.. وابو عبد الرحمن الحبلي، واســمه عبد الله بن يزيد، مات بإفريقية، وله بها مسجد، وسعيد بن مسعود التجيبي..»[103].

ولم يكن هؤلاء الدعاة وحدهم السبب في إقبال البربر على الإسلام فقد كانــت القدوة الحســنة والمعاملــة الطيبة التي عامل بها الحــكام الصالحون رعيتهم من الأسباب الهامة في تحبيب الناس في ذلك الدين الوافد وجعلهم يشعرون بالسيادة والطمأنينة والرضا في ظله ومن ابرز هؤلاء الولاة القدوات نجد:

1 - حسان بن النعمان الذي منح البربر الذين يؤيدون الفتح حق المساواة الكاملة مع العرب في الأعطيات والحقوق وادخل قســما من البربر في الجيش الإســلامي واعتبــر ارض المغرب مفتوحة صلحــا لا عنوة وأقــر البربر على ما فــي أيديهم من الأرض وبذلك لم يســلب البربر ارضهــم ولا ميزاتهم المادية الأخرى[104].

2 - اســماعيل بن عبيد الله بن ابي المهاجر الســابق الإشارة اليه ويذكر المؤرخــون دليلا على فضلــه وتورعه القصة التالية: كان مــن عادة الخلفاء الا يدخلوا خزائنهم شــيئا مما يرســله الولاة الا بعد أن يشــهد عشرة عدول انه مال مســتصفى حلال بعد دفع الأعطيات والإنفاق على مصالح الرعية وفي أيام ســليمان الخليفة أقبلت اموال افريقية وشهد ثمانية من العدول ان المال

103 - هؤلاء تسعة وقد اسقط المؤلف العاشر واسمه ابو سعيد جعثل بن هاعان بن عمير (هامش رقم 1 من المرجع السابق ص 84)

104 - شيت خطاب 170/2، 171 واحسان عباس : تاريخ ليبيا ص 35

حلال اما اسـماعيل هذا والسـمح بن مالك الخولاني فقد ابيا ان يحلفا وكان عمـر بـن عبد العزيز حاضرا المجلـس فأعجبه موقف الرجلين ومـا أن جاء إلى الحكم حتى اولى اسماعيل أمر افريقية[105]. ويقول عنه دبوز: ابو المهاجر رأى أن المسـلمين بدينهم الذي يفتح القلوب وليس بسـيوفهم وسلاح الإسلام الأكبر هو الدعاية التي ينتشـر بها فوضع خطة على أساس تطهير افريقية مـن الروم الذين يبثون الدعاية ضد الاسـلام وهو اول مـن دخل البلاد البربرية المسـتعصية فبث فيها الإسـلام وهو الذي وصل البربـر بالعرب وفتح قلوب البربر لمحبة العرب بلينه وكياسته وحسن تأتيه[106].

وقد كان انتشار الإسلام في المغرب خلال القرن الأول الهجري وتقويضه دعائم الأديان السـابقة وقضائه على المسـيحية قضاء مبرمـا من القضايا التـي لفتت نظر المستشـرقين وعبروا عنهـا كل بطريقتـه الخاصة وحاولوا تعليلها يقول Playfair:» يعد مجيء الإسلام إلى هذه المنطقة أغرب حركة شـاهدها العالم على الإطلاق فقد ظهر وانتشر بسرعة عجيبة وطغى على كل المعالم المسـيحية والمظاهر الحضارية في الشـمال الإفريقي»[107]. ويقول Randa II – Maciver و Anthony Wilkin: «إن سـيطرة العرب على الأماكن المنبسـطة من الشـمال الإفريقي تسـتحق التقدير ولكن الغريب ان سـكان الجبال الذين عاشوا دائما مستقلين لم يقبلوا الإسلام فقط بل ظلوا مخلصين له[108]« . ويقول Peyronnet: «تحير كل المؤرخين من سرعة تأثير العرب على البربر في ديانتهم وعاداتهم وأخلاقهم»[109].

105 - حسين مونس : ثورات البربر ص 146
106 - 33-30/1
107 - The Bibliography of the Barbary States القسم الاول ص 560
108 - Libyan Notes ص 8
109 - الميلى 351/1

وقد اختلفت وجهات نظرهم في تعليل هذه الخاصة الاكتسـاحية التي يتصف بها الإسـلام فمنهم من عزاها إلى تعصب الولاة المسـلمين ووسائل الضغط والإكراه التي باشـروها ضد ابناء الشـعوب المفتوحة ولكن توماس ارنولد نفسه قد تكفل بالرد على هذا الرأي قائلا:

1 - لا يصح ان نلتمس تدهور الكنيسة المسيحية في شمال افريقيا في تعصب الولاة المسلمين اذ ليس هناك دليل بين يؤيد مثل هذا الرأي.

2 - كان عدد الأهالي المسـيحيين في نهاية القرن السابع الميلادي قليلا جدا وان اسـتمرار بقائهم في ظل الحكم الإسـلامي لأقوى دليل على انعدام وسائل العنف والإكراه في التحول إلى الإسلام.

3 - انحلال الكنيسـة التدريجي دليل على تسامح المسلمين فقد وجد بعـد الفتح الإسـلامي بثلثمائة سـنة تقريبا ما يقرب من أربعين أسـقفية كانت ما تزال باقية هناك وفي سـنة 1053 م حزن البابا ليو التاسع على انه لم يكن يوجد الا خمسـة أساقفة يمثلون الكنيسة الافريقية التي كانت من قبل تتمتع بالشهرة والازدهار[110].

أمـا المنصفون من المستشـرقين فقد عزوا هذه الظاهـرة إلى الخصائص الذاتية التي يتمتع بها الإسـلام والسمعة الحسـنة التي كانت تسبقه إلى البـلاد قبل فتحها وسـنكتفي بشـهادة اثنين منهم في هـذا الخصوص اما أولهما فهو جوسـتاف لوبون الذي يعزو سـرعة انتشار الإسلام إلى الأسباب الآتية:

1 - لم تعـم الفتوحات أبصار العرب ولم تجعلهم يقترفون من المظالم ما يقترفه الفاتحون عادة ولم يسـيئوا معاملة المغلوبين ولم يكرهوهم على

110 - الدعوة إلى الاسلام ص 144 . 149

اعتناق الدين الذي كانوا يرغبون في نشره في العالم ولو فعلوا ذلك لتألبت عليهم جميع الأمم التي كانت غير خاضعة لهم بعد ولأصابهم مثل ما أصاب الصليبيين عندما دخلوا سورية مؤخرا ولكن العرب اجتنبوا ذلك.

2 - حلم العرب الفاتحين وتسامحهم كن من الأسباب السريعة في اتساع فتوحهم وفي سهولة اعتناق كثير من الأمم لدينهم ونظمهم ولغتهم التي رسخت وقاومت جميع الغارات وبقيت قائمة حتى بعد توارى سلطان العرب عن مسرح العالم.

3 - أن النظم الإسلامية كانت من البساطة في الحقيقة بحيث لاءمت احتياجات طبقات الأهلين الوسطى والبسيطة ايضا[111].

وأما ثانيهما فهو سكوت الذي يقول ما ترجمته:

اذا اردنا أن نفهم قوة الديانة المحمدية وسر انتشارها ونموها السريع في أيامها الاولى في آسيا وافريقية فإننا لابد ان نعلم ما يأتي: كان دعاة محمد يأتون كرسل للأمل والرجاء والتحرير لشعوب عانت العبودية والاسترقاق وعلى عكس ما كانت تتعرض له الشعوب تحت ظل المسيحية من اضطهاد ورعب جاء الدين الجديد يبشر بإله واحد رحيم غفور ووسط الفساد السياس الذي كان موجودا قدم الإسلام صورة للمجتمع الديني الذي يسوده الوئام كذلك فالإسلام يخاطب الارقاء والمستضعفين ويزيل الحواجز الطبقية او الإجتماعية كل المسلمين سواسية امام الله لا مسلم يمكن ان يتخذ عبدا من نفس دينه ان عبدا او أي رجل يمكن ان يصل باستعداده إلى اعلى مرتبة في البلد والإسلام بجانب هذا يعد ابسط الديانات وأقربها إلى الفطرة لا أستثنى المسيحية ولا اليهودية « لا إله الا الله محمد رسول الله « هذه

110 - حضارة العرب ص 605

أبسط عقيدة وأوضحها وأثبتها وأكثرها صلابة وتركيزا تدور حولها الديانة الإسلامية لاتوجد مماحكات دينية ولا مكان فيها للمبشرين والوعاظ الكنسيين انها عقيدة الرجل الساذج البسيط ذي الشخصية القوية الذي تمرد على التهاويم والأحاجي التي سيطرت على العقلية البشرية اذ ذاك ان دين محمد يخاطب حتى العبيد والأميين انه يلغي أي وساطة بين العبد والرب وان الرجل العادي الذي عجز عن فهم نظرية التثليث وجد سهلا ان يفهم عقيدة التوحيد الفطرية ..[112]

ومن أجل هذا لا نعجب اذا روت لنا كتب التاريخ ان من البربر من سعى إلى الاسلام قبل ان يطأ الاسلام ارضهم فبعد فتح مصر قدم على عمرو ستة نفر من البربر يبدون رغبتهم في الإسلام لأن جدودهم اوصوهم بذلك فوجههم عمرو إلى عمر فأكرمهم وكتب إلى عمرو بن العاص ان يجعلهم على مقدمة المسلمين وكانوا من افخاذ شتى[113] كذلك لا نعجب اذا علمنا بدخول الإسلام المناطق الصحراوية وانتشاره بين الطوارق في فترة مبكرة جدا لاتتجاوز القرن السابع الميلادي (ينتهي القرن السابع الميلادي عام 80 هـ). ويدل على ذلك مقابر العرب الذين قدموا للتبشير بالدين تلك المقابر الموجودة في تيوتين Tio Tine فضلًا عن نقوش تيماسو Timissao في سقف احد الكهوف[114].

وقد كان من الممكن ان تسير الأمور على خير ما يرجوه المسلمون. لو سار الخلف من الولاة على سنة السلف وغلبوا دينهم على دنياهم. وأصلحوا آخر الأمر بما يصلح به اوله ولكن جاءت طبقة من الولاة فتحت للناس أبواب الشر

111 - The Romance Nearst East ص 177 ، 178
112 - دبوز 7،8/2 ومقدمة «الوضع» لطفيش ص 6 ، 7
113 - الصحراء الكبرى ص 102

وسمحت للفتن ان تطل برءوسها بما خالفوه من اوامر الدين، وبما ساروا به في الرعية من طرق يأباها الإسلام وينهى عنها الخلق القويم وبما عرف عنهم من طمع في اخذ اموال الرعية وقسوة في جمع الخراج منهم وهكذا لم تنعم بلاد المغرب في ظل الإسلام بالاستقرار المأمول ولم يدم لها هدوؤها وطمأنينتها بل اشتعلت ثورات وفتنا وتفرقت شيعا واحزابا وتوزعت دويلات وولايات وندر ان تمر فترة من الزمن دون اضطرابات وقلاقل وثورات وهجمات وكروفر وإقبال وإدبار وكان القائم بمعظم هذه الثورات سكان البلاد الأصليين من البربر ولم تكن ثوراتهم ضد الدين بل كانت ضد الحاكم الظالم ولم تكن بهدف الخروج على الإسلام بل كانت بهدف تأديب الوالي المستبد ولهذا فغنه على الرغم من كثرة الثورات والحركات الخارجية البربرية لا نجد حركة واحدة منها - منذ القرن الثاني الهجري - تهدف إلى استبدال دين آخر بالإسلام او العودة إلى الحياة الجاهلية الأولى وهذا فرق كبير بين ثورات القرن الأول وثورات القرن الثاني الهجري تهدف إلى استبدال دين آخر بالإسلام او العودة إلى الحياة الجاهلية الاولى وهذا فرق كبير بين ثورات القرن الاول وثورات القرن الثاني وما يليه لابد ان ينتبه اليه كل من يرصد الحركات الثورية في المغرب العربي وفي ذلك يقول اغسال Gsell: «كان البربر يثورون على العرب إما أنفة من أداء الخراج واما طمعا في الإستقلال وغرضهم اخراج العرب من وطنهم وقد أسسوا دويلات فيما بين طرابلس والأندلس ومع ذلك لم يفكروا في رفض لغة العرب وديانتهم والرجوع إلى اللغة اللاتينية والدين المسيحي فبقي مؤلفوهم في التوحيد والفقه والتاريخ يكتبون تأليفهم باللغة العربية وشاد ملوكهم قصورهم على الفن العربي وصارت بعض القبائل البربرية تلفق انسابا تتصل بها من العرب»[115].

115 - الميلي 350/1

ونكتفي بذكر المثالين الآتيين لظلم بعض الحكام وتعسفهم تاركين الاستقصاء للمشتغلين بالتأريخ السياسي:

1 - موسى بن نصير رجل نشيط قادر ومحارب ماهر ولكنه لم يكن خبيرا في سياسة الشعوب فبدلا من أن ينفق وقته في التنظيم وكسب القلوب مضى يحارب البربر ويرميهم بالجيش تلو الجيش حتى روعهم وشككهم في مرامي الحكم الاسلامي وانصرفت همته إلى الغنيمة والسبى وأسرف في ذلك اسرافا انكره عليه العرب انفسهم فقد روى انه لما ارسل إلى الوليد عشرين الفا من السبى (وهو مقدار الخمس فقط) قال الناس: ابن نصير والله احمق من اين له عشرون ألفاً يبعث بها إلى امير المؤمنين في الخمس!! ونتيجة لهذه السياسة ريع البربر، وجعلوا يتركون مساكنهم، ويتهاربون امامه، واضطر معظمهم إلى الاستئمان وبذل الطاعة عن رهبة، ومضى على ذلك هو وبنوه من بعده وكبار رجاله قرابة عشر سنوات، اصابوا من المغانم والسبى مالم يسمع بمثله من قبله، وفاق ما غنمه المسلمون من فارس وغيرها من الأقاليم[116].

2 - يزيد بن دينار بن ابي مسلم (102هـ) الذي كان ماديا ورأى قلة الدخل بسبب اسلام من اسلم من البربر فعزم ان يسير بسيرة الحجاج في اهل الاسلام الذين سكنوا الأمصار ممن كان أصله من السواد (القرى) من أهل الذمة فأسلم بالعراق فإنه ردهم إلى قراهم ووضع الجزية على رقابهم على نحو ما كانت تؤخذ منهم وهم اهل ذمة وزعم يزيد ان بلاد المغرب فيء للمسلمين ومغنم لهم فتحت عنوة بالسيف وهو عكس ما رآه حسان وأقره موسى بن نصير وكل الولاة من بعده.

116 - حسين مؤنس : ثورات البربر ص 144

وكانت النتيجة الحتمية قتل يزيد بعد الثورة عليه وتعيين وال آخر مكانه[117].

ومهما يكن من شيء فقد استقر الإسلام في البلاد ورسخ منذ بداية القرن الثاني الهجري ولم يصب بأي نكسة منذ ذلك الوقت حتى الآن رغم تكرار تعرض البلاد لهجمات مسيحية من ايطاليا وفرنسا واسبانيا ومالطة وغيرها.

وقد زاد من رسوخ الإسلام في المنطقة قيام دويلات بربرية[118] ووجود كثير من الفرق الإسلامية والمذاهب الفقهية وشدة التنافس بينها ومحاولة أعوان كل فرقة او مذهب ان يكسبوا انصارا جددا وان يكون لهم السلطان دون غيرهم.

وأشهر الفرق الاسلامية التي كونت لها مدارس بالمنطقة: الخوارج والأباضية والمعتزلة أما المذاهب الفقهية فكان أشهرها المذهبين الحنفي والمالكي وقد كان الخوارج من أسبق الناس وصولا إلى المغرب اذ كان ظهورهم قبل منتصف القرن الاول الهجري ثم اضطهدوا فاضطر بعضهم إلى الهرب وقصدوا شاطئ تونس وجزيرة جربة وقد لاقت مبادئ الخوارج اذنا صاغية بين البربر وبخاصة في المغرب الأقصى وجنوب تونس واعتنقها الكثيرون منهم ولذلك لما تنادى به من مساواة وما تعلنه من أن الخليفة لايجب ان يكون قرشيا وقد كان أول من دعا إلى المذهب الخارجي في المغرب عكرمة بن عبد

117 - دبوز 202/201/2

118 - يقول توماس ارنولد : لم ترسخ قدم الإسلام بين البربر الا بعد ان أتخذ شكل حركة حركة قومية واصبح مرتبطا بتولي دول البربر الحكم تلك الدول التي دخل في عهدها كثير من البربر الإسلام وكانوا من قبل يعدون قبول هذا الدين رمزا على ضياع الاستقلاق السياسي (ص351) ويقول : لا يبعد ان تكون الحركة القومية الكبرى التي نشأت بين قبائل البربر وأعنى بها ظهور الموحدين في بداية القرن 12م قد جذبت إلى المسلمين بعض القبائل التي كانت بعيد عن الإسلام حتى ذلك الحين (ص 353).

الله المتوفي سنة 107 هجرية، وكان من كبار تلاميذ ابن عباس، ومن رجال العلم في عصره، ومن الفقهاء الكبار في الدين، ومن الشخصيات العلمية الناضجة، وكان ثائرا لتحيز الأمويين لأنفسهم وتفريقهم بين المسلمين[119].

أما الأباضية[120] فينسبون إلى عبد الله بن أباض رغم ان إمام الأباضية هو جابر بن زيد وقد حملوا هذا الاسم في زمن عبد الملك بن مروان أما انتقال هذه المدرسة إلى المغرب بعامة وطرابلس بخاصة فقد تم في أوائل القرن الثاني الهجري على يد سلمة بن سعد الذي دعا لمبادئه قرابة عشر سنوات، ثم كون بعثة علمية سافرت إلى البصرة للقاء ابي عبيدة بن ابي كريمة البصري زعيم الأباضية في عصره. وعادت البعثة لتنشر المبادىء الأباضية. وتعمل على قيام دولة أباضية. وسوف يأتي مزيد بيان عن هذه الفرقة ونشاطها الديني فيما بعد نظرا لاستقرار قسم كبير منها بطرابلس. ويحرص الأباضيون دائما على ان يفرقوا بين مبادئهم ومبادىء الخوارج، ومع ذلك نجد كثيراً من الباحثين لا يميز بين الفرقتين. وقد لخص الاستاذ دبوز أهم مبادىء الأباضية وبين الفرق بينهم وبين الخوارج فيما يأتي:

1 - كلاهما أنكر التحكيم وتمسك بالحكم الجمهوري.

2 - أن الخوارج مغالون والأباضية معتدلون.

3 - هناك فروق بينهما في الاعتقاد والمسائل الجوهرية والسلوك.

4 - الأباضية لا يحكمون بكفر مرتكب الكبيرة ولكن يرونه عاصيا

119 - دبوز 279/2 وظهر الإسلام 293/1 و A History of the Colonization of Africa ص 56 ولكن ذكرت دائرة المعارف الإسلامية ان هذه الحركة قد بدأت في المغرب على يد ميسرة السقاء الطنجي (عام 122هـ) راجع مادة بربر .

120 - من الغريب ان نجد كتاب الأباضية المحدثين مثل معمر وعمرو نامى ومحمد دبوز يصرون على كتابة الكلمة بهمزة من اسفل مع انها بهمزة من اعلى يقول صاحب الجواهر المنتقاة : «عبد الله بن أباض والنسبة اليه أباضي بفتح الهمزة» (ورقة 79)

بخلاف الخوارج[121].

5 - الأباضية لا يقاتلون الا دفاعا عن النفس او الدين بخلاف الخوارج.

أمـا المعتزلة فيبدو أن مركز تجمعاتهم كان بالمغرب الأوسط والأقصى وأنهم كانوا يكثرون في «تيهرت» عاصمة الدولة الرستمية يقول الباروني: إن الواصلية من المعتزلة قد خرجوا على الإمام وحاربوه وأنه لما أنهى الإمام عقد الهدنة مع الواصلية استعد لهم وتهيأ لإطفاء جذوة نفاقهم ولما كان جبل نفوسة وما يليه من حيز طرابلس من جملة ولايات مملكته التي تدين بالطاعة له وتتفانى في رضائه وفيه من أهل نجده والشجاعة وأبطال الحرب وفحول العلماء ما يعد بالألوف رأى أن يطلب منهم الإعانة فارسل إلى عامله بالجبل كتابا طلب منه جندا يتألف من 400 نفر. 100 من خيرة فرسان نفوسة و 100 من المتبحرين في التفسير. و100 من علماء الكلام و 100 من العلماء المتضلعين في الحلال والحرام ولكن أهل نفوسة اختاروا أربعة كل واحد منهم يقوم مقام مائة وكان الذي اختاروه ليمثل علماء الكلام العلامة مهدي النفوسي ولما التقى الإمام الرستمي بمهدي النفوسي قال له: أصغ الي حتى أعرض عليك ما جرى بيني وبين المعتزلي من المحاورات لتكون على بصيرة من الأمر وتعلم مقدار معرفته فأصغى اليه وصار يسرد له الحديث وكلما رأى خطأ في كلام المعتزلي قال له: هاهنا حاد عن الصواب وسفسط وكان من الصواب أن تجيبه يأمير المؤمنين بكذا وقد دخل مهدي النفوسي في نقاش مع المعتزلة فأفحم - كما يقول الباروني - في يوم واحد تسعين منهم. ودعى المعتزلة إلى مناظرة علنية بين شيخهم ومهدي النفوسي انتصر فيها مهدي وسلم المعتزلة بهزيمتهم[122].

121 - دبوز 390/2 - 394
122 - الأزهار الرياضية 116/2-125

وقد كان المذهب المالكي أسبق المذاهب الفقهية شيوعا في المغرب ثم تلاه مذهب ابي حنيفة أما المذهب الشافعي فلم يجد له انصارا عندهم يقول المقدسي: بسائر المغرب (ما عدا الأندلس) إلى مصر لا يعرفون مذهب الشافعي رحمه الله، انما هو ابو حنيفة ومالك. وكنت يوما أذاكر بعضهم في مسألة، فذكرت قول الشافعي فقال: اسكت، من هو الشافعي؟ إنما كانا بحرين: أبو حنيفة لأهل المشرق، ومالك لأهل المغرب، أفتتركهما وتشتغل بالساقية، ورأيت أصحاب مالك يبغضون الشافعي، قالوا أخذ العلم عن مالك ثم خالفه وما رأيت فريقين أحسن اتفاقا وأقل تعصبا منهم وسمعتهم يحكون عن قدمائهم في ذلك حكايات عجيبة حتى قالوا: إنه كان الحاكم سنة حنفيا وسنة مالكيا قلت: وكيف وقع مذهب ابي حنيفة رحمه الله إليكم ولم يكن على سابلتكم؟ قالوا: لما قدم ابن وهب من عند مالك رحمه الله وقد حاز من الفقه والعلوم ما حاز استنكف أسد بن عبد الله لجلالته وكبر نفسه أن يدرس عليه فرحل إلى المدينة ليدرس على مالك فوجده عليلا فلما طال مقامه عنده قال له: ارجع إلى ابن وهب فقد أودعته علمي وكفيتكم به الرحلة فصعب ذلك على أسد وسأل: هل يعرف لمالك نظير؟ فقالوا: فتى بالكوفة يقال له محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة قالوا: فرحل اليه وأقبل عليه محمد إقبالا لم يقبله على أحد ورأى فهما وحرصا فزقه الفقه زقا فلما علم أند قد أستقل وبلغ مراده فيه سيبه إلى المغرب فلما دخلها اختلف اليه الفتيان ورأوا فروعا حيرتهم ودقائق أعجبتهم ومسائل ما طنت على أذن ابن وهب... وفشا مذهب ابي حنيفة بالمغرب[123].

وقد قوى مذهب ابي حنيفة في المغرب بعد تولى ابي يوسف في عهد الرشيد خطة القضاء فكان القضاة يعينون من قبله من أقصى المشرق إلى

123 - أحسن التقاسيم ص 236 ، 237

أقصى عمل إفريقية ويقول عياض: ظهر مذهب أبي حنيفة بإفريقية قرابة 400 عام ثم انقطع منها[124] وقد كانت بدايةاضمحلاله على يد المعز بن باديس الصنهاجي (توفي سنة 454) الذي كان أول الأمر شيعيا يدعو لآل عبيد. ثم قطع دعوتهم ودعا لبني العباس وحمل الناس على مذهب الإمام مالك[125] وأقتحم النفوذ المالكي فيما بعد معاقل الأباضية. فيقول الباروني عن جبل غريان إنه عامر بقبائل مالكية المذهب خرجوا عن مذهب الأباضية منذ عصر الشيخ اسماعيل بن موسى الجيطالي[126].

وقد حافظت على الإسلام في المنطقة عوامل اخرى أدت إلى استمراره، بل وعملت على نشره في المناطق المجاورة. ومن ذلك:

1 - قيام الدولة المرابطية التي تعد أول دولة وحدت المغرب الأوسط والأقصى وقامت بدور كبير في نشر الإسلام على الساحل الإفريقي الغربي وبلاد السودان ويجمع المرابطون بين الجهاد والثقافة الدينية.

2 - كذلك كان للموحدين أثر محمود في الجهاد ضد الصليبيين في الأندلس كما كان من مآثرهم نشر دعوتهم التي تقوم على التوحيد وكان للموحدين الفضل العظيم في نشر الثقافة الإسلامية[127].

3 - كذلك كان لكثرة المساجد والزوايا ومجالس العلم أثر كبير في نشر الإسلام وتعاليمه. وسوف نفرد لذلك حديثا خاصا في الفصل الرابع ان شاء الله.

كذلك سنرى في فصل الدراسات الإسلامية من الباب الثاني مدى غزارة البحث الديني وكثرة التأليف فيه.

124 - الأدب المغربي لابن تاويت والصادق عفيفي ص 46 . ظهر الإسلام 293/1
125 - ظهر الإسلام 293/1 و 294
126 - 89/2
127 - انتشار الإسلام في القارة الإفريقية لحسن ابراهيم حسن ص 17 . 2 . 22

أقصى عمل إفريقية ويقول عياض: ظهر مذهب أبي حنيفة بإفريقية قرابة 400 عام ثم انقطع منها[124] وقد كانت بدايةاضمحلاله على يد المعز بن باديس الصنهاجي (توفي سنة 454) الذي كان أول الأمر شيعيا يدعو لآل عبيد. ثم قطع دعوتهم ودعا لبني العباس وحمل الناس على مذهب الإمام مالك[125] وأقتحم النفوذ المالكي فيما بعد معاقل الأباضية. فيقول الباروني عن جبل غريان إنه عامر بقبائل مالكية المذهب خرجوا عن مذهب الأباضية منذ عصر الشيخ اسماعيل بن موسى الجيطالي[126].

وقد حافظت على الإسلام في المنطقة عوامل اخرى أدت إلى استمراره. بل وعملت على نشره في المناطق المجاورة. ومن ذلك:

1 - قيام الدولة المرابطية التي تعد أول دولة وحدت المغرب الأوسط والأقصى وقامت بدور كبير في نشر الإسلام على الساحل الإفريقي الغربي وبلاد السودان ويجمع المرابطون بين الجهاد والثقافة الدينية.

2 - كذلك كان للموحدين أثر محمود في الجهاد ضد الصليبيين في الأندلس كما كان من مآثرعم نشر دعوتهم التي تقوم على التوحيد وكان للموحدين الفضل العظيم في نشر الثقافة الإسلامية[127].

3 - كذلك كان لكثرة المساجد والزوايا ومجالس العلم أثر كبير في نشر الإسلام وتعاليمه. وسوف نفرد لذلك حديثا خاصا في الفصل الرابع ان شاء الله.

كذلك سنرى في فصل الدراسات الإسلامية من الباب الثاني مدى غزارة البحث الديني وكثرة التأليف فيه.

124 - الأدب المغربي لابن تاويت والصادق عفيفي ص46 ، ظهر الإسلام 293/1
125 - ظهر الإسلام 293/1 و 294
126 - 89/2
127 - انتشار الإسلام في القارة الإفريقية لحسن ابراهيم حسن ص17 ، 2 ، 22

الفصل الثالث
الصراع اللغوي في المنطقة

مراحل الصراع:

جـاءت اللغة العربية إلى ليبيا مع جيوش الفتح الإسلامي فوجدت بها عددا من اللغات تبعا لتعدد الأجناس بها فالبربر وهم سكان البلاد الأصليون كانوا يتكلمون البربرية والأفارقة وهم الذين اختلطوا من أهل البلاد بالروم ودخلوا في خدمتهم كانوا يتكلمون لغة مزيجا من اللاتينية والبربرية[128]. والفرنجة من الحكام وأتباعهم من الروم كانوا يتكلمون اللاتينية. والفينيقيون - وهم من أصل سامي، وقد هاجروا إلى شمالي افريقية قبل عدة قرون من عصر المسيحية[129] - كانت لغتهم هي الفينيقية. وقد اتسع نفوذ لغتهم حتى كانت تستعمل إلى جانب اللاتينية كلغة رسمية، كما كانت لغة متداولة حتى الفتح العربي[130]. ويذكر الأستاذ الكعاك ان سكان البلاد الأصليين عندما أسسوا ممالك مستقلة كانت إحدى اللغتين الرسميتين هي

128 - شيت خطاب 20/1

129 - اعتبر احمد النائب الأنصاري الفينيقيين أقدم الأمم التي استوطنت ليبيا ويقول إنهم قبل ذلك كانوا يستوطنون فلسطين وسواحل الشام وكانوايترددون على شمالي افريقية منذ القرن 12 ق.م وأنشأوا على سواحله محطات تجارية لنقل بضائعهم (المنهل العذب 27/1) وبدا الفينيقيون استيطانهم عن طريق شراء إحدى نسائهم الحاكمات قطعة أرض بنت عليها مدينة قرطاجنة سنة 840 قم ثم وسعوا نفوذهم وبعد ذلك اخذوا يغيرون على القبال البربرية (الزاوي : تاريخ الفتح ص23 ، 24)

130 - حسن سليمان محمود ص81 وكلمة «لبدة» مثلا اسم فينيقي معناه « الصحراء الخالية من العمران» (المنهل العذب 24/1) ويعطي الدكتور مصطفى كمال عبد العليم في كتابة «دراسات في تاريخ ليبيا القديم « تفصيلات أكثر عن وضع اللغة الفينيقية فيقول :» عثر على كثير من النقوش المكتوبة باللغة الفينيقية ولكن بحروف لاتينية ولعل تلك الفينيقية كانت لغة المجتمعات الليبية المحلية في هذه المناطق البعيدة عن الساحل وأغلب هذه النقوش يرجع إلى فترة متأخرة عن بداية القرن الثالث الميلادي ... وهذه النقوش لها طابع رسمي وهذا يرجح انها كانت اللغة الرسمية الثانية بعد اللغة اللاتينية على الأقل في عصر أغسطس (ص 98)

اللغة البونيقية[131]. وبها ألف البربر تصانيفهم، ولم يكن بربري مثقف لا يعرف اللغة البونيقية[132]. وقد استمرت الكتابة البونيقية مستعملة حتى في معاملات الناس اليومية بالإضافة إلى شئونهم الإدارية والمالية[133].

وقد دخلت اللغة العربية في صراع مع هذه اللغات جميعها، ولكن أمر الصراع كان هينا بالنسبة لما عدا اللغة البربرية فقد كان أصحاب هذه اللغات قلة قليلة وكانت لغاتهم تستخدم في مجالات محدودة وبين أوساط معينة بالإضافة إلى استخدامها في الدواوين فلم تكن أي منها تتمتع بمميزات اللغة العامة ذات النفوذ والقوة في مختلف أنحاء الإقليم هذا بالإضافة لما هو ثابت أن معظم الحكام ومن سار في غبارهم قد غادروا البلاد بعد استتباب أمر المسلمين وتركوا المجال للفاتحين ولغتهم وبذلك خلا الميدان للغتين العربية والبربرية وسارا في صراع طويل ماتزال آثاره باقية حتى وقتنا الحاضر.

وإنه ولئن كان من الثابت أن صراع اللغة العربية مع البربرية لم يدم

131 - اللغة البونيقية لغة مزيج من البربرية والفينيقية (دبوز 64/1) ولكن ذكر الاستاذ محمد مصطفى بازامة أن البونيقية مصطلح أطلقه علماء الغرب على فنيقية قرطاجنة تمييزا لها عن فنيقية أرض كنعان في الشرق (ليبيا هذا الاسم في جذوره التاريخية ص18 هامش رقم 2)

132 - مظاهر الحضارة الفينيقية في طرابلس ص125

133 - المرجع السابق ص127

ولكن ماذا كان وضع اللغة اليونانية في البلاد ؟ يبدو أنها كانت ذات نفوذ في اقليم برقة فقد عثر على نقوش لقرارات أصدرها الامبراطور أغسطس وقد كتبت باللغة الاغريقية (دراسات في تاريخ ليبيا القديم ص156 ، 157) وفيما عدا ذلك لا نجد لليونانية ذكرا او نفوذا في ليبيا حتى البيزنطيون الشرقيون (أو كما سماهم العرب الروم) الذين كانوا يحكمون البلاد حتى الفتح الإسلامي لم يتخذوا اللغة اليونانية لغة رسمية على الرغم من قوة النفوذ الهيليني وقتها فقد كانت «الدولة رغم الدوافع التي تدفعها نحو الشرق تبدو مواصلة لتاريخ روما فبقيت اللغة اللاتينية لغة رسمية رغم ما كان في ذلك من غرابة ومن اوائل القرن السابع إلى منتصف القرن التاسع أسرعت الدولة في تحولها إلى دولة شرقية (الامبرطورية البيزنطية الشرقية ص333 – ملحق بكتاب الامبراطورية البيزنطية لنورمان بينز)

طويلا كما دام بين العربية والقبطية في مصر مثلا فإن نتيجة الصراع كانت فريدة إذ أدت إلى تقاسم مناطق النفوذ فانحسر ظل البربرية وانحصرت في مناطق معينة من ليبيا وهي مناطق التجمعات البربرية حتى الآن وسادت اللغة العربية أو انتشرت في سائر أنحاء ليبيا ولكن مع امتداد سيادتها على مناطق البربر باعتبارها مناطق مزدوجة اللغة.

وقد حكم الصراع اللغتين العربية والبربرية مجموعة من العوامل التي تتحكم في صراع اللغات والتي يمكن اعتبارها قوانين عامة يسرى مفعولها على أي لغتين يحدث بينهما احتكاك نتيجة وجودهما في مكان واحد وهذه العوامل هي:

1 - العامل السياسي.
2 - العامل الاقتصادي.
3 - العامل الديني.
4 - الفترة الزمنية التي تسود فيها العوامل السابقة كلها أو بعضها.
5 - مدى اندماج أصحاب اللغة الوافدة مع اصحاب اللغة الأصلية، وطريقة معاملتهم لهم.
6 - عامل الهيبة أو التفوق الذاتي للغة
7 - درجة قرابة اللغتين المتصارعتين[134] فكلما زادت القرابة بينهما قوى جانب انتصار إحداهما على الأخرى ويكون المرجح هو العوامل الأخرى. وكلما ضعفت القرابة بينهما أو اختفت ضعفت فرص انتصار احداهما على الأخرى وان لم يمنع ذلك من حدوث الانتصار.

وقد لعبت هذه العوامل كلها او معظمها دورا هاما في صالح اللغة العربية وتعاونت فيما بينها لإحلال اللغة العربية في ليبيا محل البربرية باعتبارها اللغة العامة المشتركة وتقليل نفوذ اللغة البربرية إلى أقصى حد.

134 - انظر Vandryes في كتابه Language ص281 – 282 وعلم اللغة لوافي ص209 ومابعدها .

فالبنسبة للعاملين الاقتصادي والسياسي نجد أنهما عملا في ليبيا كما عملا في سائر البلاد العربية في صف اللغة العربية فمما لاشك فيه أن القوة كانت بأيدي العرب الذين بذلوا أقصى وسعهم لتعريب البلد ونشر الإسلام وقد أدت عمليات التعريب ونشر الإسلام إلى نتائج اقتصادية هامة كان لها أثرها في دعم اللغة العربية ورفع شأنها ف ليبيا وقد كان من أهم الخطوات التنفيذية التي خطاها العرب والتي قوت جانبي الإسلام واللغة العربية في ليبيا ما يأتي:

1 - إحلال اللغة العربية محل اللغة اللاتينية أو الفينيقية في الدواوين والمكاتبات الرسمية.

2 - تهجير – أو هجرة – عديد من القبائل العربية إلى ليبيا بخاصة والمغرب بعامة بقصد الإقامة الدائمة.

3 - فرض أنواع مختلفة من الضرائب على غير المسلمين.

4 - قصر الوظائف الرئيسية في الدولة على العرب أو المسلمين.

فإذا انتقلنا إلى العامل الديني نجد أنه من الثابت أنه لم يكن هناك ضغط مباشر على غير المسلمين ليعتنقوا الإسلام[135] ولكننا نجد من الثابت ايضا أنه كانت هناك امتيازات معينة يتمتع بها المسلمون باعتبارهم الطبقة الحاكمة والمرشحين لتولي الوظائف القيادية أو الرئيسية وقد أغرى هذا وذاك مجموعة من المواطنين باعتناق الإسلام لينعموا بالمساواة في ظله أو ليحققوا مصلحة دنيوية[136]. بل منهم من لم يكتف بذلك فادعى أصله

135 - يدعى غروت Garrot أن من بقي على مسيحيته حتى عهد عمر بن عبد العزيز (سنة 719) قد أجبر على الدخول في الإسلام أو الخروج من المغرب مما أدى بالبعض إلى الهجرة إلى اوربا وبالأغلبية إلى الدخول في الإسلام ويرد الاستاذ الميلى على ذلك بقوله :» والظاهر أن هجرة المسيحيين اذ ذاك كانت اختيارا فقد فروا أمام انتشار الإسلام ورسوخه بهذا الوطن إلى حيث يأمنون على ذريتهم عدم سريان الإسلام اليهم (تاريخ الجزائر 347/1 ، 348) وسيأتي لهذه النقطة مزيد بيان فيما بعد .

136 - يمتلىء التاريخ بنماذج من هذا النوع مثل يعقوب بن كلس اليهودي الذي اعتنق الإسلام في ظروف لاتؤيد بحال صدق عواطفه الدينية كان أصله من بغداد وقدم إلى مصر في

العربي وانتسب إلى احدى القبائل العربية[137]. يعتنقون الإسلام طواعية واختيارا مدفوعين بما يقدمه لهم من إقناع عقلي وارتياح نفسي وإشباع عاطفي وبما يحويه من مبادىء وتعليمات سبق صيتها دخول الجيش العربي ومن البدهي أنه اذا اعتنق شخص الإسلام في ظل حكم عربي فإنه سيحاول أن يحاكي المسلمين في كل تصرفاتهم سيذهب إلى المسجد وسيقرأ القرآن ويصلي باللغة العربية وباختصار سيعيش عيشة اسلامية كاملة.

وعامل الإسلام يعد من الناحية اللغوية ذا أهمية قصوى في أي بلد من البلاد التي فتحها المسلمون وقد كان من الواضح ارتباط تقدم اللغة العربية وانتشارها بتقدم الإسلام وانتشاره في كل الأقطار المفتوحة على السواء وقد لعب هذا العامل في ليبيا دورا أقوى مما لعبه في بعض البلدان العربية

عهد كافور الإخشيدي وكان رجلا واسع الذكاء والحيلة وحين علم أن كافورا قال عنه :» لو كان مسلما لاستوزرته» دخل مسجدا يوم الجمعة ونطق بالشهادتين ثم خرج إلى المغرب حيث عاون الفاطميين على فتح مصر فجعله المعز أكبر مستشاريه وعينه أمينا على بيت المال (النجوم الزاهرة 158/4) ولكن ليس معنى هذا أنه هو القاعدة بل هو في الحقيقة الشذوذ الذي يثبت القاعدة وعلى هذا فلا وجه لما تقوله دائرة المعارف الإسلامية :» والواقع أن المصلحة تغلبت في إسلام البربر على الاقتناع لأن قواد العرب عمدوا إلى تجنيدهم في جيوشهم فأسلموا طمعا في الغنائم « (مادة بربر)

137 - يقول مؤلفا «ملامح المغرب العربي» :» يدعى كثير من البربر الذين استعربوا أنهم من اصل عربي شأنهم في ذلك شأن سكان البلاد الأخرى التي دخلها الإسلام « (ص62) وتزعم هوارة أنهم قوم من اليمن جهلوا أنسابهم (البلدان لليعقوبي مقتبس في : ليبيا في كتب الجغرافيا والرحلات ص11) وانظر سكان ليبيا عند اليعقوبي للدكتور عبد القادر طليمات ص230 ، 231 وهناك أمثلة تمت في بلدان أخرى من العالم العربي مثل ما حدث في مصر وعرف بقضية القاضي العمري لقد أخذ هذا القاضي رشوة يقال انها بلغت ستة آلاف دينار ان بعض الحرس الأقباط ليعطيهم حكما بانتسابهم إلى القبيلة العربية حوتكة وقد حدث هذا في الأعوام الأخيرة من القرن الثاني الهجري وأشار اليه المؤرخون والشعراء ومما قيل من شعر في هذه الحادثة :

ومن أعجب الأشياء أن عصابة***من القبط فينا أصبحوا قد تعربوا
وقالوا أبونا حوتك وأبوهم***من القبط علج حبله متذبذب
وجاءوا بأجلاف من الحوف فادعوا***بأنهمو منهم سفاها وأجلبوا

الأخرى كمصر مثلا[138]. لعدم ارتباط أي من الأديان التي كانت موجودة في ليبيا اذ ذاك بلغة معينة يحميها ويعتبرها لغة طقوسه وشعائره وقد سبق أن تناولنا بالشرح موضوع الأديان التي كانت موجودة في ليبيا قبل الفتح الاسلامي ونقاط الضعف فيها كما بينا عظمة الإسلام بالنسبة لها وعوامل القوة فيه.

واما الفترة الزمنية التي ساد فيها الحكم العربي فقد كانت طويلة ومستمرة لدرجة مكنت للإسلام أن يرسخ وللغة العربية أن تسود ولذلك لم يحدث فيما بعد أي محاولة للخروج عن دائرة الإسلام او أي اتجاه لنبذ اللغة العربية.

وأما العامل الخامس، وهو مدى اندماج أصحاب اللغة الوافدة بأفراد الشعب وكيفية معاملتهم لهم فقد سبق أن ذكرنا ما حققه الإسلام من مساواة بين العرب وسكان البلاد من البربر كما سبق أن ذكرنا سياسة الحكام في اجتذاب نفوس البربر وإشعارهم بروح الأخوة والمساواة ومن ناحية أخرى كان اعتبار المسلمين من بقي من الروم والأفارقة موالي لهم وليسوا كالبربر مساوين لهم في الحقوق والواجبات واعتبار ارض الروم مفتوحة عنوة لا صلحا سببا من أسباب اختفاء العنصر الرومي واللاتيني من البلاد شيئا فشيئا حتى تلاشت آثارهم من البلاد تقريبا[139]. وقد أدى هذا إلى إرضاء البربر من ناحية، والى منحهم فرصة النهوض وتحمل المسئولية والأخذ بأسباب الحضارة من ناحية أخرى.

138 - كانت المسيحية في مصر قوية راسخة لذلك كان تحول السكان إلى الاسلام بطيئا وبخاصة في الأماكن النائية من مصر (انظر : جرمة في عصر ازدهارها ص174) وقد أثر هذا على معركة اللغة العربية في مصر فأطال أمدها اذ كان ارتباط اللغة القبطية بالديانة المسيحية واتخاذها اللغة الرسمية في الصلوات والكنائس من العوامل التي أدت إلى التمسك الشديد بها والإبقاء عليها ما أمكن.

139 - حسن محمود ص128 ، 129

وهناك فرض آخر لاندماج الشعبين لا يستبعده الدكتور محمد عوض محمد في كتابه «الشعوب والسلالات الإفريقية»[140] وهو قرابة السلالات أو القرابة الرومية فالكتاب العرب حين يتحدثون عن القبائل العربية في جزيرة العرب وما يليها من الأقطار، كثيرا ما يشيرون - كما فعل صاحب صبح الأعشى - إلى أن البربر من سكان إفريقية الشمالية لهم صلة نسب قديمة بالعرب. ومن الكتاب من يرجع أصل البربر إلى قبائل حمير مستندين إلى الرواية القائلة بوجود غزو يمني لهذه البلاد في القديم وإن كان ابن خلدون ينكر ذلك ويستبعده بشدة[141].

وأيا ما كان الأمر، وحتى على فرض اعتبار البربر حاميين والعرب ساميين فقد سبق أن عرضنا وجهات نظر الباحثين في الأنساب حول صلة النسب القوية التي تربط المجموعتين ويضاف إلى هذا استيطان الفنيقيين بليبيا في فترة سحيقة من التاريخ ترجع إلى ما قبل ميلاد المسيح بقرون كما سبق ان بينا والفنيقيون ساميون لاشك في ذلك ووجودهم بين البربر في جماعات كبيرة قد مازج بين العنصرين إلى درجة ملحوظة.

ويشير الشيخ الزاوى إلى ماحدث من اندماج بين العرب والبربر في أكثر من موضوع من كتابه «معجم البلدان الليبية» كقوله عن اولاد بوماضي: «إنهم قبيلة عربية لم تحافظ على أصولها العربية بل التحمت مع بعض القبائل البربرية بالمصاهرة والجوار فحصل بينهما امتزاج كبير»[142]. وقوله: «لما كثر العنصر العربية في افريقية وتغلبوا على أمصارها وسكنوا مدنها وقراها وأصبحوا أكثرية انحاز البربر إلى جبل نفوسة وزوارة واندمج بعضهم

140 - ص338

141 - راجع الزاوى : معجم ص343 تاريخ الفتح ص17

142 - ص160 ، 161

الآخر في العرب[143]« . وتعطي دائرة المعارف الإسلامية أمثلة أخرى للاندماج فتقول:» استقرت قبيلة بني قرة وقبيلة هيب وهم بطون من سليم في برقة وامتزجوا بأهلها امتزاجا يجعل من الصعب علينا الآن أن نميز بين ذريتهم وذرية أهل البلاد الأصليين»[144]. وتقول في مكان آخر متحدثة عن أثر الزحفة الهلالية وسوف نتحدث عنها فيما بعد بشيء من التفصيل وما ترتب على ذلك من نتائج:» تم اختلاط البربر بالعرب في السهول والهضاب وهجرهم تدريجيا لغتهم وعاداتهم وفقدهم ايضا اسمهم القديم واستعاضتهم عنه باسم شخص وصلوا به نسبهم بل نستطيع أن نقول إنهم استعربوا»[145].

ومن الثابت تاريخيا كذلك أن سيل الهجرة إلى الشمال الافريقي لم ينقطع طوال عدة قرون بل يرى سلجمان أن كثيرا من العرب المهاجرين أو المهجرين قد آثروا الاستيطان في ليبيا دون سائر الشمال الافريقي نظرا لطبيعتها الصحراوية الملائمة[146]. وسنتحدث عن هذه الهجرات العربية فيما بعد.

فإذا انتقلنا إلى العامل السادس نجد أن تفوق أي لغة وتمتعها بالهيبة يرجع إلى قيمتها الذاتية للغة البربرية في ذلك الوقت فهي من ناحية لغة الحكام ومن ناحية اخرى لغة الدين والقرآن والنبي وهي بالإضافة إلى هذا وذاك لغة حضارة عظيمة وثقافة تفوق اختها البربرية إلى حد كبير قد لا يسمح حتى بالمقارنة ويشير فندريس في كتابه «اللغة « إلى التفوق الذاتي الذي تتمتع به بعض اللغات ومن بينها اللغة العربية بقوله:» والقدرة على

143 - ص315
144 - مادة برقة
145 - مادة بربر
146 - محمد عوض ص339

الانتشار التي نشاهدها في بعض اللغات الهندية الأوروبية أو السامية كاللغة العربية مثلا ترجع بلا شك إلى أسباب معقدة ولكن القيمة الذاتية للغة لها في ذلك نصيب «[147].

ويمكننا أن نقدر الفجوة بين اللغتين العربية والبربرية في هذا الصدد اذا أخذنا في الاعتبار الحقائق الآتية:

1 - أن اللغة العربية كانت ذات تاريخ وأدب وثقافة من قبل ظهور الإسلام ثم انتشرت في كثير من أنحاء العالم بعد مجيء الإسلام وتمثلت ثقافات وحضارات كثيرة مما أعطاها ميزة ضخمة وقيمة كبيرة وبمرور الزمن ازداد هذا العامل قوة فما أن جاءت العربية إلى معركتها الحاسمة مع البربرية حتى كانت ثقافة عالية.

2 - أن متكلمي البربرية لم يكونوا قد وصلوا إلى درجة من الحضارة تمكنهم من تثبيت لغتهم في شكل أدب فعلى الرغم مما عثر عليه من نقوش في الصحراء تثبت كتابة اللغة البربرية لم يؤثر عن البربر أي كتابات أو مؤلفات ذات قيمة حتى عدة قرون من ظهور

الإسلام ولهذا يقول مؤلفا Libyan Notes: «لم تستعمل اللهجات البربرية قط لأغراض أدبية»[148]. ويقول روم لاندو: «البربرية ليست لغة ثقافة[149].

3 - أن البربرية لم تكن في الحقيقة ذات لغة واحدة مشتركة وإنما كانت مجموعة من اللهجات وكان التفاوت بينها كبيرا[150]. وكانت أشبه بلهجات

147 - اللغة ص351
148 - ص11
149 - أزمة المغرب الأقصى ص97
150 - The Eastern Libyans ص73

القبائل العربية في مرحلة طفولتها وقبل أن تأتلف وتتوحد في لغة قومية واحدة هي اللغة المشتركة التي نزل بها القرآن الكريم[151]. ويقول روم لاندو في ذلك: قد نقول من قبيل المزاح ان هناك من اللغات البربرية ما يعادل ما هناك من قبائل بربرية[152].

4 - أن اللغة البربرية في فترة احتكاكها باللغة العربية كانت في موقف ضعيف بشكل واضح فقبل ذلك بمدة طويلة كانت قد وقعت فريسة للغتين اللاتينية والفينيقية اللتين أصبحتا فيما بعد لغتي الكتابة الرسمية وهذا يعني أن الأعمال الكتابية الهامة كانت تكتب باللاتينية أو الفينيقية لا البربرية ويعني بالتالي إضعاف اللغة البربرية إلى حد كبير.

ومن أجل هذا حين جاءت حركة الترجمة النشيطة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية لم يجد المترجمون شيئا يمكن ترجمته من البربرية ولا نعلم بوجود ترجمة من هذا النوع لأي عمل كان.

وأما العامل الأخير. وهو درجة قرابة أو بعد اللغتين المتصارعتين فهناك آراء تضع العربية والبربرية في مجموعة واحدة سواء أطلق عليها المجموعة السامية أو المجموعة الحامية السامية أو المجموعة الافروآسيوية. وقد سبق أن عرضنا هذه الآراء بشيء من التفصيل ومعنى هذا أن العلاقة بين اللغتين موجودة ولا يمكن إنكارها.

فإذا أردنا أن نحدد المراحل التي قطعتها اللغة العربية في صراعها مع البربرية فلابد أن نحلل العوامل والأحداث التاريخية ونرتبها ترتيبا زمنيا ونرصد نقاط التحول في حياة كلتا اللغتين وفي رأينا أن مراحل الصراع اللغوي في المنطقة يمكن أن تقسم إلى ثلاث على الوجه الآتي:

151 - تاريخ المغرب العربي لسعد زغلول ص57

152 - أزمة المغرب الأقصى ص97

1 - مرحلة التعادل بين اللغتين.

2 - مرحلة اختلال ميزان القوى في صالح اللغة العربية.

3 - مرحلة الاستقرار.

وإليكم بيان ذلك:

المرحلة الأولى: مرحلة التعادل بين اللغتين:

يمكن تحديد هذه المرحلة بالفترة المحصورة بين الفتح الإسلامي لليبيا ونهاية القرن الأول الهجري (=718م) وهي مرحلة تتميز بوجود ازدواجية في اللغة ومحاولة كل طرف من طرفي الصراع التغلب على مشكلة التفاهم عن طريق تعلم لغة الطرف الآخر أو على الأقل بضع كلمات من لغته ولا نشك لحظة في أن التفاهم في المرحلة الأولى من هذه الفترة كان يتم عن طريق المترجمين الذين يعرفون اللغتين ويفترض الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب ان هؤلاء التراجمة لابد أن يكونوا إما من عرب الشام وفلسطين والحيرة وكان كثير منهم امتزجوا بالروم وتعلموا لغتهم واعتنقوا دين النصرانية ثم حين ظهر الإسلام والتحقوا بإخوانهم العرب وإما أفراد من قبط مصر وكان فريق كبير منهم يحسن اللسان اليوناني ويؤيد ذلك ماروى عن الواقدي من أن عبد الله بن ابي سرح لما كان أمام مدينة سبيطلة[153]. وقبل محاربته لبطريق الروم (جرجير) «كان معه رجل من قبط مصر) وإما أفراد من سكان الواحات المصرية الذين كانوا من سلالة البربر فيجوز أن الفاتحين اصطحبوا منهم أفرادا للترجمة[154].

153 - تولى عبدالله بن ابي سرح مصر سنة 25هـ في عهد الخليفة عثمان بن عفان وقد قام بفتح افريقية مرة ثانية ابتداء من عام 27هـ وكانت سبيطلة عاصمة ملك جرجير وقد فتحها ابن ابي سرح سنة 27 ثم فتحها مرة ثانية عام 29 هـ لأن جرجير نقض العهد الذي أبرمه معه في المرة الأولى (ولاة طرابلس ص15-18)

154 - ورقات 62/1-64

وتتميز هذه المرحلة بما يأتي:

1 - إتمام فتح المغرب الذي اتعب الدولة الاسلامية وكلفها من أموالها ووقتها الكثير وقد تم هذا الفتح حوالي عام 81 أو 82هـ[155].

2 - حكم حسان بن النعمان الذي امتد من عام 77هـ إلى عام 86هـ[156].

وتتميز فترة حكمه بما يأتي:

أ- القضاء على الكاهنة وإزالة ملكها عام 84هـ وبقتل الكاهنة حسن إسلام كثير من البربر ودانوا بطاعة العرب[157].

ب- تدوين الدووابن وجعل ديوان فيه الكتبة والرؤساء المسئولون لكل وظيفة من وظائف الدولة.

ج- جعل اللغة العربية هي اللغة الرسمية في الدولة بها ترفع الشكاوى وتحرر الرسائل ويكتب في الدواوين.

د- مساواته في العطاء والرتب والمعاملة بين البربر والعرب.

هـ إقامته عمالا على النواحي من ذوي الحزم والدين.

و- إنشاء المساجد في المدن والقرى وإقامة الفقهاء فيها للصلاة وقراءة القرآن والوعظ والإرشاد والفتوى في مسائل الدين.

ز- اعتبر حسان أرض البربر وبلادهم مفتوحة صلحا لا عنوة وأقر البربر على ما في ايديهم من اراض وألزم كل قبيلة بزراعة أرضها ودفع زكاتها إلى بيت المال.

ح- ضرب حسان النقود للمغرب دنانير ودراهم وفلوسا وكان الناس قبل ذلك يتعاملون بنقود القوط والبيزنطيين وهي تحمل رسم ملوكهم[158].

3 - في أواخر هذا القرن صدرت تعليمات من الخليفة عمر بن عبد العزيز

155 - دبوز 107/2 حسين مؤنس : ثورات البربر ص243
156 - ولاة طرابلس ص29 ، 31
157 - ولاة طرابلس ص30
158 - دبوز 112/2-120 وانظر ولاة طرابلس ص30 والمنهل العذب 52/1

إلى جميع الولاة والحكام بعدم استخدام الذميين أولياء من دون الله والتهديد بعزل من يترك في ولايته عاملا يدين بغير الإسلام وما جاء في رسالة عمر في هذا الصدد: «فلا تولين أمور المسلمين أحدا من أهل الذمة فتبسط أيديهم وألسنتهم وتذل المسلمين بعد أن أعزهم الله» وعلى الرغم من أن المراجع قد سكتت عن بيان رد الفعل لهذه الرسالة في ليبيا الا انا نستنتج أنه قد حدث فيها ماحدث في مصر عقب هذه التعليمات إذ أصدر حاكم مصر اذ ذاك وهو ايوب بن شرحبيل أوامره بإحلال المسلمين أو العرب محل الأقباط في الوظائف العامة[159]. ومع ذلك فنحن لا نتوقع تطبيقا شاملا لهذه التعليمات ي هذا القرن اذ يحتاج ذلك إلى فترة زمنية تطول او تقصر بحسب وضع كل إقليم.

4 - كان عدد العرب في الشمال الافريقي كله قليلا طوال هذا القرن ومثلا غالبا في آلاف قليلة من المحاربين ورجال الإدارة والدين في حين أن عدد البربر كان يقدر بعدة ملايين والمسيحيين بنحو 300 الف واليهود بنحو 100 ألف[160].

وبالإضافة إلى هذه القلة العددية، كان هم هؤلاء العرب محصورا في المحافظة على الأمن وتثبيت دعائم الدولة الإسلامية وكانت لديهم أوامر مشددة ألا يستكينوا إلى الراحة وبأن يظلوا في وضع استعداد دائم أو على حد تعبير عمرو بن العاص لجيوش العرب في مصر « واعلموا أنكم في رباط إلى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم وتشوف قلوبهم اليكم والى دياركم» وكان من تعليمات الخليفة عمر بن الخطاب العامة إلى أمراء الأجناد ألا

159 - انظر تاريخ اللغة العربية في مصر ص32 ، 33
160 - - A History of the Colonization of Africa ص61

يسمحوا لجنودهم بالزرع[161]، لأن ذلك يعني الاستقرار والاستيطان وهو ما لا يتلاءم مع مرحلة الفتح الأولى واذا كان من العرب من وفدوا لا بوصفهم جندا عاملين فلابد أنهم كانوا قلة وأنهم تفرقوا في أنحاء البلاد فلم يظهر لهم أثر.

5 - ويجب أن نذكر اسم عمر بن عبد العزيز هنا مرة أخرى لأنه كان أول من ألغى ضريبة الرءوس على غير المسلمين اذا اعتنقوا الإسلام وعمم ذلك في كل الأقطار الإسلامية المفتوحة ورفض أن يأخذ بمشورة من نصحوه باستمرار تحصيل الجزية نظرا لازدياد من يعتنقون الإسلام وقد رد عليهم بقولته الشهيرة: إن الله انما بعث محمد صلى الله عليه وسلم هاديا ولم يبعثه جابيا ولعمري أشقى من أن يدخل الناس كلهم الإسلام على يديه[162].

ولاشك أن هذه السياسة قد أغرت غير المسلمين بالدخول في الإسلام وبخاصة من غير ملاك الأراضي الذين كان إسلامهم يعني إعفاءهم من أي ضريبة خاصة ولكن لا نتوقع أن يظهر أثر هذا العامل أيضا في هذه المرحلة.

6 - وأخيرا نذكر القارىء بالحقائق الآتية التي سبق أن ذكرناها في فصل «انتشار الإسلام في المنطقة « وهي:

أ - قول صاحب المونس: وعلى رأس المائة الأولى ذانت إفريقية للعرب من برقة إلى السوس ولم تقم بعدها للنصارى والبربر قائمة.

ب - ما عرف به موسى بن نصير من اهتمام بتعليم البربر القرآن وعلوم الدين.

161 - تاريخ اللغة العربية في مصر ص34 ، 35

162 - المرجع السابق ص37

ج - إرسال الفقهاء العشرة عام 100هـ إلى بلاد المغرب.

وتنتهي هذه الفترة بتثبيت دعائم الإسلام ولكن بدون أن يتم تثبيت دعائم اللغة العربية وذلك نظرا لتضارب العوامل الفعالة في هذا القرن ولنشأة بعضها قرب نهايته مما لم يسمح بفاعليته أو ظهور أثره ولهذا اعتبرناه قرن ازدواج لغوي تعايشت فيه اللغتان جنبا إلى جنب دون أن تقوى إحداهما على قهر الأخرى أو زحزحتها من مكانها ولانظن أن اللغة العربية وإن استطاعت أن تثبت وجودها في مجال الدواوين والمكاتبات الرسمية قد استطاعت أن تثبت وجودها في مجالي اللغة الأدبية أو لغة الحياة وهما المحك الأساسي لهذا الصراع ولا أدل على عجز اللغة العربية عن الانتصار حتى في المجال الرسمي خلال هذه الفترة مما فعله حسان بن النعمان حين أراد سك النقود العربية لبلاد المغرب اذا اتخذ نفس الدينار القرطاجني مع حذف الصليب ووضع صورتي عبد الملك بن مروان والوليد ابنه بدلا من قيصر البيزنطيين وولي عهده. وأبقى كتابته باللغة اللاتينية. وبعد حين زاد حسان في ديناره كتابة لاتينية ترجمتها في أحد الوجهين: باسم الله الرحمن الإله الأوحد. وفي وجهها الآخر: وحده لا شريك ولا مثيل له. وبعدها باللاتينية: ضرب بإفريقية في العشرة الثالثة يساوي 85هـ[163].

المرحلة الثانية: مرحلة اختلال ميزان القوى في صالح اللغة العربية:

يمكن - في رأينا - اعتبار هذه المرحلة ممتدة لتغطي القرون الثلاثة التالية من الهجرة وهي القرون من الثاني إلى الرابع الهجري.

ولم نجد في هذه الفترة عوامل جديدة في صالح اللغة العربية، وإنما

163 - دبوز 119/2

كانت فرصة للعوامل القديمة لتؤتي ثمارها. بل يمكن القول بأن ماجد من عوامل في هذه الفترة من النوع المضاد الذي عاق اللغة العربية عن اتخاذها لغة الحياة في كافة أنحاء البلاد فالبنسبة للعوامل المساعدة نجد ما يأتي:

1 - ازدياد حركة التعريب للدولة وقصر الوظائف العامة على العرب أو المسلمين وقد أدى هذا بالسكان إلى أن يسرعوا في تعلم اللغة العربية لتفتح أمامهم فرص العمل أو ليحتفظوا بما في أيديهم من وظائف ولم تؤد حركة التعريب إلى تذمر او احتجاج من البربر اذ كان التعريب انتقالا من لغة غير بربرية إلى لغة اخرى غير بربرية وليس هذا فحسب بل ان بعض البربر لم يقنع بالإسلام وبتعلمه اللغة العربية فقط بل أراد أن يذهب خطوة ابعد في التعريب فادعى لنفسه نسبا في إحدى القبائل العربية كما سبق أن بينا.

2 - ازدياد عدد الداخلين في الإسلام فرادى وجماعات لأسباب متعددة منها:

أ - قوة الحركة الدينية في البلاد ونشاط الدراسات الإسلامية بمختلف فروعها والتوسع في بناء المدارس والمساجد.

ب - تفهم الكثيرين روح الإسلام ووقوفهم على بساطته وديمقراطيته ومساواته بين البشر جميعا في حين كانوا يحسون بالقلق والللم في ظل المسيحية وقد كتب بتلر في هذا الموضوع فقال: «وأما الحقيقة المرة فهي أن كثيرين من أهل الرأي والحصافة قد كرهوا المسيحية لما كان منها من عصيان لصاحبها اذ عصت ما أمر به المسيح من حب ورجاء في الله ومنذ بدا ذلك لهؤلاء العقلاء لجأوا إلى الإسلام فاعتصموا بأمنه واستظلوا بوداعته وطمأنينته وبساطته «[164].

164 - شكري فيصل :المجتمعات الإسلامية في القرن الاول ص153

ج - الجهود الجبارة التي بذلتها كل من الدولتين الرستمية والأغلبية[165] - كل في مناطق نفوذه - في خدمة اللغة والحضارة الإسلامية بالمغرب بالإضافة إلى جهود بعض الولاة المخلصين مثل يزيد بن حاتم الذي دامت ولايته من 155 إلى 171 وقد عرف عنه تنشيطه للتعليم واحترامه للعلماء وكان أغلب عهده عهد استقرار فأقبلت افريقية والمغرب الأدنى على العلم فكثرت المدارس الابتدائية في كل القرى والمدن وصارت المساجد للتخصص في الشريعة الإسلامية والعلوم العربية وغيرها وكان يرابط فيها عشرات من العلماء يلقون دروسهم فيها[166].

3 - ازدياد عدد العرب في البلاد شيئا فشيئا. ونحن وإن كنا لا نملك أسماء محددة للقبائل التي هاجرت واستوطنت بليبيا في هذه الفترة بالذات, الا أننا يمكننا أن نتصور تتابع الهجرات العربية نظرا لارتباطها بالحكام وحرص كل حاكم - اذا كان عربيا - على أن يكثر من بني جلدته, وأفراد قبيلته, على عادة الولاة في ذلك الوقت[167]. هذا بالإضافة إلى السياسة التي سار عليها الحكام بعد تتابع ثورات البربر, وتسبيبهم للقلاقل والاضطرابات والتي

165 - يقول جوستاف لوبون عن دولة الأغالبة :» وكان هم الأغالبة مزج العرب بالبربر فتمتعت افريقية في عهدهم بطمأنينة عظيمة (ص 255 ، 256) ويعتبر حسن سليمان محمود أن من أهم أعمال الأغالبة «مصاهرة العرب للبربر واختلاط دم هذين الشعبين «(ليبيا بين الماضي والحاضر ص135)

166 - انظر دبوز 90/2 ، 91 ، 131،369 وما بعده

167 - بعطينا الاستاذ احسان عباس معلومات تقريبية عن بعض هذه القبائل فيقول : جاء الفتح والهجرات التالية بمستوطنين من العرب وغيرهم فغلب على مدينة برقة وارباضها سكنى الجنود كما استوطنتها اعداد كبيرة من قبيلة قرة العربية ولعل ذلك قد تم في اوائل القرن الرابع وسكن جماعة من القبائل اليمنية المهاجرة من الأزد ولخم وجذام والصدف وغيرهم جبل برقة الشرقي اما جبل برقة الغربي فاستوطنته جماعة من غسان والأزد وتجيب .. ونزلت قبائل عربية اخرى من بني مدلج وبلى وجهينة في جهات الرمادة ونزل ودان قسمان من العرب سهميون وحضرميون ثم يعلق على ذلك بقوله :» لا نعرف نسبة عددية لهؤلاء العرب ولكن يبدو انهم حتى منتصف القرن الرابع الهجري لم يستطيعوا أن يصهروا العناصر الأصلية «(تاريخ ليبيا ص92 ، 93) وانظر سكان ليبيا عند اليعقوبي ص229

تتلخص في الإكثار من العرب المستوطنين ما أمكن حتى يكونوا عامل توازن في المنطقة. ويمثل هذه السياســة قول هشام بن عبد الملك بعد تعدد ثورات البربر في عهده، وتدويخهم جيوشه: «والله لأغضبن للعرب غضبة مضرية، ولأبعثن اليهم جيشــا أوله عندهم وآخره عندي، ثم لا تركت حصن بربري الا جعلت إلى جانبه خيمة قيسي أو يمني»[168].

ولكن كانت هناك عوامل مضادة برزت خلال هذه الفترة وأهمها:

1 - قوة الشــعور القومي عند البربر وإثــارة العصبيات فيهم كرد فعل لما لحقهم من ظلم وســوء معاملة على ايدي بعض الحكام الجائرين. ونضرب لهذا على ســبيل المثال اسم الوالي يزيد بن دينار (102هـ) الذي فرض الجزية حتــى على من اســلم من البربر وادعى ان بلادهم فتحــت عنوة لا صلحا[169]. وكذلك عمــر بن عبيد الله المرادي عامل ابن الحبحاب (122هـ) على شــمال المغرب الأقصى الذي أراد أن يخمس أموال البربر كما يفعل بأموال المشــركين زاعمــا أن البربــر وأموالهــم غنيمــة للأمويــين[170]. ولهذا حــاول البربر منذ العشــرينات من القــرن الثاني الهجــري أن يقيموا لهم دولة فــي ليبيا ولم تكلــل محاولاتهم بالنجاح الا بعد اعلان الدولة الرســتمية التي اســتمرت في المغرب الاوســط من عام 144-296هـ وكان نفوذها يمتد فيشمل ما عدا الجزء الســاحلي من طرابلس[171]. وعلى الرغم من أن اللغة الرســمية لهذه الدولــة كانت هــي اللغة العربية فقــد كانت تحتضن اللغــة البربرية وتحاول

168 - دبوز 264/2 نقلا عن نهاية الأرب للنويري
169 - دبوز 201/2
170 - المرجع 235/2
171 - امتد نفوذ الدولة الرســتمية حتى شــمل طرابلس كلها من خليج ســرت إلى قابس غربــا (ماعدا مدينــة طرابلس والبحر فقد خرجــا عنها إلى الدولة الأغلبيــة) ومن البحر إلى الصحــراء الكبرى (انظر دبــوز 515،516/3) وهناك خريطة للدولة تجدها في مقابل ص656 من المرجع السابق .

ترقيتها بشتى الوســائل. وقد كان للرستميين مترجمون ينقلون الكتب من العربية إلى البربرية لتأخذ النواحي التي لا تحسن العربية كالبربر المنقطعين في رءوس الجبال حظها من العلم[172]. كذلك يروى عن أبي ســهل الفارســي مترجم الدولة الرســتمية أنه دون اثنى عشــر كتابا وعظــا وتذكيرا وتخويفا باللغــة البربرية ويبدو أنه لم يكتب شــيئا من ذلك باللغــة العربية اذ يقول الدرجينــي عنه: «وجميع ما حفظ من ذلك فإنما هو بلســان البربر»[173]. ومما ألف بالبربرية كذلك «عقيدة نفوســة». ويقول ابو اســحاق اطفيش: «وقد عنى الأباضية بالتأليف بالبربرية منذ ظهروا بين البربر في أوائل القرن الثاني الهجري وكانت هذه من أسباب تمكين البربر في الإسلام»[174].

2 - ويبــدو أن هــذه الحركــة نحو التمســك بالبربرية قوميــة ولغة قد أزعجت الكثيرين حتى من بين البربر أنفســهم فيروى عن ابي عمران موسى بن زكرياء احد العلماء السبعة الذين ألفوا ديوان الأشياخ أنه كان يقول: «إن تعلم حرف من العربية كتعلم ثمانين مسألة من الفروع[175].

3 - وجــود مناطــق جبليــة، وقــرى نائيــة كان يصعــب الوصــول اليها، وتشــق إقامــة العرب فيها مما ابقــى اللغة البربرية حية فيهــا وكان الذين لا يستطيعون الكتابة بالعربية في هذه المناطق يرفعون شكاويهم إلى الإمام مكتوبة بالبربرية[176].

وبانتهــاء هذه القرون الثلاثة نتصــور ان يكون الوضع اللغوي للمنطقة قد أصبح كما يلي:

172 - المرجع 405/3
173 - راجع فصل «الأدب» في الباب الثاني من هذا الكتاب
174 - دائرة المعارف الإسلامية – مادة بربر هامش رقم 1 ص518 ، 519
175 - دبوز 397/3
176 - المرجع السابق ص417

1 - جميع الرسائل والمكاتبات الرسمية والدواوين والسجلات تكتب باللغة العربية فيما عدا الشكاوى أو الوثائق التي يحررها من لا يعرفون العربية من سكان المناطق النائية.

2 - اتخاذ اللغة العربية لغة تأليف وثقافة في جميع انحاء البلاد، وعلى أيدي مؤلفين من البربر ويمكنك أن ترجع إلى فصل الدراسات الاسلامية في الباب الثاني من هذا الكتاب لترى مصداق ذلك ونضيف إلى ذلك مؤلفات مثل «نوازل نفوسة» للإمام عبد الوهاب وتفسير الشيخ هود بن محكم الهواري بعد الدولة الرستمية بزمن قليل وكلاهما باللغة العربية الفصيحة[177]. ونستطيع ان نزعم أنه بانتهاء هذه الفترة لم يكن يوجد في البلاد مثقف واحد لايعرف اللغة العربية. واذا كان بعضهم قد كتب باللغة البربرية فليس لجهله بالعربية ولكن إما ليظهر مقدرته على الكتابة باللغة البربرية وإما لأنه يكتب وفي ذهنه خدمة العوام من الناس او سكان المناطق النائية الذين لم تتيسر لهم سبل التعلم للغة العربية ويقول الأستاذ شيت خطاب: «كان إقبال البربر على اللغة العربية شديدا، يدل على ذلك ما ترويه كتب الطبقات من رحيل الكثيرين منهم في القرن الثاني الهجري إلى المشرق للاستزادة من العلم والتثبت من اللغة وقد ظهرت خلال هذا القرن فئات تكتب بالعربية وتؤلف بها، وبدراسة ماورد من تراجم في كتب طبقات فقهاء المغرب نج الرواية تتسلسل إلى رعيل اول من أهل البلاد الأصليين الذين برعوا في ثقافة العرب وفهموها فأحسنوا الفهم»[178].

3 - اتخاذ اللغة العربية لغة تخاطب في جميع أنحاء ليبيا ما عدا سكان الجبال أو المناطق النائية فقد ظل بعضهم يتكلمون اللغة البربرية وحدها وصار بعض آخر مزدوجي اللغة ولعل في تمييز اليعقوبي لأهل نفوسة بأنهم

177 - المرجع السابق ص410
178 - قادة فتح المغرب ب 173/2

عجم اللسان ما يشير إلى أن سائر مناطق ليبيا حتى أواخر القرن الثالث الهجري كانت قد تعربت تعربا كاملا أو شبه كامل من حيث اللغة[179].

المرحلة الثالثة: مرحلة الاستقرار:

تشمل هذه المرحلة القرنين الخامس والسادس. وأهم ما يميزها الهجرتان العربيتان اللتان تمت إحداهما في القرن الخامس والأخرى في القرن السادس. وبتمامهما تم تعريب البلاد نهائيا، وظهرت الغلبة للعنصر العربي، وحدثت المصاهرة الكاملة والامتزاج التام بين البربر والعرب في معظم انحاء ليبيا واختفت اللغة البربرية الا من بعض الأماكن.

وميزة هاتين الهجرتين عما سبقهما من هجرات أنهما تمتا بطريق القصد والعمد وهدفتا إلى الاستقرار والاستيطان وشملتا اعدادا كبيرا من العرب لم يسبق لمثلها أن دخلت البلاد.

أما الهجرة الأولى فقد تمت قبيل منتصف القرن الخامس الهجري، وكان بطلاها قبيلتي سليم وهلال، وانضمت اليهما أشتات من قبائل أخرى، وقصة هذه الهجرة وما لابسها وسبقها وتلاها من أحداث قصة طويلة لا يتسع المجال للإحاطة بها كما أن ذلك ليس من هدفنا هنا. ولكن في اختصار شديد نقول إن المعز بن باديس الصنهاجي[180] أعلن عداءه الصريح للفاطميين واضطهد معتنقي مذهبهم وأعمل فيهم القتل والتشريد ثم ختم تصرفاته هذه عام 443 بقطع الخطبة لهم وبالدعاء للقائم بأمر الله العباسي وحمل الناس في المغرب على مذهب الإمام مالك بن أنس وفي نفس السنة التي قطع فيها المعز الخطبة للفاطميين بعث اليه أمير برقة جبارة بن مختار العربي

179 - إحسان عباس : تاريخ ليبيا ص94
180 - من نسل الامير بلكين بن زيري أول حاكم صنهاجي للمغرب من طرف الدولة العبيدية وقد اختاره المعز لدين الله الفاطمي عام 362هـ واستمر انضواء هذه الأسرة تحت لواء الفاطميين حتى جاء المعز بن باديس (406-453) انظر «قبائل العرب في ليبيا» ص27 - 28.

بطاعتـه وبيعته وأخبره أنه هو وأهل برقة قـد نكثوا كذلك عهود بني عبيد وأحرقــوا بنودهم وراياتهم والمنابر التـي كان يدعى عليها لهم وتبرؤوا منهم وسـبوهم ولعنوهم علـى منابرهم ودعـوا للقائم بأمر الله العباسـي[181]. وحركت هذه الأحداث نفس المسـتنصر للانتقام فأشـار عليه أحد وزرائه[182] باصطناع بني سـليم وبني هلال وتسـريحهم إلى المغـرب وتوليتهم اعمال افريقية واسـتعدائهم علـى صنهاجة لمحاربتها وكانت هـذه القبائل تقطن الصعيـد والفيوم والبحيرة وقد أقضت مضاجع المسـتنصر لكثرة ما كانت تسـببه من قلاقل واضطرابات. واستجاب المستنصر للفكرة التي ستصيب هدفين بحجر واحد وأرسـل وزيـره لتفاوض معهم ونترك ابـن خلدون يكمل القصة بقوله: بعث المسـتنصر وزيره علـى هؤلاء الأحياء... وأرضخ لأمرائهم فـي العطاء ووصل عامتهم بعيرا ودينارا لكل واحـد منهم وأباح لهم إجازة النيل وقال لهم: قد أعطيتكم المغرب وملك المعز بن بلكين الصنهاجي العبد الآبق وكتب اليـازوري (الوزير) إلى المغرب: « أما بعد فقد أنفذنا اليكم خيولا فحولا وأرسـلنا عليها رجالا كهولا ليقضي الله امرا كان مفعولا «فطمعت العرب اذ ذاك وأجازوا النيل إلى برقة وافتتحوا أمصارها واسـتباحوها وكتبوا لإخوانهم شرقي النيل يرغبونهم في البلاد فأجازوا اليهم بعد أن أعطوا لكل رأس دينارين فأخذ منهم (يعني المسـتنصر) أضعاف ما أخذوه[183]. وتقارعوا على البلاد فحصل لسـليم الشـرق ولهلال الغرب.. وسارت بطون هلال إلى

181 - تفصيلـات هذه الحوادث في أماكـن متفرقة من :» قبائل العرب في ليبيا « و «رحلة التجاني» و»ابن خلدون» و «جوستاف لوبون» وغيرها من كتب الحضارة والتاريخ .

182 - يقـول التجانـي : الجرجرائي الأقطع هو الذي أمكن العرب من الدخول إلى هذه البلاد ... ومن الناس من نسـب هذه الإجازة لغيره لأن موته سـبق جواز العرب بأعوام وذكر هؤلاء أن المجيز لهم هو اليازورى الحسـن بن علي وقد تولـى الوزارة بعد الجرجرائي ولا يبعد أن يكون هذا هو الصحيح (ص 16، 21 ، 22)

183 - يعني ان المسـتنصر أعطى اخوانهم السـابقين كل واحد دينارا وفي هذه المرة أخذ من كل واحد دينارين .

افريقية كالجراد المنتشـر حتى وصلوا افريقية سـنة 443[184]. ودارت معارك طاحنة حـول القيروان وفي داخل القيروان عاصمة المعـز بن باديس وانتهبت هذه المدينة وصارت أثرا بعد عين وتفرق أهلها في الآفاق وانتقل المعز مع أهله إلى المهدية وعاش بها كئيبا بقية حياته حتى مات سنة 453هـ[185].

وهنـاك تفصيـلات أخرى تهمنـا في هذا المقـام لأنها مرتبطـة بحركة التعريب وتوطين القبائل العربية وهي:

1 - يقـدر بعـض المؤرخين عدد المهجرين في هـذه الموجة بما يتراوح بين 200 الـف و 300 ألف[186] وبعضهم يرتفع بالرقم حتى المليون ويوفق جوسـتاف لوبـون بين هذه الآراء المتعارضـة بقوله: «والذي أراه أن الغـارة الأولى تبعتها غارات أخرى[187].

2 - بعد هجرة بني سـليم وهلال واسـتقرارهم في المغرب تبعتهم هجرات اخرى جاءت بطوائف كثيرة من الناس.

3 - لـم يؤسـس العـرب ملـكا ولا دولـة وآثـروا الضواحي والأريـاض على الأمصار[188].

4 - اسـتيطان هـذه القبائل في إقليم برقة كان سـهلا لأن المعز لدين الله كان قد سـبق وأباد «زناتة» ولذلك حينما جاء العرب إليها وجدوا بلادا كثيرة المرعى خالية من الأهل[189].

184 - مقتبس في : ليبيا في كتب التاريخ والسير ص119

185 - قبائل العرب في ليبيا ص78-86

186 - ملامـح المغرب العربـي ص63 و A History of the Colonization of Africa ص61

187 - حضارة العرب ص257

188 - لهجة شمال المغرب ص44 ، 45

189 - التذكار ص9

5 - كذلك من المرجح أن يكون بعض من بني هلال قد جاز النهر ودخل ليبيا مع أحد الجيوش التأديبية التي أرسلت قبل الغزو الهلالي لأن المراجع التاريخية تتحدث عن وجود هلالي في وقت مبكر[190].

6 - بعد حلول القبائل العربية هاجرت بنو قرة ثم بطون من كعب إلى مناطق أخرى وغلبت على أنحاء برقة بنو سليم[191] ولعل هؤلاء المهاجرين هم الذين قال عنهم ابن عذارى: في عام 468 وصلت إلى افريقية مجموعة اخرى من عرب برقة ونزلت حول القيروان[192].

أما النتائج التي ترتبت على هذه الهجرة فيختلف المؤرخون بعد اتفاقهم على دورها الذي لا ينكر في تعريب البلاد يختلف المؤرخون في تقديرها والحكم عليها فيعتبرها بعضهم كارثة من الناحية الحضارية ويعتبرها بعضهم نافذة فتحت أعين البلاد على الحضارة الأجنبية ويعتبرها بعضهم سببا في تدمير البلاد والإتيان على ما فيها من أخضر ويابس ويعتبر بعض آخر دمار البلاد سابقا على هجرة بني هلال وسليم ويقلل من تقدير الدمار الذي لحق البلاد على أيديهم ويلتمس العذر لما قد يكونون قد سببوه من خراب.

فنجد - على سبيل المثال - الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب يعزو ضياع كثير من الكتب والمؤلفات ومظاهر الحضارة إلى «الكارثة العظيمة المؤلمة وهي زحفة بني بلال وبني سليم في آخر عهد المعز بن باديس سنة 449هـ»[193] ونجد الاستاذ إحسان عباس يرتب على هجرة هذه القبائل

190 - عباس همداني في : Some Aspects of the History of Libya ص339
191 - تاريخ ليبيا لإحسان عباس ص157
192 - البيان المغرب ، مقتبس في إحسان عباس : ليبيا في كتب التاريخ والسير ص102
193 - ورقات 349/1 وهناك رأي يقول ان الغزو الهلالي قد توقف في الإقليم الليبي الحالي وتعثرت خطواته إلى عام 455 (أي إلى مابعد وفاة المعز بن باديس) ويعتمد هذا الرأي على وثيقة هامة وردت في كتاب «السجلات المستنصرية « نشر الدكتور ماجد بالقاهرة سنة 1953 (الرباطات الساحلية لشعيرة ص239)

«نتائج خطيرة في منطقة ليبيا فهم المسئولون عن خراب العمران وعن تعطل الزراعة وكان كثير من هؤلاء الأعراب خطرا على الحجاج والتجار والرحالين حتى أضحت البلاد كما قال العبدري لا يسلكها الا المخاطر. وبذلك حرمت ليبيا من حركة علمية كانت تعتمد على مرور العلماء بليبيا»[194]. ويضع جوستاف لوبون الوضع في صورة مخففة فيقول: لم تؤد هذه الغارات إلى نتائج عمرانية، بل على العكس حافظ اعراب جزيرة العرب على جلفهم الذي هو نقيض كل ثقافة جدية فأخذت تلك الحضارة التي كادت تلمع تذوي بسرعة»[195] ولكن على العكس من ذلك تماما يظن Grievus « أن آثار الغزوة الهلالية كان قدوم العرب وقد حملوا كثيرا من المزايا الثقافية إلى المغرب اذ أحضروا معهم العلم والنظرة العريضة التي اكتسبوها من الثقافة الهيلينية التي عرفوها.. وهي التي صارت بعد ذلك برعما للثقافة الإسلامية الغنية في الأندلس»[196].

والحق الذي لا يصح إنكاره أن هناك شيئا من الدمار قد لحق البلاد على ايدي بني هلال وسليم، ولكن يجب الا ننسى الحقائق الآتية التي تعزو كثيرا من الدمار إلى غيرهم مثل:

1 - الخراب المريع الذي لحق البلاد على أيدي الكاهنة وأعوانها في القرن الأول من الهجرة وقد سبق الحديث عنه.

2 - ما هو ثابت من أن منطقة برقة كانت حين وفد هؤلاء العرب إليها شبه مهجورة وخالية من الأهلين لأن أصحابها من زناتة حاربوا المعز لدين الله الفاطمي ففتك بهم وأوشك أن يبيدهم ويفنيهم عن آخرهم[197].

194 - تاريخ ليبيا ص151
195 - حضارة العرب ص257
196 - الممالك الإسلامية في غرب افريقية ص82
197 - قبائل العرب في ليبيا ص65

3 - ماهو ثابت تاريخيا من أن المعز بن باديس نفسه قد ساهم في خراب البلاد اذ أصدر أوامره «بانتهاب المزروعات والثمار المحيطة بالقيروان والمنصورية ليحرم الهلالين منها وسر الناس بذلك حاسبين أنها ستؤول إليها ولكن المعز كدسها ففسدت وأكلتها البهائم»[198]. وفعل المعز نحو ذلك في مدينة «صبرة» اذ اقتلع رجال صنهاجة وعبيد المعز خشب الحوانيت وسقائفها فخربت عمارة هذه المدينة[199].

4 - تعاقب الفتن والمحن والحروب والثورات على المنطقة وفي ذلك يقول الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب: «الحقيقة التي لا يطرقها شك أن العرب لما قدموا فاتحين لم يجدوا في البلاد سوى خرائب متهدمة تعلوها مسحة من زخرف قديم أبلاه الدهر وغير نضارته الزمان لتعاقب الفتن وتوالي المحن ولم يصيبوا غير مدائن متداعية البنيان نزرة السكان ضعيفة الإيراد ولهذا السبب لم يفكر العرب في نصب مركزهم الذي عزموا على إيجاده في البلاد المفتوحة على أنقاض إحدى تلك المدائن البالية... ولو أن في البلاد عاصمة قديمة تناسب الفاتحين لما ارتادوا سواها كما فعلوا في الشام وطليطلة ثم قرطبة بالأندلس»[200].

5 - واذا كان عرب بني هلال وسليم قد تسببوا في خراب بعض الجهات فقد كان ذلك في نظري نتيجة المقاومة التي لاقوها من أتبع المعز بن باديس والاقتتال العنيف الذي دار بين الطرفين وحاول كل طرف فيه أن يستخدم كل الأسلحة الإنسانية وغير الإنسانية في سبيل القضاء على خصمه فمسئولية الدمار تعود إلى كلا الطرفين على السواء، وترجع اولا وأخيرا إلى الحرب التي دارت رحاها لعدة سنوات.

198 - المرجع ص81
199 - المرجع والصفحة
200 - ورقات 42/41/1

ومما يدل على انتفاء الصفة التخريبية عن هؤلاء الأعراب أننا نجدهم بعد وقف القتال وتوطنهم في البلاد - نجدهم قوما مستقرين ميالين للدعة والسكينة، مشتغلين بالتعمير والزراعة، محبين للعلم والحضارة. فهذا ابن خلدون يقول عن قبيلة العزة التي نزلت بالجهة الشرقية من ليبيا: «وركاب الحج من المغرب يحمدون مسالمتهم في مرهم وحسن نيتهم في التجافي عن حاج بيت الله وإرفادهم بجلب الأقوات لسربهم وحسن الظن بهم»[201].

وهذا ابو عبيد البكري (المتوفي سنة 487هـ) يتحدث عن ليبيا فيصف مدينة برقة بأنها دائمة الرخاء كثيرة الخير وأكثر ذبائح أهل مصر منها. وهي كثيرة الثمار والفاكهة». ويصف اجدابية بأنها «مدينة كبيرة في الصحراء، ذات بساتين لطاف وأسواق حافلة مقصودة» ومدينة سرت بأنها «مدينة كبيرة على سيف البحر.. لها نخل وبساتين وآبار عذبة ولحمانها عذبة طيبة». ويصف طرابلس بأنها «ذات أسواق حافلة جامعة، وحمامات كثيرة فاضلة كثيرة الثمار والخيرات»[202]. فهي صورة تختلف تماما عن الصورة القاتمة السوداء التي ألصقت ببني هلال وسليم. وليس هذا فحسب، فلدينا شهادة شاهد عيان زار البلاد في القرن الثامن الهجري وهو التجاني، وقد كتب في رحلته مشاهداته وملاحظاته ومن بينها ما رآه من عمران وغرس وزراع وما شاهد من زوايا فيها كتب كثيرة محبسة وبها أماكن لضيافة الزوار وتقديم الطعام لهم[203].

ومهما يكن من شيء، فهناك إجماع تام على أن استيطان هؤلاء الأعراب في بلاد المغرب وانتشارهم في الأرض ومخالطتهم للبربر وامتزاجهم

201 - قبائل العرب في ليبيا ص93
202 - المرجع السابق ص102 ، 103
203 - التيجاني ص213 واحسان عباس : تاريخ ليبيا ص153 وقبائل العرب في ليبيا ص97 ومابعدها .

بالســكان وتزاوجهم معهم كل اولئك قد أدى إلى نجاح عملية التعريب والى اندمــاج العنصر البربري فــي العنصر العربي حتى اصبح من العســير فيما بعــد تمييز البربــري من العربي فقد صار الجميع عربا باللســان. فيما عدا قلة من البربر « نجحوا في الاحتفاظ بنقاوة جنسهم لسكناهم المرتفعات»[204]. وظلــوا من أجل انحيازهــم إلى الأقاليــم الجبلية غير المطروقة متمســكين بلهجاتهم البربرية مكونين مناطق انعزال او جزرا لغوية[205]. ويقول جوستاف لوبون مصورا ما حدث بكل دقة «تمت تلك الهجرة ببطء. وملأ العرب شمالي افريقية بالتدريج. فقد جاوز العرب طرابلس الغرب بعد أن مكثوا بها سنتين. وزحفوا خطوة خطوة وولجوا الأودية جماعات على مهل واختلطوا بالســكان رويــدا رويدا وزاد عددهم شــيئا فشــيئا وفرضوا بفضل كثرتهــم على البربر عاداتهــم ودينهم ولغتهم بعد بضعة أجيال ولم يتركوا لأمراء البربر ســوى ســلطة وهميــة ولم يتفلت من نفوذهــم الا القبائل التي دحــرت إلى الجبال وبعض البقاع الجنوبية»[206]. ويرتب السير جونستون على وفود هذه القبائل نتائج خطيرة اذ يقول: «ولكن في القرن الحادي عشر الميلادي وفد إلى الشمال الإفريقي هؤلاء العرب الغزاة الذين كانوا المصدر الأساســي للعرب الموجودين في الشــمال الإفريقي وبدونهم كان الإســلام ســيضعف بمرور الزمن وكانت سلسلة من الدويلات البربرية ستنشأ مرة ثانية تحت حكم المسيحيين»[207]. ويقــول الدكتور عبد القادر احمــد طليمات: إن «الإســتعراب الكامل أخذت ملامحه في ليبيا تظهر بشكل واضح في عصر الإدريسي (النصف الأول من القرن السادس الهجري)»[208].

204 - الممالك الإسلامية في غرب افريقيا ص81
205 - تاريخ المغرب العربي ص58 . 59
206 - حضارة العرب ص257 وانظر كذلك ص247
207 - A History of the Colonization of Africa ص61
208 - سكان ليبيا عند اليعقوبي ص226

أمــا الهجرة الثانية فقد تمت عام 550هـ على يد حميد بن جارية حيث نقل إلى تاجورة مجموعة من عرب تميم ســكنوا أرض «عبد رب» منذ الفتح الإسلامي وكان نقله هؤلاء العرب بقصد إيجاد توازن بين السكان لأن الساحل الطرابلسي كان كله مسكونا بالبربر قبل الفتح العربي وكانت قبيلة هوارة وهي من أكبر قبائل البربر تشغل ما بين تاورغة إلى صبراتة[209].

وهناك مجموعات أو سلاســل أخرى من الهجــرات تمت في تلك الفترة وقبلهــا وبعدها ولكن لعــدم تمكننا من ترتيبها ترتيبــا تاريخيا اضطررنا إلى تركهــا ونكتفي بــأن نحيل القارىء إلــى معجم البلدان الليبيــة مواد: برقة – بزرة – ترهونة – الجميل – جندوبة – الحرشا – حومة اولاد نوير – الخلايفة – دحمان – ديلة – الرمادة – زارة – زاوية بو ماضي – زنزور – ساحل الاحامد – الشواشــنة – العمــروس- فــزان – قماطة – الهون – ودان – ورشــفانة ففيها اشــارات كثيرة إلى القبائل العربية التى اســتوطنت ليبيا ونزلت في هذه الأماكن.

ويلاحظ أن العرب لم يكتفوا بسكنى الأودية والمناطق الواطئة بل زاحموا البربر في مدنهم واقتحموا عليهم جبالهم ومعاقلهم وأماكنهم النائية مما كان لــه أكبر الأثر في تعليمهم اللغــة العربية رغم احتفاظهم بلهجاتهم البربرية. والأمثلة على ذلك كثيرة نكتفي منها بالمثالين الآتيين:

1 - قبيلــة الزنتان التي ســكنت «تاغرمين» الواقعة في جبل نفوســة وهــذه القبيلة من أكبر القبائــل العربية في طرابلس ولها منعة بين القبائل ووقعت لها حروب كثيرة بينها وبين البربر ويرجع الزنتان في أصولهم العربية إلى قبيلة الدواسر احدى قبائل نجد الكبرى[210].

209 - معجم البلدان الليبية للزاوى ص76
210 - المرجع ص78

2 - تقـع واحــات فـزان جنـوبي طرابلـس بنحــو 970 ك م وهـي مـن مـواطن البربــر القديمـة وقــد اســتوطنها كثيرون من العرب أشــهرهم بنــو «رياح» و«الحطمان» و»المقارحة « و»ناصرة»[211].

ولهــذا فنحن نزعــم أنه بانتهاء هــذه الفترة كانت اللغــة العربية قد صارت لغة عامة مشتركة بين سكان ليبيا وصارت لغة التخاطب في جميع انحــاء البلاد اما وحدها في معظم المناطق او مــع البربرية في بعض المدن او القرى التي تزخر بتجمعات بربرية مثل:

أ - مدن وقرى نفوسة

ب - مدينة زوارة الكبرى وهي من مدن طرابلس وتقع بقرب الحدود الغربية ويقول الشــيخ الــزاوي عنها: «جميع ســكانها من البربــر ويتكلمون اللغة البربرية وهم فخذ من قبيلة نفوســة وهي من الأمكنة القليلة في طرابلس التي احتفظ فيها البربر بقوميتهم ولغتهم ولم يتأثروا بكثرة العرب«[212].

ج - واحة أوجلة التي يقول عنها الاستاذ الزاوي: «تقع في الجنوب الغربي مــن اجدابية بنحو 260 ك م. وهي من اعمال برقة.. وســكانها بربر وما زالوا يتكلمــون اللغة البربريــة كما يتكلمــون العربية ويكتبونهــا.. وهي البلدة الوحيدة في برقة التي يتكلم أهلها اللغة البربرية»[213].

وتقســم دائرة المعارف الإسلامية ســكانها إلى ثلاثة أقسام: بنو أوجل وهــم من أصل بربــري ولغتهــم بربرية والجابرة وهــم البربر الذيــن يتكلمون العربية والزوية وهم قبيلة عربية[214].

211 - المرجع ص250

212 - المرجــع ص97 ، 98 ، 175 واذا كان بقــاء البربريــة حتى الــآن في المناطق الجبلية والصحراويــة النائية امرا معقولا فإن بقاءها في مدينة زوارة الســاحلية وفي واحة أوجلة من اعمال برقة في حاجة إلى تفسير .

213 - المرجع ص42

214 - مادة أوجلة

وقد وردت اشــارات في بعض المراجع القديمة عــن مناطق يتكلم أهلها لغــات غير البربرية فإما أن هــذه المناطق كانت مأهولة بســكان من أجناس مختلفــة فكونوا جزرا لغوية وإما أن إشــارات المراجع القديمة لم تكن دقيقة وأن لغــة هؤلاء الناس ما هــي الا صورة أو أخرى من صور البربرية التي ســبق أن قلنــا إنها ذات لهجات متعددة متباينة في بعــض الأحيان لدرجة يصعب علــى ابناء إحــدى لهجاتها أن يتفاهمــوا مع أبناء اللهجــة الاخرى ومن تلك الاشــارات القديمة ما ذكره البكري عن أهل ســرت أنهم يســتعملون رطانة ليســت بعربية ولا عجمية ولا بربرية ولا قبطية ولا يحسنها غيرهم[215]، وما ذكره عن طرابلس من أن حولها أقباطا في زي البربر كلامهم بالقبطية[216].

وأخيــرا نشــير إلى أن بعــض المناطق مــن ليبيا - وهي تلــك التي أصبح للعــرب فيهــا أغلبية عددية - قد لفتــت أنظار الرحالــة والمؤرخين بفصاحة أهلها، وجودة عربيتهم حتى في مجالات الحياة العادية. ونشــير علــى ســبيل الخصوص إلى اقليم برقة الذي نزلت فيه من وقت مبكر مجموعات من قبائل عربية مختلفة يقــول اليعقوبي: الجبلان الحيطان ببرقــة العاصمة احدهما شــرقي والآخر غربي وســكانهما من العرب وحدهم فالجبل الشرقي سكانه مــن العرب من الأزد ولخــم وجذام وصدف مــن أهل اليمن وأمــا الجبل الغربي فســكانه من عرب غســان وجذام والأزد وتجيب وغيرهم من بطون العرب[217]. ويقول المقريزي عن ســليم: مساكنهم ببرقة مما يلي مصر. وكانت في عالية نجد بالقرب من خيبر ثم تحولوا إلى مصر وافريقية ولم يبق لهم عدد ولا بقية ببلادهــم وصار لهم بإفريقية عدد عظيــم[218]. ومن أعجب بفصاحتهم في

215 - المسالك والممالك ، مقتبس في : ليبيا في كتب الجغرافيا والرحلات ص30

216 - المرجع ص31 وقد ورد النص في معجم البلدان لياقوت ولكن مع وضع «أنباط» مكان أقباط ونبطية مكان قبطية (المرجع ص72)

217 - سكان ليبيا عند اليعقوبي ص229 وقد توفي اليعقوبي عام 284 هـ

218 - البيان والإعراب مقتبس في : ليبيا في كتب التاريخ والسير ص24

القديم ورآها ظاهرة تستحق التسجيل العبدري في رحلته[219] حيث يقول ما نصه: «وعرب برقة اليوم من أفصح عرب رأيناهم وعرب الحجاز ايضا فصحاء ولكن عرب برقة لم يكثر ورود الناس عليهم فلم يختلط كلامهم بغيره وهم الآن على عربيتهم لم يفسد من كلامهم الا القليل ولا يخلون من الإعراب الا ما لا قدر له بالإضافة إلى ما يعربون وقد سألت بدويا لقيته يسقي إبله عن ماء يقال له ابو شمال هل نمر عليه فقال لي نعم تطئون أبا شمال وأثبت النون في الفعل ونصب المفعول وليس في المغرب عربي ولا حضري يفعل ذلك ومررنا بأطفال منهم يلعبون فقال لنا واحد منهم يا حجاج معكم شيء تبيعونه وأثبت النون وسكن الهاء للوقف ورايت أعرابيا منهم قد ألح عليه أمرأة تسأله عن طعام معه فقال لها والله ما تذوقينه فأتى بضمير المخاطبة على وجهه وأثبت النون وسكن الهاء وسمعت شخصا ينشد في الركب مكترى راحلة ويقول: من يكرى زاملة فسمعه بدوي فقال له أعندك الزاملة؟ فقال نعم قال: فلا تقل من يكرى وقل من يستكري وأما نادر ألفاظ اللغة وما جرت عادة اهل المغرب بتفسيره فهم حتى الآن يتحاورون به على سجيتهم فمن ذلك أن شخصا منهم وقف على بموضع نزولي من محلة الركب وكانت الترعة منه بعيدة فقال لي ياسيدي «تدعني أظهر» يعني أخرج وسألت شخصا منهم عن الطريق فقال: اذا ظهرتم من الغابة فخذوا صوب كذا وكذا يعني اذا خرجتم منها وهذا اللفظ قد أكثر فيه أهل الغريب في تفسير قول عروة ابن الزبير رضي الله عنه: ولقد حدثتني عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلي العصر والشمس في حجرتها قبل أن تظهر وأتوا عليه بشواهد وأمثال وسمعت صبيا منهم ينادي في الركب: ياحجاج من يشتري

- بدأ العبدري رحلته في الخامس والعشرين من ذي القعدة عام 688 هـ

الصفيف فلم يفهم عنه أكثر الناس فقلت له: اللحم معك؟ فقال نعم وأبرز لحم ظبي مقدد وهذا اللفظ قد ذكره مالك في الموطأ... وسألت شخصا عن ماء: هل هو معين؟ فقال لي هو ماء غدق وهذا اللفظ فسره ابو عبيد في غريبه... وما يتكلمون به من الغريب أكثر من أن يحصى..»[220].

مدى التأثير المتبادل بين العربية والبربرية:

إن وجود لغتين - أي لغتين - في مكان واحد لا يتصور معه أن تظل أي منهما بمناى عن الاخرى تقول لها لا مساس وانما لابد مهما تكن نتيجة الصراع من وقوع احتكاك بين اللغتين وتأثير من كلا الجانبين على الآخر واذا انتهى الصراع بموت احدى اللغتين أو إقصائها من الميدان إلى منطقة محدودة فلا يعني هذا ان اللغة المغلوبة قد ذهبت مع الرياح وطمست معالمها في مناطق نفوذ اللغة الغالبة فهي لابد وأن تترك قبل إخلائها الميدان معالم وملامح وتأثيرات قد تقل وقد تكثر بحسب كل حالة على حدة وفي نفس الوقت فإن اللغة الغالبة لا تكتفي بإقصاء اللغة المغلوبة من طريقها وانما لا بد لها في فترة الصراع من أن تترك آثارها ومعالمها على اللغة المغلوبة ومعنى هذا أن الغالب والمغلوب في معركة الصراع اللغوي لايخرج سالما ولا ينجو من سهام الآخر وهذا هو ما نريد بحثه الآن لنرى مقدار ما لحق كلا من اللغتين العربية والبربرية من سهام الأخرى ومدى التأثير المتبادل بينهما.

أما تأثير العربية على البربرية فتاثير ضخم متعدد الجوانب ويتضح ذلك من النسب والبيانات الآتية:

1 - يقول جوستاف لوبون لقد تعربت البربرية - كما تعرب البربر أنفسهم - نتيجة لاتصالها باللغة العربية وان نحو ثلث البربرية التي يتكلم بها

220 - الرحلة المغربية للعبدري تحقيق أحمد بن جدو ص81.82

سكان منطقة القبائل الكبرى يتألف من كلمات عربية وأمر طريف مثل هذا يثبت لنا مرة أخرى مقدار تأثير العرب العظيم الذي لم يكتب مثله لأية أمة أخرى ومن هذه الأمم اليونان والرومان الذين دام سلطانهم في شمال افريقية دوام سلطان العرب من غير أن يتفق للغتهم أي أثر في اللغة البربرية[221] ومن الكلمات العربية التي دخلت البربرية، وقد راعينا أخذها من لهجات مختلفة[222]، ما يأتي:

أ - هذه أبيات بالبربرية الميزانية للشاعر باجو صالح وتحتها ترجمتها الحرفية:

يلولد سيدنا محمد***تضوا الدونيت أس الانوار

ولد سيدنا محمد***وأشرقت الدنيا بالأنوار

آربي زال اتسلمد***فواسي سجد نتاس الأشجار

اللهم صل وسلم***على من سجدت له الاشجار

توليد تزيري نرسول***تشعشع آماس نيجنوان

طلع بدر الرسول***وأشرق في كبد السماء

تفكرانغ آس ايديلول***يا الله آناوى ايزلوان

فذكرنا بيوم ميلاده***هيا ننشد أناشيد الافراح

وفي القصيدة كلمات اخرى مثل: سعدك = ما أسعدك، يموت = توفى، باباس = ابوه، ايمشركن = المشركون، عنجال = من اجل، سالمعجزات = بالمعجزات، سحار = ساحر، سلمعجزاتس = من معجزاته[223].

221 - حضارة العرب ص247 وقد وردت نسبة الثلث كذلك في تاريخ المغرب الكبير لدبوز 414/3.

222 - يلاحظ اننا نمثل بأمثلة من البربرية الحديثة لبيان مدى التأثير العربي وذلك لأننا نعتقد أن هذا التأثير يرتد ولا شك إلى فترة الصراع بين اللغتين وهي فترة لا تتجاوز القرن السادس كما سبق أن ذكرنا.

223 - دبوز 55/1-58.

ومن الكلمات العربية الصرف فيها: الكفار – القرآن – الإسلام – الحج – ارسول (أي: يارسول ولاحظ همزة النداء) – الوقت – المحشر .

ب- وفي بحث عن لهجة الشلحا التي تتكلم في جنوب غربي مراكش وتعد واحدة من أكثر اللهجات البربرية انتشارا يقول Applegate: «وقد أثرت العربية على اللهجة كما يمكن أن يرى في طرق العد فهناك طريقتان: احداهما تستعمل كلمات الشلحا والأخرى تستعمل كلمات عربية وإن العد بطريقة الشلحا يستعمل بوجه عام بين النساء وكذا رجال المناطق النائية في حين ان العد العربي يستعمله الرجال العاملون في اعمال متصلة بغيرهم»[224]. ومن قائمة الكلمات التي ذكرها المؤلف نلتقط الأمثلة الآتية، والأصل العربي واضح فيها كل الوضوح: أفلح = فلاح، أجزار = جزار، أربعة= ربعة، السلام عليكم = السلام عليكم، باب الفرح = مفرح، بدو = يبدأ، هبل = سفيه، حرك = يحرك، حرم = يحرم، حكم = قاض[225].

ج- ومن الكلمات ذات الأصل العربي المستعملة في بربرية منطقة الجبل الغربي: سبت = السبت، لحد = الأحد الخ ايام الاسبوع، ألغم = جمل، دهان = سمن، ألحالنك = كيف حالك؟، ماى اسمنك = ما اسمك؟، كما لعمرنك = كم عمرك؟، ماني تسكنن = أين تسكن، رمضان = رمضان[226].

د- ومن كلمات اللهجة الطوارقية: الحراث = الحراث، إطيار = طائرة، أماضان = راع، إلقلم = القلم، الكتاب = الكتاب، حيوان = حيوان، الإحاد = الأحد، إلغاميس = الخميس[227].

224 - An Outline of the Structure of Shilha ص3 من التصدير

225 - المرجع ص45-55

226 - المؤثرات الأجنبية في عامية ليبيا : بحث مخطوط للأستاذ عبد اللطيف سويسي ص4-6

227 - المرجع ص7،8

2 - على الرغم مما أثر عن الطوارق من حروف كتبت بها لهجتهم من قديم فهم يكتبون بحروف عربية سواء العربية أو البربرية[228]. ومثل هذا يصدق على سائر اللهجات البربرية فقد ذكر الاستاذ دبوز أن الكتب التي ألفت بالبربرية كتبت بالحروف العربية حيث كانت الكتابة البربرية قد اختفت حروفها من المغرب في وقت مبكر وبقيت في أعماق الصحراء الكبرى في قبائل صنهاجة وغيرها ولم يبق منها في المغرب الأوسط الا حروف يستعملونها في النقش والطراز والنسج حلية[229].

3 - إن معظم المؤلفات التي ألفها علماء من البربر قد كتبت باللغة العربية مثل الإيضاح، للشيخ عامر الشماخي، وقناطر الخيرات للشيخ اسماعيل الجيطالي، والقواعد في الشريعة الإسلامية للمؤلف السابق، والوضع لأبي زكرياء، والسير للشماخي، والطبقات للدرجيني، وسير الأئمة لأبي زكرياء، ومدونة ابن غانم في الحديث[230]. وقد فشلت المحاولات التي بذلها بعضهم لجعل البربرية منافسة للعربية في مجال التأليف فنظموا بها الشعر، وترجموا إليها الكتب والدواوين، حتى لقد نقلوا القرآن اليها. ولكنها - على حد تعبير الاستاذ عثمان الكعاك - «كانت كأعمال من يبني صروح الورق فوق السافيات الذاريات فلم تمض عليها عشية أو ضحاها حتى هوت اركانها وانطمست آثارها»[231].

4 - يقول الاستاذ ابراهيم الكوني في بحث له عن الطوارق، معقبا على قول جوستاف لوبون: «إن البربر في شمال افريقية يتحدثون اللغة العربية

228 - Encyclopaedia Britannica 3/ 496.

229 - 414/3

230 - دائرة المعارف الإسلامية – تعليق اطفيش رقم 1 ص518 ، 519 في مادة بربر ودبوز 389/3 - 391

231 - المجتمع التونسي في عهد الأغالبة ص37

بنسبة الثلث في لغتهم الأصلية»: «وهذا ما حدث بالنسبة للغة الطوارق ايضا. وهذا التأثير يتجاوز الأطر اللفظية إلى صلب قواعد اللغة «[232].

5 - وقد دخلت البربرية بعض الاصوات التي لم تكن موجودة فيها، وذلك تحت تأثير اللغة العربية مثل صوت العين. ومما يدل على دخول هذا الصوت البربرية مؤخرا عدم وجود رمز مستقل له عندهم[233]. ويقول الاستاذ دبوز: «إن كتابة الطوارق في الصحراء الكبرى وهم الذين حفظوا لنا الخط البربري باستعمالهم له حتى الآن نجد فيها حرف العين ولو اقتبس البربر القدماء حرف العين من الفنيقيين القدماء لوجدناه في كتابتهم»[234].

أما آثار البربرية على العربية فجد ضئيلة بشكل لافت للنظر ولعل السبب في ذلك يكمن فيما قاله الاستاذ عثمان الكعاك من أن «اللغة البربرية وإن كانت لم تزل لغة أقوام كثيرين الا أنها لم تبلغ في عمرها درجة البيان ولم تسم إلى مستوى الأدب.. على أنها لها طنطنة عند التلفظ بها تذهب لما للغات من جمال الرنة الموسيقية وعذوبة المسمع.. وهي قليلة المفردات، ضيقة النطاق في التعبير؛ لأنها لم تكن لغة أدب أو علم، وهي لم تجار سواها من اللغات المستعملة..»[235] أو فيما قاله الاستاذ سويسي عن «انكماش البربر في شبه عزلة، حيث انه من الملاحظ انهم يكونون ما يشبه مجتمعا داخل المجتمع مجتمعا له تقاليده وعاداته لدرجة انهم لا يتزوجون من العرب، ولا يعطون بناتهم للعرب لأجل الحفاظ على الدماء البربرية الأصلية على حد زعمهم»[236].

232 - جريدة الثورة عدد 1970/1/6

233 - انظر ما سبق ان كتبناه عن الخط البربري

234 - 65/64/1 ويلاحظ ان الكاتب لم يكن دقيقا في ادعائه ان الطوارق هم الذين حفظوا لنا الخط البربري

235 - المجتمع التونسي في عهد الأغالبة ص37

236 - المؤثرات الاجنبية في عامية ليبيا ص3

ومن بين هذه الآثار القليلة نذكر:

1 - أسماء الأمكنة التي تبدأ بـ «تا» علامة التأنيث في البربرية: مثل تاجورة وتاغرمين وتاغمة وتاورغا[237]. وهناك مجموعة اخرى من الاسماء البربرية لا تبدأ بالتاء مثل زنزور وغدامس.

2 - كلمة «لَلّه» التي تعني المرأة المعظمة. وهناك بئر تعرف باسم «بئر اللَّلَّه» حفرتها سيدة من الاسرة القرمنلية التي حكمت طرابلس. وقد اخذ العرب هذه الكلمة من البربر، وصاروا يستعملونها في تعظيم المرأة. كما استعملها البربر. وكانت مستعملة ايضا في بيوت رؤساء الحكومات من الترك في طرابلس يطلقونها على النساء للتعظيم[238].

3 - من المعروف ان اللغة العربية لا تبدأ بساكن. في حين ان البربرية يكثر فيها البدء بالساكن[239]. والظاهرة التي تلفت النظر في عامية ليبيا كثرة بدئها بالساكن. فكلمات مثل بحر ومطر تنطقان: بْحر ومْطر. بل أكثر من هذا نجدهم ينطقون كلمات مثل محمد كما لو كانت محمد ويكتبونها بهمزة وصل قبلها هكذا: امحمد. ولا يبعد ان تكون هذه الظاهرة قد وجدت في العامية الليبية بتأثير من البربرية. ويتضح تأثير هذه الظاهرة في نطق كلمة «ابو بكر» اسم مكان في ليبيا؛ اذ تنطق «بُوبْكر» وهو النطق البربري للكلمة[240].

ويرد بعضهم[241] قلب الجيم زايا في النطق الليبي لبعض الكلمات

237 - الزاوي : معجم البلدان ص76.78

238 - المرجع ص50

239 - انظر ما كتبناه عن خصائص اللغة البربرية في القصل الاول من هذا الباب

240 - الزاوي : معجم البلدان ص67

241 - محمد فريد ابو حديد : « بعض ملاحظات في اللهجة الليبية المؤتمر الخامس والعشرون لمجمع اللغة العربية بالقاهرة ص145

العربية إلى التأثير البربري مثل كلمة «زوج» التي تنطق (زوز)، و» زنزور» (اسم مكان) التي يدعى ان اصلها جنزور، و»زردة» التي يدعى ان أصلها جردة.. وهكذا ويؤيد هذا الفرض بما قاله ابن خلدون عند تفسيره لكلمة «زناتة» من أن اصلها مشتق من الاسم «جانا»، وهو ابو القبيلة. فجمع أهل القبيلة في اسم «جانات». ولم يكن ينطق البربر بهذه الجيم من مخرج الجيم عند العرب فهم يبدلونها زايا محضة. فصارت «زنات». ونحن وإن كنا نسلم بما قاله ابن خلدون فلا نسلم بما رتبه عليه الباحث من آثار. فقلب الجيم زايا عند الليبيين مشروط بمصاحبة اصوات معينة مثل الزاي والسين بقصد تحقيق نوع من الانسجام الصوتي Sound harmony. وذلك في كلمات مثل عجوز (عزوز) وزوج (زوز) وجنس (زنس) وجبس (زبس). اما كلمة زنزور التي ذكرها الكاتب فهي كلمة بربرية صرف. ويخطيء من ينطقها جنزور بالجيم. واما كلمة «زردة» التي يدعى ان اصلها جردة. فلا دليل على دعواه. والمادة بالزاى تدل على معنى الاستدارة او التحلق. كما تدل على معنى الازدراد والبلع. وكلاهما ملحوظ في «الزردة» حيث يتحلق المدعوون ويزدردون الطعام.

واخيرا نرد كلمة «هلبة» وجهها العربي. بعد ان ادعى بعضهم كذلك انها لفظة بربرية. فالمادة في كتب اللغة العربية تدل على معنى الكثرة والزيادة. وهو نفس معناها في عامية ليبيا. ففي لسان العرب: رقبة هلباء كثيرة الشعر. وعام أهلب أي خصب. وهلبتهم السماء بلتهم وامطرتهم بجود...

ونختم هذا الفصل بكلمة جوستاف لوبون التي يقول فيها: «مع أن الفاتحين الذين ظهروا قبل العرب لم يستطيعوا ان يفرضوا على الأمم المغلوبة لغاتهم، قدر العرب - على العكس من ذلك - على فرض لغتهم عليهم. ولما

صارت اللغة العربية عامة في جميع البلاد التي استولوا عليها حلت محل ما كان فيها من اللغات كالسريانية واليونانية والقبطية والبربرية... وكان للغة العرب مثل ذلك الحظ زمنا طويلا، حتى في بلاد فارس، على الرغم من يقظة الفرس أي ظلت اللغة العربية في بلاد فارس لغة أهل الادب والعلم وظل الفرس يكتبون لغتهم بالحروف العربية وكتب ما عرفته بلاد الفرس من علم الكلام والعلوم الأخرى بلغة العرب وللغة العربية في هذا الجزء من آسيا شأن كالذي كان للغة اللاتينية في القرون الوسطى وانتحل الترك انفسهم وهم الذين قهروا العرب الخط العربي. ولا تجد في تركيا انسانا على شيء من التعليم لا يستطيع ان يفهم لغة القرآن بسهولة»[242].

241 - ص440

الفصل الرابع

وسائط الثقافة لدى الليبيين

صارت اللغة العربية عامة في جميع البلاد التي اســتولوا عليها حلت محل ما كان فيها من اللغات كالســريانية واليونانية والقبطية والبربرية... وكان للغــة العرب مثل ذلك الحظ زمنا طويلا، حتــى في بلاد فارس، على الرغم من يقظــة الفرس أي ظلت اللغة العربية في بلاد فــارس لغة أهل الادب والعلم وظل الفرس يكتبون لغتهم بالحروف العربية وكتب ما عرفته بلاد الفرس من علم الكلام والعلوم الأخرى بلغة العرب وللغة العربية في هذا الجزء من آسيا شأن كالذي كان للغة اللاتينية في القرون الوسطى وانتحل الترك انفسهم وهم الذين قهروا العرب الخط العربي. ولا تجد في تركيا انسانا على شيء من التعليم لا يستطيع ان يفهم لغة القرآن بسهولة»[242].

241 - ص440

الفصل الرابع

وسائط الثقافة لدى الليبيين

كانت هناك وسائل كثيرة أمام طلاب العلم من الليبيين ليشبعوا رغبتهم العلمية ويرضوا نهمهم الدراسي سواء داخل البلاد أو خارجها وكانت الفرص متعددة حتى أمام أولئك الذين لم تمكنهم ظروفهم المعيشية أو المادية من السفر إلى الخارج. فكان بوسعهم الاكتفاء بلقاء العلماء الموجودين في بلدهم سواء من كان منهم من الأساتذة المقيمين أو الأساتذة الزائرين أما من أتيح له حظ السفر إلى الخارج سواء للدراسة او الحج او التجارة فقج كان أمامه فرصة أخرى تتمثل في لقاء الأساتذة والتردد على مراكز الثقافة المختلفة في البلدان العربية المجاورة او حتى البعيدة منها على قدر ما سمحت له ظروفه.

وسوف نركز حديثنا هنا على وسائط الثقافة في ليبيا بخاصة ونشير إلى جانب ذلك إشارة سريعة إلى بعض الوسائط في البلدان العربية المجاورة ولاسيما في مصر وتونس لكثرة الرحلة اليهما من ناحية ولاعتبار ليبيا في كثير من الأحيان تابعة اما كلها او بعضها لكلا البلدين المجاورين أو أحدهما.

وقد كان أمام الليبيين وسائل متنوعة للاستزادة من العلم مثل:

1 - حضور حلقات العلم ودروس الأساتذة التي تلقى في المساجد ولم يكن المسجد حينذاك مجرد مكان للعبادة والصلاة وإنما كان كذلك مدرسة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان فهو مكان لإلقاء المحاضرات والاستماع إلى الدروس وهو مجمع للطلاب والأساتذة وهو إلى جانب ذلك يحوي في العادة أماكن خاصة لسكنى الأساتذة والطلاب المغتربين.

2 - ولم تكد في هذه الفترة تخلو مدينة او قرية من مسجد او اكثر. ومنها ما أسس في وقت مبكر مع الفتح الإسلامي ولقد زار التجاني طرابلس

في اوائل القرن الثامن الهجري ولفت نظره فيها كثرة مساجدها حتى قال عنها: «مساجد البلد لا تحصى كثرة وهي تكاد تناهز الدور عدة»[243]. وقال في مكان آخر: « بخارج البلد مساجد كثيرة مشهورة بالفضل»[244]. وقال مرة ثالثة - بعد حديثه عن قبر الشيخ ابي محمد عبد الجليل الحكيمي ومسجد سيقاطة الموجودين على ساحل البحر قرب زنزور - «وعلى هذا الساحل بطوله مساجد كثيرة»[245].

ومن أشهر مساجد ليبيا القديمة:

أ - المسجد الجامع الذي بناه عمرو بن العاص بزنزور[246]، والآخر الذي بناه في طرابلس أمام باب هوارة[247].

ب - مسجد الشعاب المنسوب لأبي محمد عبد الله الشعاب. قال عنه التجاني: «أحد الصلحاء الفضلاء من أهل طرابلس وكان نجارا ونسب المسجد المذكور اليه لأنه هو الذي أتم بناءه، ولزم السكني به. وكان بعض الناس قبله قد ابتدأ بناءه ثم وقف عنه»[248]. وقد تم بناؤه في اوائل المائة الثالثة للهجرة، ومازال قائما[249].

ج - مسجد خطاب بخارج مدينة طرابلس من جهة شرقيها على البحر، وينسب للشيخ ابي نزار خطاب البرقي وكان رجلا صالحا[250].

د - مسجد الجدة، أو مسجد الجدود، وسمي بذلك لأن إحدى جدات بني

243 - ص254
244 - ص247
245 - ص218 ، 219 ، 220
246 - التجاني ص215 ، وانظر الزاوي : معجم البلدان ص174
247 - إحسان عباس : تاريخ ليبيا ص104
248 - ص247 ، 218
249 - الزاوي : معجم البلدان ص313 ، 314
250 - التيجاني ص248

الأغلب قد بنته ثم عرف فيما بعد باسم مسجد البارزي لسكني ابي الحسن البارزي به وعرف اخيرا باسم مسجد ابي عثمان سعيد بن خلفون الحساني (نسبة إلى قرية حسان او قصور حسان) لأنه كان ملازما له وكان رجلا صالحا ويقع المسجد بخارج طرابلس[251].

هـ - مسجد المجاز الذي كان معروفا بسكني ابي الحسن على بن احمد ابن الخصيب وكان فقيها صالحا عالما زاهدا[252].

و - جامع طرابلس الأعظم الذي بناه بنو عبيد. وهو جامع متسع على اعمدة مرتفعة وكان حديث التجديد ايام التجاني وذكر ان له منارا متسعا مرتفعا قائما من الأرض على أعمدة وقد كان بناؤه في الجهة الغربية عام 300 هـ على يد عبد الله بن ابي مسلم وخليل بن اسحاق[253] وهذا الجامع غير موجود الآن[254].

ز - مسجد العشرة، وكان في رحبة مدينة طرابلس وسمي بذلك لأن عشرة من أعيانها كانوا يجتمعون فيه للتشاور فيما يعن لهم من شئون. وكان هذا في النصف الاول من المائة السادسة قبل تملك الموحدين[255].

ح - مسجد الزروق، بناه خادمه احمد بعد وفاة الشيخ بنحو عشرين سنة وسكن بجوارة وتولاه احفاده من بعده[256].

ط - جامع الناقة، وهناك مسجدان يحملان هذا الاسم: احدهما بناه

251 - التجاني ص249 والزواي : معجم البلدان ص312
252 - التيجاني ص251 وفي الحاشية ان اسمه ذكر في بعض النسخ : احمد بن الخطيب.
253 - المرجع ص253،246.
254 - الزاوي : معجم البلدان ص92.
255 - التجاني ص237 والزاوي : معجم البلدان ص314.
256 - الزاوي ص313.

المعز لدين الله الفاطمي، اذ يحكى أنه لما سافر إلى مصر سنة 362هـ ومر بطرابلس أهدى أهلها ناقة محملة ذهبا، فبنوا به هذا الجامع، وسموه جامع الناقة. اما الثاني فيعرف كذلك باسم جامع الفرج، وسمى بجامع الناقة لأن الشيخ احمد زروق كان قادما من المغرب - في طريقه إلى الحج - على ناقة، فلما وصل مكان الجامع بركت ناقته، فبنوا حينئذ هذا الجامع في موضع بروكها[257].

ى - المسجد الذي بناه ابو القاسم بن عبيد الله الشيعي بأجدابية، وكان حسن البناء، له صومعة مثمنة، بديعة العمل[258].

ك - مسجد على بن عبد الحميد العوسجي، الشيخ الوقور العالم السالك مؤدب الصبيان، المولود عام 775هـ، والمتوفي عام 925، وكان يقيم بالحرشا، وبني مسجده متصلا بداره[259]. والحرشا قرية من قرى الزاوية[260].

ل - مسجد ابي مسلم مؤمن بن فرج الهواري، حيث كان ابو مسلم يدرس ويفصل محكم الايات، ويبسط جوامع الكلم، في عهد ازدهرت فيه علوم الحديث، وفروع الدراسات الاسلامية، وتوفي ابو مسلم سنة 442 هـ بطرابلس[261].

م - مسجد ابي عبيدة عبد الحميد الجناوني بقرية جناون من قرى نفوسة، وهو من علماء القرن الثالث الهجري، وكان مسجده متسعا، حتى قيل انه اجتمع به سبعون عالما من اكابر علماء قريته في وقت واحد[262].

257 - المرجع ص92 . 94

258 - تاريخ طرابلس الغرب مخطوط مجهول المؤلف ورقة والمسالك للبكري مقتبس في : ليبيا في كتب الجغرافيا والرحلات ص29

259 - اعلام ليبيا للزاوي ص208

260 - معجم البلدان للزاوى ص112

261 - أعلام من طرابلس للمصراتي ص20

262 - قناطر الخيرات للجيطالي هامش المحقق رقم 2 ص22

ن - وفي بحث ملحق بسير الشماخي بعنوان «تسمية مشاهد الجبل» وردت اسماء الأماكن الهامة في جبل نفوسة. وقد أحصيت ماورد فيه من مصليات فوجدته 62 مصلى، ومن مساجد فوجدته 21 مسجدا.

أما المساجد الكبرى التي كانت في تونس ومصر فأشهرها:

أ- جامع عقبة، وهو مسجد القيروان وقد أقرأ فيه رجال من التابعين منهم عكرمة[263] وكان مجلسه في مؤخر المسجد وهنالك كان يجلس لإقراء التلاميذ الحديث والتفسير وكان عكرمة من اول من أدخلوا النزعة الخارجية إلى افريقية ومات سنة 107 هـ. واستمرت العلوم الدينية من تفسير وحديث تروى في حلق التعليم بالمسجد الجامع ولم تكن مذاهب السنة السنة قد تمحصت بعد ولذا كان اصحاب الآراء المخالفة لها يجتمعون فيه ويتناظرون في مذاهبهم ويلقون الدروس فيها ودامت هذه الحال إلى اواسط الدولة الأغلبية حين تولى الامام سحنون خطة القضاء بالقيروان سنة 234 فمنع التدريس به لما لم يكن على مذاهب السنة وكان سحنون اول من فرق حلق اهل البدع من المسجد الجامع وشرد اهل الأهواء وكان فيه حلق من الخوارج والأباضية والمعتزلة وكانوا يتناظرون فعزلهم سحنون ومنعهم من التدريس بالمسجد.

ب - جامع الزيتونة، وهو المسجد الجامع بمدينة تونس. وقد اختطه حسان بن النعمان حوالي سنة 80 هـ. ثم أعاد بناءه عبيد الله بن الحبحاب سنة 116هـ. ثم جدده الأمير الأغلبي ابو ابراهيم احمد بن محمد عام 250هـ. ويعد جامع الزيتونة من أسبق المعاهد التعليمية للعروبة مولدا وأقدمها في التاريخ عهدا وقد حمل مشاعل الثقافة العربية منذ القرن الاول الهجري[264].

263 - له ترجمة في وفيات الاعيان 427/2 . 428

264 - ورقات 31/1 . 106 . 107 . 108 . 115 . 116

ج - الجامع العتيق الذي بناه عمرو بن العاص بالفسطاط. وقد كانت العظات والدروس الدينية تلقى فيه منذ عام 38هـ. وكان الإمام الشافعي يتخذه مقرا له يلقي فيه دروسه في الفقه والقراءات والحديث وغيرها وظل الركن الذي كان يجلس فيه يحمل اسمه حتى عهد المقريزي (ت 845). ومن بين الأساتذة الذين كانوا يلقون دروسهم في هذا المسجد الإمام الطبري المؤرخ والمفسر المشهور وقد كان الطبري إلى جانب دروسه في التاريخ والتفسير يقرىء الشعر ويروي دواوين مشاهير الشعراء وفي عهد الإخشيديين كان يجتمع بهذا المسجد 33 حلقة الفقهاء وحدهم منها 3 حلقات للحنفية و 15 حلقة لكل من الشافعية والمالكية وقد أعلن المقدسي الذي زار مصر في القرن الرابع الهجري أنه لم ير في أي بلد إسلامي مسجدا يعج بالطلاب والدارسين كما رأى مسجد الفسطاط.

د - مسجد احمد بن طولون الذي كلف بناؤه 120 الف دينار. وبعد تشييده انتقل اليه مشاهير المحدثين. كما انتقل اليه الإمام الطبري. وكان الربيع بن سليمان الفقيه الشافعي يلقي دروسه فيه كذلك.

هـ - وبعد تشييد الجامع الأزهر انتقل النشاط الثقافي اليه وفي عهد العزيز بالله الفاطمي (378هـ) ألحق به مبنى خاص لسكنى الفقهاء والعلماء[265].

2 - التزود من كنوز المعرفة والاستفادة من أمهات الكتب الموجودة في دور الكتب وفي المكتبات ومن ذلك:

أ - بيت الكتب بالقيروان وقد قال عنه العبدري: «دخلت بيت الكتب بالقيروان فأخرجت لنا مصاحف كثيرة بخط مشرقي، ومنها ما كتب

265 - لمزيد بيان عن مساجد مصر راجع رسالتي للدكتوراه Arabic Linguistic Studies ص13 . 43-46

كله بالذهب. وفيها كتب محبسة قديمة من عهد سحنون وقبله... ورأيت مصحفا يقال إنه مصحف عثمان. وإنه بخط عبد الله بن عمر رضي الله عنهما»[266].

ب - مكتبة «المعصومة» العامة بتيهرت. وكانت تجلب الكتب النفيسة من نتاج أهل المشرق وتضم إليها كل مفيد من كتب أبنائها وبلغت الكتب فيها 300 الف مجلد في كل العلوم والفنون ولكن – مع الاسف – حرق العبيديون هذه المكتبة[267].

ج - بيت الحكمة الذي أنشأه ابراهيم الثاني الأغلبي في مدينة «رقادة» قرب القيروان. وقد اتخذت هذه المدينة عاصمة الدولة ومقرا للحكم منذ سنة 264 هـ. وكان ابراهيم هذا مولعا بالعلوم الرياضية والحكمة والفلسفة. فحمله هذا على إنشاء بيت الحكمة وجلب اليه علماء مختصين في العلوم والطب والهندسة كما حشد فيه الكتاب والوراقين الذين كانوا يؤدون وظيفة الطباعة اليوم وكان إبراهيم الثاني يرسل في كل عام واحيانا مرتين في العام سفارة إلى بغداد لتجديد ولائه للخلافة العباسية وايضا لاقتناء ما يوجد في بغداد من نفائس واستجلاب العلماء الاخصائيين في سائر العلوم وشراء نسخ الكتب العلمية. وكان بيت الحكمة يشتمل على خزانة كتب. وقاعات للجلوس والمطالعة. وكان هواة المخطوطات يأتون اليه من كل مكان لمطالعة المخطوطات ومراجعتها. واتخذ بيت الحكمة في عهد الفاطميين محلا لمجلس الدعوة الإسماعيلية ومناظرة علماء السنة القيراونيين[268].

د - مئات الخزائن المملوءة بالكتب النفيسة التي كانت تزخر بها مدن

266 - ص65
267 - دبوز 3/395 . 397 . 617
268 - دبوز 3/395 . 397 . 617

وقرى جبل نفوسة. وقد حرق معظمها في الفتن المتصلة التي لحقت بالجبل بعد القرن العاشر[269].

هـ المكتبة المعروفة باسم «خزانة نفوسة». وقد كان بها في عهد افلح الآلاف المؤلفة من المكتب وكان مقرها بمدينة شروس في جبل نفوسة[270].

و- مكتبة السلاطين الحفصيين بتونس. التي اشتملت على عشرات الآلاف من المخطوطات النادرة. وهذه المكتبة هي التي لجأ إليها العلامة ابن خلدون لما أراد مراجعة الاصول التاريخية. والتوسع في كتابه «العب»[271].

ز- مكتبة العزيز الفاطمي بمصر التي كانت مملوءة بالكتب لدرجة جعلته يعين أمينا لفهرستها والإشراف عليها. وقد أخبرنا المقريزي أنها كانت تحوي أكثر من 30 نسخة من معجم العين للخليل. منها نسخة بخط المؤلف نفسه. كما كانت تحوى 20 نسخة من تاريخ الطبري. و 100 نسخة من الجمهرة لابن دريد[272].

ح- المكتبة العامة المسماة «دار العلم» أو «دار الحكمة» التي أنشأها الحاكم بأمر الله الفاطمي. يقول المقريزي: وفي العاشر من جمادي الآخرة سنة 395 فتحت الدار الملقبة بدار الحكمة بالقاهرة وجلس فيها الفقهاء وحملت الكتب إليها من خزائن القصور المعمورة ودخل الناس إليها ونسخ كل من التمس نسخ شيء مما فيها ما التمسه وكذلك من رأى قراءة شيء مما فيها وجلس فيها القراء والمنجمون وأصحاب النحو واللغة والاطباء بعد أن فرشت هذه الدار وزخرفت وحصل في هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين

269 - دبوز 3/ 388
270 - الازهار الرياضية 209/2
271 - مقدمة حسن حسنى عبد الوهاب لرحلة التجاني ص23 . وورقات 33/1
272 - رسالتي للدكتوراه ص48

الحاكم بأمر الله من الكتب التي أمر بحملها إليها من سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة مالم ير مثله مجتمعا لأحد قط من الملوك وأباح ذلك كله لسائر الناس.. وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والأقلام والورق والمحابر..

واستمرت هذه المكتبة إلى أن أبطلها الأفضل بن أمير الجيوش[273].

3 - المناظرات والمحاورات والجلسات العلمية التي كانت تعقد في قصور الأمراء والحكام او تحت إشرافهم. وبخاصة اذا كان للأمير أو الحاكم اشتغال بالعلم او شغف بالدرس او ميل إلى بعض النحل او المذاهب الدينية وقد كان ابراهيم بن احمد الأغلب يعقد جلسات علمية في قصره باستمرار وحفظ لنا الخشني في كتابه «طبقات علماء افريقية» نماذج من مجالسه ومن أمثلة ذلك ما رواه عن ابي عثمان سعيد بن محمد بن الحداد[274] قال:

دخلت قصر ابراهيم بن أحمد بن الأغلب وحوله وجوه أصحابه. ومعي موسى القطان فسلمت وجلست وقد كان أتاه قبل ذلك جميع اهل بلدنا أعني من أهل العلم بغير إرسال فقلت له قد كان من كان قبلك في هذا القصر وقد علم الله وعلم من حضر من أصحابنا انني لم أكن بجياء للملوك ولا آتي أحدا منهم بغير رسول فتكلم ثم قال لي: من أين قلت بالقياس؟ قال: قلته بكتاب الله قال: وأين هو في كتاب الله؟ قلت: قال الله: «يأيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وانتم حرم ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم». فالصيد منصوص. والذي أمرنا أن نمثله بالمنصوص ليس بمنصوص فعلمنا بذلك ان من دين الله تمثيل مالم

273 - الخطط 2/ 337-340
274 - من اصحاب سحنون وكان يطريه جدا ويذهب في حسن الثناء عليه كل مذهب كان عالما باللغة والنحو وعربي اللسان واذا لحن في لفظة استغفر الله واعاد الكلام معربا وكان شاعرا (الخشني ص148)

ينص بما نص قال ابو عثمان ثم عطف فقال: أنتم تبغضون عليا ياأهل المدينة فقال ابو عثمان: على مبغض علي لعنة الله وملائكته والناس اجمعين وكيف ابغض عليا وقد سمعت وقد سمعت سحنون بن سعيد وهو امام أهل المدينة بالمغرب يقول: علي بن ابي طالب إمامي في ديني أهتدى بهديه وأستن بسنته رحمة قال لي: بل صلوات الله عليه فرفعت صوتي وقلت: إن الصلاة في كلام العرب الدعاء، وقلت: قال الأعشى:

تقول بنتي وقد قربت مرتحلا***يارب جنب أبي الاوصاب والوجعا

عليك مثل الذي صليت فاغتمضي***نوما فإن لجنب المرء مضطجعا[275]

وقد نقل إلينا الإخباريون صورة واقعية لمجالس الجدل التي كانت تدور في بيت الحكمة بمدينة رقادة عقب امتلاك عبيد الله المهدي افريقية، وكان داعية الاكبر ابا عبد الله الصنعاني. وفي بيت الحكمة كان ابو عبد الله الصنعاني يجمع علماء السنة القيروانيين ويناظرهم. وتوالت مجالس الجدل لتبلغ نحو الاربعين بمعدل مجلس في كل اسبوع وكان الجدل في هذه المجالس يدور حول مفهوم بعض النصوص الدينية في العقائد وخصوصا في مسالة الإمامة

275 - الخشني ص-199 201 وانظر مجالس اخرى ص202 208- من نفس المرجع وهناك مناظرة اخرى عقدت في مجلس الامير ابراهيم حول خلق القرآن نقلها صاحب رياض النفوس (ورقات 213/1 ومن الحكام الذين كان لهم اهتمام خاص بالعلم والعلماء الامام عبد الرحمن بن رستم الذي كان من كبار العلماء في عصره وكان يقضي وقت فراغه وهو رئيس للدولة الرستمية في الدرس والتدريس والتأليف وكانت له حلقة في مسجد تيهرت يتولى التدريس فيها وقد الف كتابا في التفسير ومنهم الامام عبد الوهاب الرستمي الذي كان من المشتغلين بالعلم فقد ألف «نوازل نفوسة» وهو مجموعة الفتاوي الشرعية التي كان علماء نفوسة يستفتونه فيها ويحكي عن الإمام عبد الوهاب هذا انه ارسل إلى اخوانه بالبصرة في العراق الف دينار ليشتروا له بها كتبا ولما وصلتهم اشتروا بها رقا ونسخوها على نفقتهم وارسلوها له فكانت حمل اربعين جملا وبعد أن عكف على قراءتها حتى فرغ منها قال : الحمد لله الذي علمني كل ما فيها من قبل ولم أستفد منها الا مسألتين او ثلاثا ومنهم الإمام أفلح الرستمي الذي كان يجلس بين يديه اربع حلق قبل بلوغه يتعلمون منه فنون العلم من فقه وأصول ونحو وغير ذلك (سير الشماخي ص162 ، 193 والازهار الرياضية 164/2 ، 194 ودبوز 372/3 ، 373 ، 380)

والتفضيل وكان لشيخ السنة المتكلم القيرواني ابي عثمان سعيد الحداد الظهور الكامل في الرد على مفهوم الاسماعيلية في تفسير آيات معينة من القرآن وبعض الأحاديث النبوية[276].

4 - الانتظام في أحد الكتاتيب او المدارس الكثيرة التي كانت موجودة اذ ذاك، وقد كان بعضها موصولا بالمساجد وكان هدفها تعليم الصبيان مبادىء القراءة والكتابة ومبادىء العربية، وتحفيظهم القرآن والحديث، وتعليمهم ما لايسعهم جهله من مبادىء الشريعة الاسلامية[277]. وكان بطرابلس على ايام التجاني مدارس عديدة، وقد عبر عن ذلك بقوله: «بداخل البلد مدارس كثيرة»[278]. وأثنى التجاني بوجه خاص على المدرسة المنتصرية التي بناها الفقيه ابو محمد عبد الحميد بن ابي البركات بن ابي الدنيا بين عامي 555 و 558 في عهد الموحدين، وفي ولاية بني مطروح على طرابلس، وقد وصفها بقوله: «وهذه المدرسة من أحسن المدارس وضعا وأظرفها صنعا». وكانت حولها حديقة صغيرة قال في وصفها الشاعر موسى بن سعيد:

يا حبذا نسمة هبت لناسمها***الكرى سحرا من روضة الحبق

حسبتها عندما هبت – وقد نشقت***ببلة من نواها – روح منتشق

قرنفل الهند قد وافى التجاربه***محافظين على نشر له عبق

فعندما فضه الداري ذكرني***بطيبه طيب عيش مر لي أنق

ويخمن الشيخ الزاوي ان تكون هذه المدرسة هي التي وصفها ابن رشيد حين مر بطرابلس (في رحلته التي قام بها سنة 685هـ) بقوله: «وبها مدرسة حسنة الوضع، رائعة الصنع. والمدينة بجملتها حسنة البناء،

276 - ورقات 205/1 وانظر حوارا بين أسد بن الفرات وابي محرز حول حل النبيذ في مجلس زيادة الله بن ابراهيم . المرجع 185/2

277 - دبوز 396/3

278 - ص252

متسعة الشوارع.. اجتزت تلك الليلة.. بشارعها الأكبر ولم أكن عرفت المدرسة فنفحني نسيم عاطر.. فأقدمت على الدخول فوافيت وسطها روضة مخضلة من خدي احمر، قد استوى على سوقه، وناجى بعضه بعضا في بسوقه»[279].

ومن المدارس التي اشتهرت في مناطق الأباضيين بجبل نفوسة:

أ - مدرسة عمر بن يَمْكتن في قرية «إيفاطمان» التي عدت اول مدرسة في الإقليم لتعليم القرآن الكريم، وكان إنشاؤها في القرن الثاني الهجري[280].

ب - مدرسة ابي يحي سليمان بن ماطوس من علماء النصف الاول من القرن الرابع، وكانت من أعظم المدارس التي نشرت العلم في جميع الربوع وورد إليها الطلاب من كل مكان[281].

ج - مدرسة ابي هارون موسى بن يونس الجلالمي من علماء القرن الرابع. وقد كان يجمع الاموال للإنفاق على مدرسته واستضافة ابناء السبيل وانفاق على الأقسام الداخلية التي يؤمها الطلاب من أماكن نائية[282].

د - مدرسة ابي يحي زكريا بن ابراهيم الباروني وقد كان الباروني في سعة من العيش وبسطة في المال مما مكنه من أن يفيض على جميع الجبل وكان ينفق على الأقسام الداخلية في مدرسته العامرة التي تشتمل على عدد من الطلاب يتراوح بين 50 و 100 طالب[283].

هـ - مدرسة ابي المنيب محمد بن يانس (من أعلام القرن الثاني) التي

279 - التجاني ص251 ، 252 والزاوي : معجم البلدان ص304 ، 305
280 - سير الشماخي ص142 ، والأباضية في موكب التاريخ 39/2 ، 40
281 - الأباضية في موكب التاريخ 157/2 ، 158
282 - المرجع 161/2
283 - المرجع 197/2 ، 198

أشاعت العلم إلى القرن الحادي عشر، وكان لها مجموعة من الفروع في مختلف القرى والمدن ويقال انه كان لابن يانس سبعة مساجد، بعضها في الجبل وبعضها في السهل ولا تفوته الصلاة في كل واحد منها.

و - مدرسة ابي عثمان سعد بن ابي يونس الطمزيني التي امتد نشاطها حتى القرن الثامن الهجري[284].

ز - كما كان هناك مدارس لتعليم البنات، ومنها مدرسة في «أمسين» وكان بها قسم داخلي تأوي اليه الفتيات البعيدات، وقسم خارجي تحضر اليه الفتيات القريبات لتلقي العلم، ثم يرجعن إلى أهلهن[285].

ح - وبعض المدارس كانت مختلطة تحضر فيها الفتاة إلى جانب الفتى، مثل مدرسة ابي محمد خصيب بن ابراهيم من قرية «تمصمص». ففي مدرسته درست ام ماطوس وهي اول فتاة ليبية تشترك في مدرسة للفتيان، وكانت تأتي إلى هذه المدرسة من قريتها كل يوم[286].

5 - لقاء الاساتذة الزائرين الذين يمرون بليبيا لأغراض مختلفة، قد تكون تبادل الأفكار والمعلومات، وقد تكون الذهاب إلى الحج من بلاد المغرب، أو العودة منه، وقد تكون تولي احد المناصب في ليبيا او غيرها، ومن هؤلاء الاساتذة:

ا - محمد بن عيسى البياني الذي مر بطرابلس وبرقة عامي 332 و 338 فكتب عنه الطلاب[287].

ب - الفقيه ابو الحسين محمد بن ابراهيم الأندلسي الذي اجتاز على

284 - سير الشماخي ص170 ، وقناطر الخيرات هامش رقم 1 ص161 والأباضية في موكب التاريخ 64/3 ، 65
285 - الأباضية في موكب التاريخ 58/3
286 - قناطر الخيرات هامش رقم 2 ص90
287 - إحسان عباس : تاريخ ليبيا ص106

طرابلس قافلا من الحج فقرأ عليه الطلبة بعض تواليفه في العربية، وسمعوا شيئا من نظمه، ورووا عنه «المذهبة» لابن المناصف.

ج - الفقيه ابو محمد عبد الله بن عبد الكريم الغماري، الذي اجتاز على طرابلس من المغرب قاصدا إلى المشرق عام 654، فطالت إقامته بطرابلس، فقرأ عليه الطلاب كتابه الذي الفه في الفرائض، وكتاب الكافي لابن المنمر في الفرائض، وغير ذلك، واجتاز مرة اخرى على طرابلس قاضيا فقرأ عليه الطلبة بعض الكتب.

د - الفقيه ابو العباس الأعجمي الذي ورد من المشرق على مدينة طرابلس عام 662 قاصدا المغرب[288].

هـ - القاضي ابوبكر بن العربي الذي نزل ببرقة هو وابوه حين غرقت سفينتهم ونجوا على الساحل، فوجدوا هناك بني كعب فنزلوا عليهم واكرمهم شيخهم[289].

و - ابن منظور اللغوي المشهور، ومؤلف «لسان العرب»، اذا رجحنا ما يقال عنه من انه غير ليبي، وانه استقر في ليبيا بعض الوقت حين ولي قضاء طرابلس وسنزيد هذه القضية تفصيلا فيما بعد.

ولكثرة مرور الأساتذة بليبيا في اسفارهم اغنوا الليبيين عن الرحلة وتجشم عناء السفر في طلب العلم. فنجد من بينهم من نبغ واشتهر دون ان تعرف له رحلة مثل عبد العزيز بن عبد العظيم بن عبيد وابي اسحاق ابراهيم بن اسماعيل الاجدابي كما سنتحدث في الباب الثاني ان شاء الله.

وقد بالغ بعضهم في تقدير قيمة هؤلاء الاساتذة حتى قال «إن طرابلس

288 - التجاني ص257 - 261

289 - ابن خلدون مقتبس في احسان عباس : ليبيا في كتب التاريخ والسير ص123

كانت تعتمد في ثقافتها على من يفد عليها من الحجاج وطلاب العلم مشرقين ومغربين، وعلى من يستصحبهم امراء افريقية في طريقهم إلى الحج من أهل العلم والفضل»[290].

6 - أما من لم تكن مواردهم المالية تسمح لهم بالاستمرار في الدراسة والبحث وطلب العلم فكانت تقدم لهم مساعدات مادية كثيرة:

أ- إما من الحكام او الاثرياء في شكل رباطات، او زوايا[291]، أو أقسام داخلية في المساجد لإيواء الطلاب وتزويدهم بالفرش والأثاث والخدمة. ومن أشهر الرباطات التي انشئت في وقت مبكر رباط المنستير الذي أنشأه هرثمة بن أعين عام 180، في موضع بين المهدية وسوسة[292] وهو عبارة عن خمسة قصور يحيط بها سور واحد يسكنها قوم من أهل العبادة والعلم[293]. وما يزال الرباط موجودا حتى الآن في حالة طيبة[294]. ومن أشهر الزوايا زاوية اولاد سهيل التي زارها التجاني، ورأى فيها كتبا كثيرة محبسة. ومازالت هذه الزاوية مقصودة لحفظ القرآن وبها حجر كثيرة يسكنها الطلبة ولها اوقاف كثيرة يصرف ريعها على ما تحتاج اليه من إصلاح وفي مساعدة الغرباء[295]. ومن أشهرها كذلك زاوية عبد السلام الأسمر التي تعد من أشهر زوايا زليتن وتعرف بزاوية الشيخ، ومهمتها تعليم العلم وتحفيظ القرآن. وفيها

290 - ابن غلبون : التذكار ص108

291 - ذكرت دائرة المعارف الاسلامية مادة زاوية ان الزاوية المغربية كانت تشتمل على الأشياء التالية او الكثير منها : غرفة للصلاة بها محراب وضريح لأحد المرابطين او ولي من الاشراف تعلوه قبة وغرفة قصرت على تلاوة القرآن ومكتب او مدرسة لتحفيظ القرآن ثم غرف مخصصة لضيوف الزاوية والحجاج والمسافرين والطلبة

292 - أخطأ مؤلفا «الأدب المغربي» الاستاذان ابن تاويت وعفيفي فذكرا انه بني بطرابلس (ص91)

293 - معجم البلدان – مادة منستير

294 - شعيرة : الرباطات الساحلية ص236

295 - التجاني ص213 ، والزاوي : معجم البلدان ص157 ودبوز 397/3

حجر كثيرة لسكنى طلبة العلم والقرآن. وقد أسست في حياة الشيخ عبد السلام عام 900 هـ. ولها اوقاف كثيرة يصرف منها على ما تحتاج اليه من إصلاح وعلى الطلبة الغرباء والمدرسين. ونظرا لكثرة اوقافها توسع نظارها في الإنفاق على الطلبة المنتسبين إليها، خصوصا الذين بعدت ديارهم وانقطعوا فيها لطلب العلم او حفظ القرآن وقد انشئت فيها مخازن لخزن ما تغله اوقافها الكثيرة وانشئوا من زائد ريعها بيوتا وعمارات كثيرة في مدينتي زليتن وطرابلس ومن أجل شهرتها جذبت إليها الطلاب من جميع الجهات وقد سميت هذه الزاوية فيما بعد باسم المعهد الأسمري[296]. ومن الزوايا المشهورة زاوية يوسف الجعراني، وهي من زوايا مسلاتة المشهورة ومكانها بلدة القصبات عاصمة مسلاتة. وقد أسسها الشيخ يوسف الجعراني في حياته. وكان يعيش في سنة 820 هـ. وكان يقصدها الطلاب من جميع الجهات، كما كان لها أوقاف رصد ريعها على إعانة المدرسين والطلاب المحتاجين وايوائهم[297].

وفي بحث للدكتور محمد عبد الهادي شعيرة بعنوان «الرباطات الساحلية الليبية الإسلامية» ورد أن عدد القصور بين قابس وطرابلس بلغ 25 قصرا وبين طرابلس وسلوق بلغ 38 قصرا ونقل عن الإدريسي قوله: إن قصور برقة جمل لا يحيط بها التفصيل. والقصر في تصور الدكتور شعيرة لا يبعد عن الرباط كثيرا، اذ هو عبارة عن بناء ذي طابقين محصن، في وسطه صحن. وعلى هذا الصحن تشرف حجرات الدور الثاني على شكل شرفة. ويحوي القصر عادة مسجدا[298].

ب- أو من بعض الأغنياء من الأساتذة في شكل منح أو إيواء لطلابهم.

296 - الزاوي : معجم البلدان ص164،165
297 - المرجع ص167
298 - ص237 ، 247

ومن أمثلة ذلك ما روي عن الشيخ ابي زكريا بن ابراهيم الباروني الذي كان يؤثر على نفسه في نشر العلم. فقد أراد التلاميذ أن يفترقوا لجدب وبلاء وشدة لحقت بالبلد، وقالوا: أضررنا بشيخنا. ولكنه رفض أن يتخلى عنهم، وكانوا نحو ثمانين طالبا ينفق عليهم[299]. ومثل ذلك ماروي عن ابي محمد عبيدة ابن أفلح اليجلاني من أنه كان عالما سخيا يستضيف المشايخ والتلاميذ، ويسكنهم عنده، ويتولى الإنفاق عليهم. وربما مكث بعضهم عنده أربعة أشهر أو ستة أشهر، حتى قيل إنه تعلم العلم في بيته لكثرة ما يغشاه من المشايخ[300].

ج- أو في شكل تحبيس للكتب ووقفها على طلاب العلم للاستفادة منها بدون مقابل. روى الدباغ أن المعز بن باديس قد بلغه عن ابي بكر عتيق السوسي أنه فقير ولا مسكن له، فبعث اليه بمال يشتري دارا فلم يقبله. فأرسل إليه المعز كتبا في الحديث.. والفقه.. واللغة.. وغيرها وحملت على نحو عشرين حمالا. فلما وصل اليه الرسول بها خاطبه بقوله: يقول لك المعز: هذه كتب في خزانتنا ضائعة، وبقاؤها عندنا مما يزيدها ضياعا، وأنت أولى بامتلاكها للانتفاع بها، فأجابه ابوبكر: اكتبوا على كل جزء منها تحبيسها على طلبة العلم، فكتب ذلك، ووقفت على الجامع الكبير بالقيروان[301]. وقد كان في زاوية عمران بن عبد السلام الأسمر (المتوفى سنة 995 هـ) في سوق بلدة اولاد غيث نحو 500 مجلد من الكتب الثمينة موقوفة عليها[302].

299 - دبوز 401/3
300 - السير ص335
301 - ورقات 347/1
302 - الزاوي : أعلام ليبيا ص239

الباب الثاني

الإنتاج الثقافي

تمهيد

كان الإنتـاج الثقافـي فـي تلـك الفترة يـدور حـول الدراسـات العربية والإسـلامية وكان مـن النـادر أن نجد اهتماما بأي دراسـة اخرى تخرج عن هذا المجال.

ومـن أجل هذا كان من المنطقي أن نقسـم هذا البـاب إلى فصول ثلاثة على النحو التالي:

1- الدراسات الإسلامية

2- الأدب

3- الدراسات اللغوية

وسـوف نتناول في كل فصـل من هذه الفصول أهـم الانجازات التي تمت في خلال الفترة موضوع الدراسـة. وأشهر أعلام كل تخصص. وسنحاول في نفـس الوقـت أن نلتزم التسلسـل التاريخي ما أمكن حتـى تتضح الصورة، ويقف القارىء على مجهودات كل جيل على حدة.

الفصل الأول

الدراسات الإسلامية

نظرة عامة:

لعبت ليبيا دوراً هاماً في مجال الدراسات الإسلامية، ولم تقصر في هذا التخصص أدنى تقصير، كما لم تقل مجهوداتها فيه عن مجهودات أي بلد من البلاد العربية الأخرى، بل سنرى - فيما بعد - أن علماء ليبيا كانوا يستفتون أحياناً في بعض المشاكل التي تقع في بلدان عربية أخرى، وكانوا يستدعون في أحيان أخرى ليشاركوا في إفحام الخصوم أو ليقوموا بهذا الإفحام حين يعجز غيرهم عنه وكان منهم من يتولى خارج ليبيا منصب القضاء، أو غيره من مناصب الدولة الكبرى.

وقد بدأ الاهتمام بالدراسات الإسلامية في وقت مبكر، صاحب دخول الإسلام وانتشاره التدريجي في المنطقة. وأول مظهر من مظاهر هذا الإهتمام قد أتى – ولاشك- من الخارج مع الفتح العربي، أو بعده بقليل، بغية نشر الإسلام وتفقيه الناس في دينهم. وقد كانت جيوش الفتح دائماً تزخر بكبار الصحابة الذين انخرطوا في سلك الجندية، وخرجوا مجاهدين في سبيل الله، وفي نفس الوقت ناشرين دين الله، وشارحين للناس تعاليمه. وقد كان من بين من دخل بلاد المغرب من الصحابة والتابعين أعلام عرفوا برواية الحديث والفقه في الدين. ولكن كان أهم عمل في هذا الخصوص ما فعله عمر بن عبد العزيز أثناء خلافته، اذ بعث إلى افريقية بعشرة من كبار التابعين يعلمون الناس دينهم، ويشرحون لهم تعاليمه، ويبثون بينهم مبادئه. وقد تم ذلك في مطلع القرن الثاني الهجري كما سبق أن بينا.

وإذا كنا لا نتوقع أن نجد في القرن الأول الهجري علماء مواطنين من بلدان المغرب العربي اشتغلوا بالبحث الإسلامي، فإننا قد ندهش حين نعلم أنه منذ

القرن الثاني وأعلام المواطنين تظهر، وبحوثهم تزدهر، وجهودهم تتكاثر.

وحيث كان اهتمامنا موجهاً لليبيا وحدها فسنقصر أنفسنا على الأعلام الليبيين، سواء ازدهروا داخل ليبيا أو خارجها، وسواء ولدوا في ليبيا أو استوطنوها واتخذوها لهم مقاماً.

ونحب قبل ان نعرض لأولئك الأعلام وأهم جهودهم أن نلفت النظر إلى حقيقة هامة أخصبت الدرس الإسلامي في ليبيا، ألا وهي موقعها المتوسط بين الشرق والغرب (بما في ذلك بلاد الأندلس)، وكثرة مرور العلماء بها مشرقين أو مغربين وقد أعطى هذا فرصة لليبيين أن يلتقوا بأعلام العلماء دون رحلة ودون أن يخل ذلك بثقافتهم أو ينقصهم من علمهم شيئا.

ومن أشهر العلماء الذين مروا بليبيا وألقوا دروسهم فيها - بالإضافة إلى من سبق ذكرهم في الفصل الرابع من الباب الأول - الإمام سحنون بن سعيد ابن حبيب التنوخي الذي انتشر مذهب الإمام مالك بالمغرب على يديه، وبمدونته حظ مذهبه في افريقية. وقد ولي سحنون منصب القضاء بالمغرب دون أن يتلقى عليه أجراً، وبقي فيه ست سنوات إلى أن مات سنة 240. وكان قدومه إلى افريقية سنة 191. ويبدو أنه نزل أول مانزل بمدينة «أجدابية»؛ فقد ذكر حمديس القطان أنه سمع سحنون بن سعيد يقول: «سمع مني العلم سنة إحدى وتسعين ومائة أهل اجدابية»[1]. ثم انتقل بعد ذلك إلى طرابلس فاتخذها مقاما له فترة من الزمن. وقد كان سحنون شديد الإعجاب بتلاميذه فخورا بهم، كثير الثناء عليهم؛ فقد حدث أبو العرب قال: أخبرني جبلة ابن حمود الصدفي، قال: سمعت سحنون بن سعيد يقول: «كان بإفريقية رجال عدول بعضهم بالقيروان وتونس وطرابلس..». وذكر من فضلهم، وما رأى منهم فقال: «لو قرنوا إلى مالك بن دينار[2] لساووه[3] ». وسئل سحنون لما رجع لإفريقية عن الصالحين فقال: رأيت رجالا ما الفضيل

1- أبو العرب : طبقات ص 186 . ونجد ترجمة سحنون في نفس المرجع ص 184-187.
2- عالم محدث مات بالبصرة سنة 130 اخذ العلم عن انس بن مالك وسعيد بن جبير وعطاء بن ابي الأحنف وغيرهم (هامش رقم 2 ابو العرب : طبقات ص 54)
3- المرجع ص 54

بن عياض[4] أفضل منهم[5] .

ومن أولئك الذين نزلوا بليبيا شمس الدين اللقاني المصري الذي درس في زاوية الزروق بمصراتة فترة من الزمن عاد بعدها إلى بلده لقانة بمصر ومات بها عام 935هـ[6].

وقد غذى من الحركة الدينية في ليبيا وجود عديد من المذاهب الفقهية والكلامية وانتشارها في بلدان المغرب وأشهر هذه المذاهب الخوارج والأباضية والمعتزلة إلى جانب مذهب أهل السنة ثم الشيعة الذين قوي نفوذهم مع قيام دولة الفاطميين والى جانب هؤلاء واولئك وجد مذهبا الإمامين مالك وأبي حنيفة ولكل منهما منهجة الخاص في البحث وطريقته في التناول وقد سبق أن عرضنا لهذه المذاهب والنحل وكيفية دخولها ليبيا والمغرب وأسباب انتشارها.

وكانت حرية البحث والنقاش مكفولة في أحيان كثيرة لأصحاب هذه المذاهب كل يدافع عن مبدئه ويؤيد نحلته ويرد شبهات الخصوم عنها وكثيرا ما كان الحكام يغذون من هذه المناقشات ويحضرونها بأنفسهم ويشاركون فيها ويتعصبون لفريق دون آخر. وتحضرنا في هذه المناسبة مناظرات الحداد في مجلس أمراء الأغالبة وقد سبقت الإشارة إليها. كما تحضرنا مناظرات مهدي النفوس للمعتزلة باستدعاء من الإمام الرستمي عبد الوهاب. وقد سبق ذكر أطراف منها[7].

فإذا أردنا أن نستعرض أسماء العلماء الليبيين على امتداد تسعة قرون من الهجرة وجدناهم يجلون عن الحصر ووجدنا إنتاجهم كثيراً. ولهذا سنكتفي بعرض أشهر أعلامهم، وأهم إنتاجهم مراعين الترتيب الزمني - ما أمكن - ووضع علماء كل قرن على حدة بادئين بالقرن الثاني ومنتهين بالقرن العاشر الهجري.

4 - ولد الفضيل بن عياض بسمرقند ومات بمكة سنة 187 وكان ثقة فاضلا عابدا قال عنه هارون الرشيد : ما رأيت من العلماء أروع من الفضيل (التذكار ص 222 مع هامش المحقق)
5 - التذكار لابن غلبون ص 222
6 - أعلام ليبيا للزاوي ص 256
7 - انظر فصل : انتشار الإسلام في المنطقة

القرن الثاني:

أعلام هذا القرن قليلون فمنهم:

1- سعيد بن عباس السرتي وهو ممن سكنوا تونس واشتغلوا برواية الحديث وإن ضعفه بعضهم وأكثر الرواية عن أبي البختري وهب بن وهب (مات ببغداد سنة 200 هـ)[8].

2- أبو الحسن علي بن زياد المتوفى سنة 183 [9]. قال أبو العرب عنه: حدثني جبلة بن حمود قال سمعت سحنون بن سعيد يسأل شرحبيل قاضي طرابلس عن أصل علي بن زياد فقال: «كشفنا عن أصله فإذا هو من العجم وكان أوله من طرابلس ثم سكن مدينة تونس». وقد وصف أبو العرب علي ابن زياد بأنه ثقة مأمون فقيه متعبد بارع في الفقه وقال إنه سمع عن مالك ابن أنس وسفيان الثوري والليث بن سعد وابن لهيعة وغيرهم.. وذكر أنه لم يكن بإفريقية في عصره مثله وأنه كان خير أهل افريقية في الضبط للعلم وقد قرأ عليه البهلول بن راشد وسحنون وأسد بن الفرات وكان الأخير يقول: إني لأدعو الله لعلي بن زياد مع والدي لأنه أول من تعلمت منه العلم ولم يكن سحنون يقدم عليه أحدا من أهل افريقية[10].

3- أبو سليمان محمد بن معاوية الحضرمي الطرابلسي من أصحاب الإمام مالك بن أنس قال عنه في رياض النفوس: مشهور ثقة سمع من مالك بن أنس موطأه وغيره[11].

أما الأباضيون فمنهم:

4-عمر بن يمكتن الذي كان يعيش في اوائل الدولة العباسية في حدود سنة 140هـ[12]. ويذكر الشماخي[13] أنه أول من علم القرآن بجبل نفوسة، علمه بمنزل يقال له ايفاطمان ويروى ان عمر بن يمكتن قد تعلم القرآن بطريق

8 - ابو العرب : طبقات ص 160
9 - ذكر الزاوي في « أعلام ليبيا» وقال إنه لم يطلع على وفاته (ص 207)
10- ابو العرب : طبقات ص 220 – 223 ونفحات النسرين ص 66
11- نفحات النسرين ص 65 ، 66
12- ورقات 81/1
13- السير ص 142 ، 143

مُقمداس[14]. يتلقى فيها السابلة والمارة من المشرق فيكتب عنهم لوحه من القرآن وينصرف فإذا حفظه رجع إلى الحجة فيكتب عن المارة والرفاق كذلك حتى حفظ القرآن وتعلم العلم.. وذلك لحرصه على طلب العلم والقرآن في أول الإسلام وقلة المعلمين في البلدان.

5- محمد بن عبد الحميد بن مغطير النفوسي الجناوني. وقد سافر إلى أبي عبيدة[15] ورجع قبل وفود الاربعة (أو الخمسة) الآخرين عليه أي قبل عام 135هـ. ويقال إنه أول من جمع القرآن كله في جبل نفوسة وحفظه[16]. وقد قال عنه الشماخي: كان شيخا فاضلا فقيها مفتيا.. وكان محل ثقة أمير المؤمنين عبد الوهاب بن عبد الرحمن وحين كان الأمير بجبل نفوسة أختصم عنده رجلان فلم يسمح لنفسه بالفصل بينهما، وانما ردهما إلى ابن مغطير[17].

6- إسماعيل بن ضرار (أو درار) الغدامسي. وهو احد الذين ذهبوا إلى البصرة وتتلمذوا على أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة وقد مكث إسماعيل مع استاذه خمسة أعوام وحين نوى مفارقته أخذ يسأله عن مسائل في الأحكام بلغت 300 مسألة حتى قال له أبو عبيدة: اتريد أن تكون قاضيا يا ابن درار فأجابه: أرأيت إن ابتليت بذلك[18].

7- نفاث بن نر النفوسي ولم يكن على وفاق مع الائمة الرستميين وبخاصة الإمام أفلح بن عبد الوهاب (تولى عام 190). ولذا ترك المغرب

14- هكذا كتبها وضبطها حسن حسني عبد الوهاب (ورقات 80/1) ولم يرد لها ذكر في معجم البلدان الليبية وانما ورد «مغمداس» بالغين وهي مكان بأرض سرت (ص 33) فلعل «مقمداس» تحريف عن مغمداس .
15- هو ابو عبيدة مسلم بن ابي كريمة اعتبره الدرجيني في طبقات الأباضية من اعلام الطبقة الثالثة اما رجال الطبقة الاولى فهم اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم واما رجال الطبقة الثانية فمنهم جابر بن زيد وعبد الله بن أباض وابو بلال مرداس وكتاب الطبقات مقسم إلى اثنتى عشرة طبقة كل طبقة تشمل تراجم خمسين سنة وقد وصف الدرجيني ابا عبيدة بقوله :» كبير تلامذة جابر، وممن حسنت اخباره وحافظ في خفية على الدين حتى ظهر على يد الخمسة النفر الميامين « يعني بهم تلامذته الذين حملوا دعوته ونشروها في الخارج (انظر الطبقات ورقة 102)
16- دبوز 188/3 ، 189
17- السير ص 143 ، 144 والأباضية لمعمر 27،28/1
18- السير للشماخي ص 124 ، 142

وذهب إلى العراق وأقام ببغداد ويحكي الباروني أنه أثناء إقامته ببغداد طرأت على السلطان مسألة علمية أشكل عليه فيها الأمر وعجز علماؤه عن حلها فامر أن ينادى في الأسواق بأن كل من أجاب عنها بجواب مقنع فله ما يسأله من السلطان. وسمع نفاث هذا النداء وذهب إلى السلطان وقابله وأجابه بأحسن جواب فاعجب به السلطان وأخذ يستشيره في مسائل اخرى معضلة وذلك في مجلس حافل بالعلماء والفقهاء والأدباء وذوي الوجاهة[19].

8- أبو داود القبلي. وهو من أكابر علماء هذا القرن ومن حملة العلم الخمسة عن أبي عبيدة وعندما رجع من العراق اشتغل بالتدريس وكان الإمام عبد الوهاب على غزارة علمه يجلس بين يديه كالتلميذ الصغير أمام استاذه وعنه أخذ كثيرا من علمه[20].

ويبدو ان اهتمام أباضية جبل نفوسة بالدراسات الإسلامية كان يفوق اهتمام غيرهم. فقد روى أنه اجتمع في «اجناون» (قرية في سفح جبل جادو) سبعون عالماً أيام أبي عبيدة عبد الحميد الجناوني والى الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم على الجبل[21]. بل أكثر من هذا فقد لجأ الإمام عبد الوهاب - حين ضايقه جماعة الواصلية بتاهرت - إلى جبل نفوسة وطلب من علمائه العون كما سبق ان ذكرنا[22].

فإذا انتقلنا إلى القرنين الثالث والرابع نجد نهضة علمية شاملة، وأعداداً كبيرة من المتخصصين في مختلف الفروع الإسلامية. وهي نفس الظاهرة التي نجدها في سائر البلدان الإسلامية. وسنتناول كل قرن على حدة كما سبق أن وعدنا.

القرن الثالث:

من العلماء الأعلام في هذا القرن:

19- الأزهار الرياضية 195/2 ، 196 ، 206 ، 207

20- هامش رقم 3 ص 166 من قناطر الخيرات

21- دبوز 381/3

22- فصل انتشار الإسلام في المنطقة

1- عبد الله الشعاب المتوفى سنة 243هـ. ولد بطرابلس ونشأ بها وأخذ عنه جماعة من الفضلاء. وكان رحمه الله من كبار الصوفية واحد الزهاد الورعين كان تجارا لا يأكل الا من كسب يده وتنسب إليه كرامات كثيرة. ومازال ضريحه معروفا يقصد للزيارة. وفي طرابلس مسجد يعرف بمسجد الشعاب نسب إليه لأنه هو الذي أتمه ولزم السكنى فيه وكان بعض الناس قبله قد بدأ بناءه ثم توقف[23].

2- إبراهيم بن عبد الرحمن بن العاصي البرقي المتوفي سنة 245هـ. قال ابن فرحون عنه: كان صاحب حلقة أصبغ وكان معدودا في فقهاء مصر يروى عن أشهب وابن وهب استوطن مصر وأخذ الناس عنه بمصر كثيراً[24].

3- إبراهيم بن حماد المتوفي بمصر سنة 245هـ. ممن اشتغلوا بالحديث النبوي وكان من أصحاب ابن وهب وقد حدث عنه وعن أشهب بن عبد العزيز[25].

4- محمد بن عبد الله بن عبد الرحيم بن أبي زرعة البرقي المتوفى سنة 249هـ. قال ابن فرحون: وبيته بمصر بيت علم وله تأليف في مختصر ابن عبد الحكم الصغير وزاد فيه اختلاف فقهاء الامصار وكتاب في التاريخ وفي الطبقات وفي رجال الموطأ وفي غريبه. يروى عن أشهب وابن بكير واصبغ وغيرهم[26].

5- أبو الحسن أحمد بن عبد الله بن صالح بن مسلم العجلي المتوفي سنة 261هـ. كوفي الأصل نشأ ببغداد وكان حافظا دينا صالحا انتقل إلى بلاد المغرب فسكن طرابلس وانتشر حديثه هناك كان يشبه بأحمد بن حنبل. وكان خروجه إلى المغرب أيام محنة أحمد بن حنبل ومات وله من العمر 79 سنة[27].

6- أبو حفص عبد الجبار بن خالد بن عمران السرتي المتوفى سنة

23- نفحات النسرين ص 67-69.

24- الزاوي : أعلام ص 8.

25- المرجع ص 6.

26- الزاوي : أعلام ص 282 والمنهل العذب 51/2 ، 52

27- الأنساب للسمعاني ، مقتبس في : ليبيا في كتب التاريخ والسير ص 14

281هـ. كان فقيها فاضلا زاهدا ثقة. سمع من سحنون وغيره وكان سحنون يقول عنه: عبد الجبار تقي في بطن امه يريد انه تقي من صغره كان يختم القرآن مرة كل ليلة وختم في مسجدة ثلاثين الف ختمة و كان ينبه بكلام قليل له معنى كثير كقوله: «من قل كلامه قلت آثامه» و «الصوم عن الكلام أفضل من الصوم عن الطعام» و «من زم لسانه كثر في الدنيا والآخره أمانه» و « من كانت له وليه لم يعدم بليه»[28].

7- عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحيم المتوفى سنة 291هـ. قال عنه ابن فرحون: روى عن أبيه وله مختصر في مذهب الإمام مالك. وبعض الناس يضيف إليه زيادة كتاب «اختلاف فقهاء الأمصار في مختصر ابن عبد الحكم»[29].

8- أبو الأسود موسى بن عبد الرحمن بن حبيب القطان الطرابلسي المتوفى سنة 306هـ وله احدى وسبعون سنة. سمع من محمد بن سحنون وكان ثقة فقيها حافظا من الفقهاء المعدودين والأئمة المشهورين. وكان يحسن الكلام في الفقه على مذهب الإمام مالك ولى قضاء طرابلس مدة ثم عزل وسجن لوشاية ولم يطل حبسه فأطلقه الوالي بعد أشهر وكان سبب إطلاقه فتواه حين سئل عن رجل اشترى حوتا فوجد في بطنه آخر فأفتى ان كان الشراء بالوزن فهو للمشتري وان كان على الجزاف فهو للبائع فقال الوالي: مثل هذا لا يسجن وأطلق سراحه الف «أحكام القرآن» في اثنى عشر جزءاً. وقد ذهب إلى مصر فكان إعجاب المصريين به كبيراً[30].

9- أبو الفضل العباس بن محمد محمد الصواف الغدامسي المتوفى سنة 309 هـ. اجتمع فيه فيه ماتفرق في غيره من الأوصاف الجميلة قال صاحب رياض النفوس: سئل رحمه الله عن السنة التي سكن فيها المنستير فقال: قدمت من غدامس إلى افريقية سنة 286هـ وقد سألت ربي أن ينزع

28- المنهل العذب 1/85-91
29- الزاوي : اعلام ص 193 . 194
30- الديباج المذهب ص 342 . 343 ونفحات النسرين ص 75 . 76

عن قلبي حب غدامس فنزعه وكان حين توفي يبلغ السادسة والتسعين[31].

10- أبو محمد عبد الله إسماعيل البرقي المتوفي سنة 317هـ. كان يختم القرآن كل يوم ختمة وهو صائم والمصحف في حجره قال في رياض النفوس: من أهل الفقه والأدب وغلب عليه آخر أيامه الورع وتوفي وله أربعون سنة[32].

وفي هذا القرن من أعلام الأباضية:

11- أبو خليل صال الدركلي نسبة إلى دركل بجبل نفوسة. اخذ العلم عن محمد بن يانس عن حملة العلم عن أبي عبيدة عن جابر بن زيد وضعه الدرجيني في الطبقة الخامسة وقد توفي وله من العمر 100 سنة[33].

12- أبو الربيع سليمان بن هارون اللالوتي نسبة إلى لالوت بلد العلم والأشياخ، وهي أكبر قرى جبل نفوسة وما حوله، وكانت في هذا الوقت عامرة بالأباضية تخرج على يديه أعلام العلماء وأنشأ أجيالاً. وقد قتل في احدى رحلاته وله من العمر سبع وعشرون سنة بعد أن طبقت شهرته الآفاق وملأت أقواله كتب الفقه وله ديوان مشتمل على أنواع من علوم الدين واشتغل بالتدريس في سجلماسة وقسطيلية. قال عنه الدرجيني «وبلغني ان أهل سجلماسة بعد أن انفصل أبو الربيع عنهم اختلفوا في مسألة حتى تفاقم الأمر بينهم وكادوا يقتتلون، فرضوا بأن يوجهوا رسولين بسؤالهم عن المسألة المذكورة إلى أبي الربيع فما أجاب به فيها وقفوا وعملوا به»[34].

13- أبو عبيدة عبد الحميد الجناوني عامل الدولة الرستمية على طرابلس. وكان يجمع إلى غزارة علمه وسعة اطلاعه صلابة في الدين كان له مسجد مشهور قيل انه اجتمع به سبعون عالما من اكابر علماء قرية

31- الزاوي : أعلام ص 146-148
32- المرجع ص 188 . 189
33- قناطر الخيرات هامش رقم 2 ص 161
34- الطبقات ورقة 49 . وهامش رقم 4 ص 90 قناطر الخيرات

جناون[35].

14- أبو ذر أبان بن وسيم، من علماء النصف الأول من هذا القرن. كان عاملاً للإمام أفلح على طرابلس وكان يلقي دروسه على تلامذته في مدرسته العامرة[36].

15- مهدي النفوس المقدم في علم الجدل، والذي له اليد العليا في البرهان والاستدلال وقد كان احد من صدوا مكايد نفاث بن نصر النفوسي الذي كان يثير الفتن ويلقي المسائل العويصة لكي يشكك العامة[37]. وقد سبق الحديث عن مهدي هذا ومناظراته في مستهل هذا الفصل.

16- عمروس بن فتح النفوسي الذي ترك مؤلفات في الفروع والعقائد. وقد بعث إليه عبد الخالق الفزاني من الأشياخ المتكلمين أن يؤلف له كتابا في الأصول فكتب إليه الكتاب المعروف بالعمروسي وكتب إليه رسالة. فلما اطلع عليه الفزاني - وهو الذي وضع كتابين باسم «اصول الكلام» قال: «النفوسي أقوى مني». وقد وضع تصميماً لتأليف موسوعة علمية يبين فيها الأحكام التي استخرجت من الكتاب، والأحكام التي استخرجت من السنة والأحكام التي استخرجت من الإجماع والأحكام التي استخرجت من القياس ولكن المنية عاجلته قبل ان ينجزه. ولما وفد أبو غانم بشر بن غانم الخراساني على الإمام عبد الوهاب ومعه مدونته المشهورة في الفقه التي رواها عن تلامذة أبي عبيدة وجاز على جبل نفوسة استودع عمروسا نسخة منها وقد تفرغ عمروس هو وأخته ليل نهار وهي تقع في اثنى عشر جزءاً. ولما وقع ما وقع بتيهرت وأحرقت كتبها بقيت نسخة عمروس[38]. ينتفع بها الأباضية ولولاها لبقي أهل المذهب من غير ديوان بالمغرب يعتمدون عليه وقد أشترك في معركة مانو[39] عام 283هـ بين إبراهيم بن الأغلب ونفوسة وأخذ

35- معمر 89/1 ، وهامش رقم 2 ص 22 قناطر الخيرات
36- معمر 114/1
37- السير للشماخي ص 170
38- السير للشماخي ص 228 ، 229 والازهار الرياضية 252/2 وعمر : الأباضية في موكب التاريخ 139/1
39- قصر كبير بين قابس وطرابلس (قناطر الخيرات هامش رقم 1 ص 49)

أسيراً، ومات تعذيباً في نفس السنة[40].

17- أبو عبيدة الأعرج الذي اشتهر في عهد محمد بن أفلح (بويع محمد ابن أفلح عام 241هـ) وكان علمه بالفقه والكلام والوثائق واللغة. وكان التلاميذ يقرءون عليه من ضمن ما يقرءون «إصلاح اللغة» لعبد الله بن مسلم بن قتيبة[41].

القرن الرابع:

أشهر علماء هذا القرن:

1- أبو عثمان سعيد بن خلفون الخشاني (أو الحساني) المتوفي سنة 362هـ كان عابداً ورعاً زاهدا من أكابر الصوفية حاويا للعلوم الدينية والمعارف القدسية اجتمع بكثير من الأولياء وأخذ عنهم وكان يسكن في المسجد المنسوب إليه بطرابلس وله كرامات كثيرة تروى عنه وقد لقبه الناس «بالمستجاب»[42].

2- سمدونة وكانت معاصرة لأبي عثمان السابق كانت عجوزا صالحة تسكن مسجد الشعاب وكان أبو نزار خطاب البرقي يزورها ويعتقد في بركتها وقد زار احد الفضلاء طرابلس وقال حين سئل: من رأيت في طريقك من الصلحاء: رأيت في طرابلس رجلا وامرأة. أما الرجل فأبو عثمان سعيد الخشاني وأما المرأة فسمدونة؛ ما الفضيل بن عياض بأفضل منهما[43].

3- أبو الحسين على بن أحمد بن زكريا بن الخطيب المعروف بابن زكرون الطرابلسي المتوفى سنة 370هـ. كان فقيهاً محدثاً ناسكاً زاهداً، انتفع به أهل طرابلس في الفقه والحديث والنسك والرقائق، وقد صحب جماعة من النساك. له تآليف كثيرة في الفقه والشروط والفرائض. أقام خمسين سنة لم يحلف بالله لا صدقاً ولا كذباً وكان يسكن بمسجد المجاز بمدينة

40- المرجع والصفحة
41- الأزهار الرياضية 244/2
42- نفحات النسرين ص 79-81 والمنهل العذب 102/1 وانظر ما سبق ص 107.
43- نفحات النسرين ص 81.

طرابلس[44].

4- أبو نزار خطاب البرقي المتوفى سنة 373هـ. كانت تغلب عليه النزعة الصوفية ولذا صاحب العارفين من أهل زمانه واخذ عنهم كان يسكن الجامع الذي بخارج المدينة من جهة شرقيها في البحر وله كرامات خارقة وحوادث تدل على جلال قدره[45].

5- أبو جعفر أحمد بن أبي عبد الله محمد بن خالد بن عبد الرحمن المتوفى سنة 376هـ. من فقهاء الشيعة، وأصله من الكوفة ثم سافر به جده إلى برقة وهو ولد ونشأ وعاش بها إلى ان توفي. وقد ورد له في «هدية العارفين» عشرات من الكتب التي ألفها ونختار من بينها ما يأتي: اختلاف الحديث - بنات النبي وازواجه - تفسير الأحاديث والأحكام - ثواب القرآن - طبقات الرجال - مغازي النبي - مكارم الأخلاق. هذا إلى جانب مجموعة من الرسائل اللغوية والأدبية وديوان شعر له[46].

6- أبو عبد الله محمد بن حسن الزويلي السرتي المتوفى سنة 383هـ. رحل إلى كل من المشرق والمغرب للدراسة وكان من أهل العلم والقرآن والفرائض. وقد كان يجلس في مؤخر الجامع ويجتمع إليه الناس ويفتي في المسائل. وتوفي وله من العمر 85 سنة[47].

7- أبو جعفر أحمد بن خلف الأجدابي المتوفى سنة 381هـ. كان ذا فقه بارع، وجدل، وأدب، وكرم نفس، وطلاقة وجه، وجميل خلائق محببا في الناس مع تهذيب[48].

8- محمد بن الحسن بن أبي الدسبي (أو الدبسي) الطرابلسي. كان موجوداً عام 369هـ. قال عنه ابن حجر: من طرابلس الغرب. كان قاضيها

44- الزاوي : أعلام ص 205 ، والمنهل العذب 53/2 ، 69 وفي التيجاني : الخصيب بدل الخطيب ص 251
45- نفحات النسرين ص 78 ، 79
46- هدية العارفين لإسماعيل باشا البغدادي . مقتبس في : ليبيا في كتب التاريخ والسير ص 315
47- المنهل العذب 104/1
48- المرجع 108/1

فاستدعاه الوزير يعقوب بن كلس فأمره بالنظر في الأحكام وفوض إليه قضاء دمياط وبلبيس والفرما وغيرها[49].

9- أبو عبد الله محمد بن يحي الأجدابي المتوفي في أواخر القرن الرابع. حدث محمد بن هنتون قال: مضيت إلى الحج فمررت بأجدابية، فلقيت الأجدابي هذا، وكان من أصحاب أبي إسحاق بن سفيان الفقيه، وكان ذلك سنة 382هـ[50].

10- أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي المتوفي سنة 402 هـ. كان من أئمة المالكية بالمغرب، وأملى بطرابلس كتابه في شرح الموطأ المسمى «بالنامي». وله كذلك «الواعي» في الفقه، و«النصيحة» في شرح البخاري، و«الإيضاح في الرد على القدرية[51] »، وغير ذلك. ومن كتبه التي وصلتنا كتاب «الأموال» في أحكام اموال الغنائم والأراضي التي يتغلب عليها المسلمون، ويوجد بالأسكوريال نسخة مخطوطة منه كتبت سنة 677هـ بخط أندلسي واضح، وعنها صورت نسخة معهد المخطوطات بالقاهرة. وتقع المخطوطة في 55 ورقة[52]. كذلك وصلنا كتابه «النامي» وتوجد منه نسخة بمكتبة القرويين بفاس، وكتابه «الأسئلة والأجوبة» في الفقه. وتوجد منه نسخة بالمكتبة الزيتونية بتونس[53].

11- أبو الحسن علي بن محمد بن المنمر الطرابلسي[54]، قال عنه التجاني: «الشيخ الفقيه الفرضي المشهور بفضله وعلمه ورياسته»[55]. كان ميلاده بطرابلس سنة 348، ولقي الشيوخ وقرأ عليهم. ثم ارتحل إلى مكة 389... فزج بنفسه في حلقات أهل الفكر والأدب ورواة الشعر، ولقي الشاعر الأديب أحمد بن زريق البغدادي.. وقديما قيل: من قرأ لأبي عمرو، وحفظ قصيدة ابن

49- نفحات النسرين ص 98 واعلام ليبيا ص 270
50- المنهل العذب 97/2 واعلام ليبيا ص 306 ، 307
51- في نفحات النسرين : في الرد على الفكرية ، والتصويت من الديباج المذهب
52- الديباج المذهب ص 35 ونفحات النسرين ص 70 وفهرس معهد احياء المخطوطات – فقه مالكي.
53- فؤاد سزكين : Geschichte ص 482.
54- له ترجمة وافية في المصراتي : أعلام من طرابلس ص 19-29.
55- الرحلة ص 265.

زريق فقد استكمل الظرف[56]. ثم عاد إلى طرابلس، فلم يزل بها حتى سنة 430، ثم خرج منها لمحنة جرت عليه فتوجه إلى موضع يعرف بغنيمة أو غانمية، قرية من قرى مسلاتة سكن بها إلى ان مات هناك سنة 432. وكان قبره معروفا حتى عصر التجاني.

وهو أول من أظهر السنة بطرابلس بعد الوقعة الشهيرة المعروفة بوقعة المشارقة سنة 407، التي قتل فيها من الشيعة وأتباعهم خلق كثير، وأمر بقطع «حي على خير العمل» من الاذان، وأذن في ذلك اليوم أذان أهل السنة بنفسه. وهو أول من أقام بطرابلس صلاة القيام، وقد كان رسمها انمحى من افريقية على يد الفاطميين. وهو أول من أطلق للناس صلاة الضحى جهاراً، ولم يكن أحد مدة الفاطميين يصليها الا مستخفياً[57].

وقد أوذي أبو الحسن آخر أيامه لاشتراكه في خلافات سياسية بين بني خزرون، وكان مصيره النفي من البلد واستباحة جميع أملاكه وتعذيب الكثير من أقاربه.

له تأليف في الحساب والأزمنة، سوى كتابه المشهور الذي يعرف باسم «الكافي في الفرائض»[58] والذي يعد عمدة في فنه ومرجعاً في بابه[59].

أما علماء الأباضية في هذا القرن فمن أشهرهم:

12-أبو يحي سليمان بن ماطوس، وهو من علماء النصف الأول من هذا القرن، وكانت مدرسته من أعظم المدارس التي نشرت العلم في جميع الربوع، وورد إليها الطلاب من كل مكان[60].

13- أبو هارون موسى بن يونس الجلالمي. درس على أبي القاسم

56- المرجع والصفحة وأعلام من طرابلس ص 21.
57- التجاني ص 265 ، 266
58- المرجع ص 265 ، ونفحات النسرين ص 88-90
59- - يقول الاستاذ المصراتي : إنه في القرن الثامن الهجري عندما أجتاز على طرابلس من الغرب الفقيه ابو محمد عبد الله بن عبد الكريم الغماري قاصدا المشرق سنة 754هـ درس عليه الطلاب بطرابلس كتاب الكافي هذا واستنتج من وجود هذا الكتاب حتى القرن السابع وما بعده وقراءة علماء المغرب له قراءة درس أنه كتاب ذو قيمة كبيرة وأن تلامذة ابن المنمر كانوا شديدي الحرص على بقاء كتبه وحفظها من الضياع (أعلام من طرابلس ص 28)
60- معمر 157/1

البغطوري، وبرع في الأصول والمنطق والرياضيات، واهتم بمثل ما اهتم به صديقه ابن ماطوس من نشر العلم، وأسس مدرسة عظيمة. وكان أبو هارون يجمع الأموال للإنفاق على مدرسته واستضافة أبناء السبيل، والصرف على الأقسام الداخلية[61].

14- أبو عبيدة البغطوري نسبة إلى بغطورة من قرى نفوسة. وكان من أواخر علماء القرن الرابع الهجري. كان عالماً متفنناً اخذ العلم عن أبي عبد الله محمد بن جلداسن اللالوتي، ونال شهرة كبيرة. وكان أعلم أهل زمانه[62].

15- أبو محمد محمد خصيب بن إبراهيم، نشأ في «تمصمص» من قرى نفوسة، وكان من أكابر علماء قرنه، وفي مدرسته درست أم ماطوس أول فتاة أباضية تشترك في مدرسة للفتيان[63].

16- وارسفلاسان بن مهدي، وهو إمام ابن إمام لأن أباه كان من كبراء العلماء. ولما توفي أبوه ركب بغلته وأتى شروس فسأله بعضهم عن مسألة فلم يحسنها، فقال له آخر: لو سألت بغلة أبيك أجابتك عنها. فأنكرت ذلك نفسه، ودخل «قصرولم» وفيها خزانة نفوسة، فمكث فيها اثنتى عشرة سنة يدرس العلم، ثم مكث في داره يدرس ديوان أبيه، ولا يرى خارجا الا إلى حاجة الإنسان. وقد امتحنه العلماء بكثرة الأسئلة في المشكلات وغيرها، فما وجدوا عنده خطأ، فأخذ عنه بشر كثير[64].

17- أبو نصر زار بن يونس التيفستي نسبة إلى تيفست موضع في جبل نفوسة. وهو من علماء النصف الأول من القرن الرابع. وكان من فحول العلماء كثير العبادة. وحين حضرته الوفاة أخذ يبكي. قيل: ما يبكيك؟ فقال: خوفاً من الفتيا. قلت دار من دور نفوسة لم تدخلها فتواي[65].

18- أبو خزر النفوسي. قال عنه الشماخي: كان أبو تميم يعظم شأنه

61- معمر 161/1
62- قناطر الخيرات هامش 2 ص ص 147
63- قناطر الخيرات هامش 2 ص 90.
64- السير للشماخي ص 327
65- قناطر الخيرات هامش 1 ص 209

ويقعده معه على سريره وغيره من الناس وقوف بين يديه. وقد خرج أبو خزر مع أبي تميم حين غادر القيروان لفتح مصر عام 362هـ. وسمع أهل مصر بأن أبا تميم أتاهم بعالم المغرب فاجتمع فقهاؤها على امتحانه وهابوه.. ولما ولىّ أبو تميم ابنه فرط في حق الشيخ.. فقدم معتزلي يطلب المناظرة فأفحم فقهاء مصر فشق عليهم ذلك وشكوا أمره إلى السلطان. فاستشار أصحابه في أمر المعتزلي فقال له ذو السن: عليك بأبي خزر عالم المغرب الذي قدم به أبوك يكفيكه. فأرسل إلى أبي خزر كي يخرج لناظرة المعتزلي.. فخرج وناظره فغلبه[66].

القرن الخامس:

أما علماء القرن الخامس فقليلون اذا قيسوا بعلماء القرن الرابع أو الثالث. ومنهم:

1- مالك بن سعيد بن مالك القرافي. ولى القضاء بطرابلس. ثم وليه بمصر سنة 398 من قبل الحاكم بأمر الله الفاطمي. وضرب الحاكم عنقه سنة 450 لأنه أمره أن يكتب بسب الصحابة على أبواب المساجد فأبى وكتب «لقد تاب الله على النبي والمهاجرين[67] ...» وقد كان محموداً في ولايته. عفيفا في أموال الناس لايخاف في الله لومة لائم[68].

2- عمر (أو محمد) بن عبد العزيز بن عبيد بن يوسف الطرابلسي المتوفى ببغداد سنة 510. وصفه النائب بقوله: «الفقيه الأديب». وقال عنه ياقوت الحموي إنه لقي السلفي وأثنى عليه وإنه القائل في كتب الغزالي:

هذب المَذْهب حبر — أحسن الله خلاصه
ببسيط ووسيط — ووجيز وخلاصه[69]

66- السير للشماخي ص 354-356
67- في نفحات النسرين :» والمجاهدين» وهو خطأ
68- نفحات النسرين ص 71.
69- نفحات النسرين ص 76 . ومعجم البلدان مادة طرابلس وقد ورد في نفحات النسرين اسم ابو القاسم حاتم بن محمد بن عبد الرحمن الطرابلسي وترجم له في صفحات 76-78 وقد أسقطته لأنه من طرابلس الشام لا من طرابلس الغرب كما ذكر ابن فرحون في الديباج المذهب (ص109)

ومن علماء الأباضيين في هذا القرن:

3- أبو العباس أحمد بن أبي عبد الله بكر النفوسي مؤسس مجالس العزابة[70]. ألف كتبا كثيرة منها: أصول الأراضين في ستة أجزاء. والسيرة في الدماء. والجامع في الفروع في جزءين. وكتاب القسمة وتبيين أفعال العباد في ثلاثة أجزاء. وكتاب الألواح. ويقال انه صنف في آخر عمره تصنيفاً في خمسة وعشرين جزءاً وتركه في الالواح[71].

4- أبو محمد عبد الله بن محمد العاصمي اللواتي. وزير الإمام أفلح. وكان أصله من برقة. وصفه الدرجيني بقوله: «نجيب النجباء. وإمام الأدباء والمعتنى بحفظ الأخبار. وتقييد سير الأخيار. درس العلوم زماناً. وصحب الشيوخ ضروباً والواناً حتى غدا وافر البضاعة في كل الفنون».. قرأ عليه جماعة من التلاميذ فنجبوا.. وقد كان مهتما بجمع المخطوطات وتتبعها حيثما وجدت. فقد روى أنه سمع بوجود كتاب في تفسير القرآن من تأليف الإمام عبد الرحمن معروض للبيع في قلعة حماد فسافر للحصول عليه وتنكر في زي تاجر. ولما وصلها جعل يسأل عن الكتاب برفق وتلطف في السر. ولكنه وجده قد بيع قبل قدومه[72].

القرن السادس:

كذلك يقل علماء القرن السادس بشكل لافت للنظر فمنهم:

1- أبو الحسن على بن عبد الله بن مخلوف الطرابلسي المتوفى سنة

70- - العزابة : هيئة محدودة العدد تمثل خيرة أهل البلد علما وصلاحا وتقوم بالإشراف الكامل على شئون المتمع الأباضي من جميع النواحي وتختار من بينها شيخا يسمى «شيخ العزابة» يرأس الهيئة وهي مشتقة من العزوب أو العزابة بمعنى العزلة أو التصوف والتهجد ويقصد ويقصد بها في هذا الاستعمال : الانقطاع إلى خدمة المصلحة العامة ومقرها الرسمي المسجد ولذا فلزام أن يكون في جانب من جوانب المسجد بيت خاص بالعزابة وتنشأ حلق العزبة في كل بلد أو قرية وهناك مجلس أعلى للعزابة يشرف على المستويات المحلية ويمثل شيخ العزابة في المجتمع الأباضي سلطة الإمام العادل ويقوم بجميع مهامه وقد ارتفع حكم العزابة من مواطن الأباضية في ليبيا وتونس في القرن الأخير (معمر 1/97-110)
71- - اطفيش هامش رقم 1 ص 513 من دائرة المعارف – مادة بربر والسير للشماخي ص 423 . 424 وقد ذكره اطفيش باسم :ابو عبد الله محمد بن بكر
72- الدرجيني ورقة 195 . ورسالة فيها تقييد كتب اصحابنا للشيخ ابو القاسم بن ابراهيم ورقة 207.

522. كان له اهتمام بالتواريخ وألف تاريخاً لطرابلس. وكان فاضلا في فنون شتى. أخذ عنه السلفي وسافر إلى الحج فأدركته المنية هناك[73].

2- عبد الرحمن بن مكي بن عبد الرحمن الطرابلسي المغربي ثم الإسكندراني ولد سنة 570. واشتغل بطلب العلم. وسمع من جده السلفي الكبير ومن غيره. وانتهى إليه علو الإسناد بالديار المصرية. وتوفي بمصر سنة 651هـ[74].

ومن علماء الأباضية في هذا القرن وهم قليلون جداً:

3- أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم السدراتي الذي وصفه الشماخي بأنه «بحر العلم الزاخر». فاق في علوم القرآن والحديث والسنن والآثار والنظر والجدل والمنطق والكلام والأخبار والفروع والأحكام والفرائض والمواريث.. ولازم داره سبع سنين لايراه الزائر الا ناسخاً. أو للأقلام بارياً. أو للدراسة فاعلاً. أو للحبر طابخاً. أو للدواوين مقابلاً. من تآليفه كتاب: العدل في أصول الفقه في ثلاثة أجزاء. وتفسير بعض آيات القرآن. وكتاب الترتيب. في علم الحديث. وتأليف في الفقه. وذكر اطفيش أنه قد ترجمت له مؤلفات إلى بعض اللغات الأوربية. وتوفى عام 570هـ[75].

4- أبو الحسن على بن يخلف التيمجاري النفوسي الذي كان مهتما بنشر الإسلام خارج حدوده. فقد رحل إلى مملكة مالي سنة 575 وكان ملكها مشركاً فأخذ أبو الحسن يصف لملكها الإسلام حتى أقنعه به وآمن. ودعا أهله ومن حوله إلى الدخول في الإسلام. ودعا وزراءه وأهل المدينة ومن حولها. وأخذ أبو الحسن يعلمهم فرائض الإسلام والقرآن ويفقههم في الدين[76].

القرن السابع:

أما علماء القرن السابع فكثيرون ومنهم:

73- معجم البلدان - طرابلس
74- أعلام ليبيا ص 160
75- الشماخي ص 443-445 وهامش رقم 1 ص 515 مادة بربر من دائرة المعارف الإسلامية
76- دبوز 352/3 ، 353 ومقدمة الوضع لاطفيش ص 15

1- أبو محمد عبد السلام بن عبد الغالب المسراتي المتوفي سنة 646هـ. اشتهر في الفقه وفروعه. والفلسفة الإسلامية. والتصوف النظري والعملي. وعني بفن القراءات السبع. والحديث كذلك. كما كان حسن الترتيل جيد التجويد. ومما تركه من مؤلفات «الوجيز» في الفقه المالكي. وعن هذا الكتاب نقل الشيخ خليل[77] في شرحه على ابن الحاجب. وخليل عند فقهاء المالكية يعتد بنقله. كما ألف «شرح أسماء الله الحسنى». و»الزهر الأنيق في قصة يوسف الصديق». بطريقة تمزج التفسير بالتصوف والأدب بالعلم[78].

2- عمران بن موسى بن معمر الهواري الطرابلسي المتوفى سنة 660هـ. كان إماماً عالماً فقيهاً حافظاً للمذهب عارفاً بالمسائل بصيرا بالأحكام. أخذ عن أبي زكرياء البرقي وغيره وأخذ عنه أبو فارس عبد العزيز بن عبد العظيم الطرابلسي وغيره ولي قضاء طرابلس والإمامة والخطابة بجامعها ثم نقل إلى حاضرة تونس وتولى قضاءها سنة 657 وتوفي بها وهو يتولاه[79].

4- أبو محمد عبد المجيد (أو عبد الحميد) بن أبي البركات بن أبي الدنيا الصدفي الطرابلسي المتوفى بتونس سنة 684هـ. ولد بطرابلس سنة 606. ونشأ في بيت من البيوتات العريقة في طرابلس. ودرس في مساجدها ومدارسها كما يدرس الاطفال في عصره. ثم قصد الأزهر. ومن مصر ذهب إلى مكة لأداء فريضة الحج. ثم عاد إلى الأزهر ثانية. وتتلمذ على أشهر علمائه. وأظهر ميلا نحو التصوف والحديث وأصول الفقه. ثم عاد إلى المغرب ينشر علمه فذاع صيته. وما لبث ان عرضت عليه المناصب العالية في تونس: مثل قضاء الجماعة. وقضاء الأنكحة. والخطابة بالجامع الأعظم. فاعتلاها[80]. وهناك مزيد بيان عن هذه الشخصية الفذة عند الحديث عن

77- هو خليل بن اسحاق بن موسى الفقيه المالكي المصري المتوفي سنة 767 أو 749 أو 769 أو 776 ولي الإفتاء على مذهب مالك وألف المختصر في الفقه وشرحا لجامع الأمهات لابن الحاجب سماه التوضيح (الديباج المذهب 115/1 ، 116 ، والاعلام 364/2)
78- المنهل العذب 158/1 ، 159 ، 160 وأعلام ليبيا ص 173 والمصراتي : أعلام من طرابلس ص 101 - 104
79- الزاوي : أعلام ليبيا ص 240
80- ابن غلبون ص 227 ، واعلام ليبيا ص 154 والتجاني ص 272 ، 273 وغيرها

الشعراء الليبيين في الفصل التالي.

4- الفقيه أبو الحسن بن موسى (أو أبو على الحسن بن موسى) بن معمر الهواري الطرابلسي المولود سنة 609هـ. انتقل بعد ان استنفد ما عند أساتذته بطرابلس - إلى مساجد تونس وحلقات المهدية، والتقى باساتذتها، ولازم فقيه زمانه ابا زكرياء البرقي[81]. وستأتي له ترجمة اوفى بين الشعراء فيما بعد.

5- أبو فارس عبد العزيز بن عبد العظيم بن عبد السلام بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبد العزيز بن عبيد المولود عام 639هـ. عرف بالإمام الحافظ؛ لأنه كان من الذين نالوا درجة الحفظ في فن الحديث، وما يتصل به من العلوم والفنون. كما كان فارس ميدانه في علم الفقه وأصوله. وكان يحفظ آراء القرويين (جامعة القرويين حافظة مذهب الإمام مالك) وينقلها بأمانة ودقة، ويعلق عليها، ويشرحها، وينشرها بين طلابه في مساجد طرابلس. وقد التقى به أثناء رحلته العلامة التجاني، وسجل إعجابه به، وأثنى عليه ثناء مستطاباً، وهو ثناء له قيمته؛ لأنه صادر من رجل غريب لايمكن ان يتهم بالتحيز له، وهو ثناء من عالم تردد على كثير من حلقات العلم وقارن بينها وحكم عليها، ومما قاله في شأنه: «القائم برسم العلم في هذه البلدة (طرابلس) في وقتنا هذا شيخنا الإمام الحافظ أبو فارس عبد العزيز.. حضرت درسه بمسجد مجاور لداره فرأيت رجلا متضلعا من العلم، ذاكراً لا يجاريه فيه أحد، ولا تكاد مسالة من مسائله تشذ عنه، حسن العبارة، مشاركاً في علوم جمة، وله اعتناء بحفظ كلام القرويين في المذهب من تعليل أو تفسير أو تفريق أو تخريج، واعتماده في الأصول الدينية والفقهية على كلام الإمام أبي المعالي وكلام الشيخ أبي حامد الغزالي.. ولما حضرت درسه وتحققت مكانته المكينة في العلم احببت القراءة عليه مدة اقامتنا هنالك، وطلب مخدومنا ان يكون ذلك بمحضر منه فلم يكن بد من استدعاء الشيخ لموضع سكنانا فعقدنا مجلسا لذلك بالقصبة وفي مجلس الأمير منها وطلب الحضور بذلك المجلس جماعة من أعيان الطلبة بالبلد فأذن لهم

81- ابن غلبون ص 229 واعلام ليبيا ص 22

ورأينا ان يكون المقروء حديث خير الأنام[82].

وقد أملى أبو فارس تلميذه التجاني قائمة بأسماء بعض أساتذته وهم: الفقيه القاضي أبو موسى عمران بن موسى بن معمر، وابو محمد عبد الوهاب الهنزوني والفقيه أبو محمد عبد الحميد بن أبي البركات بن أبي الدنيا، والفقيه أبو الجيش محمد بن إبراهيم الأندلسي البسطي، والفقيه أبو محمد عبد الله بن عبد الكريم الغماري، والفقيه أبو العباس الأعجمي، والفقيه أبو محمد عبد الله بن إبراهيم القابسي. وكلهم جاء من خارج طرابلس أما لتولي منصب القضاء أو لاجتيازها في طريقه إلى مكة أو إلى المشرق أو إلى المغرب. وقد أغناه لقاؤه الأساتذة الزائرين عن الأسفار للقاء الأساتذة اكتفاء بمن مر على طرابلس من الأعلام. وعلى هؤلاء الأساتذة قرأ كتباً متنوعة مثل التفريغ لابن الجلاب، والمحصول لابن العربي، والمستصفى للغزالي، والإرشاد لأبي المعالي، والبرهان له أيضاً، والمذهبة لابن المناصف، والكافي في الفرائض لابن المنمر، والمعالم الفقهية لابن الخطيب، بالإضافة إلى مؤلفات أساتذته انفسهم[83].

6- أبو العباس أحمد بن عبد السلام الأموي التاجوري، لزم سكنى طرابلس، وكان أحد العدول المصدرين بها العارفين بالتوثيق وعقد الشروط. كما كان حافظا للاداب والتواريخ حسن الخط جدا. تعرف به التجاني في تونس ولازمه حين ذهب إلى طرابلس مدة إقامته بها. وقد روى التجاني عنه الابيات التالية للفقيه المحدث أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر بن الأبار في قضية أبي عبد الرحمن لما نصب رأسه ورءوس من قتل معه بسور القصبة في تونس:

وعصابة قطفت رؤوسهم الظبي ... قطف البنان ازاهر البستان
غدروا وما شعروا بأن وراءهم ... للحق انصارا على البهتان
فانظر إلى هاماتهم مسودة ... كالليل غير بوارق الأسنان
تبدو من السور المنيف بصفحة ... بيضاء كالشامات والخيلان[84]

82- ص 255

83- التجاني 254-257 والمصراتي : أعلام من طرابلس ص 73-89

84- التجاني ص 270 . ونفحات النسرين ص 102

7- أبو إسحاق إبراهيم بن عبد السلام بن عبد الغالب المسراتي المتوفي سـنة 704هـ. كان حلقة من حلقات الاتصال الثقافي بين طرابلس والمغرب. واسـتفاد منه أهـل تونس والقيـروان. امتـاز بمعرفته لغريـب اللغة وغريب الحديث وحسـن التأويل إلى جانب فصاحته وطلاقة لسانه مما أهله لأن يكون خطيب مسـجد القيروان. تلك المدينـة المزدحمة برجال الفقه و الشـريعة، والممتلئة بالمسـاجد والمدارس ودور العلم. ثم ترك القيروان لوشـايات حيكت ضده. واسـتقر بتونس يفيد التلاميذ، وينشر علمه على الطلاب. ثم عاد إلى القيروان لأن الأطباء نصحوه بذلك لملاءمة جوها لصحته. واسـتأنف نشاطه العلمـي هناك إلى جانب متابعته للعلاج. واسـتقر به المقـام اخيرا بتونس وبها توفي[85].

ومن بين العلماء الأباضية في هذا القرن وهم قلة:

8- أبو موسـى عيسى الطرميسـي المتوفي سنة 720هـ. وقد ذكره أبو زكريـا في الطبقـة الرابعة عشـرة اى اعتبره من علماء النصـف الثاني من القرن السـابع. أسـس مدرسـته العظيمة التي خرجت عددا غير قليل من الأعـلام. وقـد انقطع للتعليم فلم يشـغله مال ولا ولد اذ ظـل طول حياته أعزب. وقد أوصى ان تكون مكتبته العامرة من بعده وقفا على طلبة نفوسة وعلمائها. وقد كان يشـجع تلاميـذه على التأليف وعـدم الاكتفاء بالرواية. وكان من ثمرة جهوده مؤلفات الفيلسـوف الإسـلامي الجيطالي وابي ساكن عامر بن علي الشماخي اللذين درسا في مدرسته[86].

9- أحمد بن سعيد الدرجيني. ولكونه من المشتغلين بالتاريخ فسنؤجل الحديث عنه إلى القسم الخاص بأعلام التاريخ الإسلامي.

القرن الثامن:

أما القرن الثامن فقد كان علماؤه قليلين ومنهم:

1- أبو موسـى عمران بن موسـى بن معمر الهواري المتوفي سنة 760.

85- المنهل العذب 171/1 والمصراتي : أعلام من طرابلس ص 105-108

86- معمر 103/3-106

كان عالمـاً فقهياً. أخذ عن ابن أبي الدنيا. تولى القضاء بطرابلس نيفا وثلاثين سـنة. واشـتهر بالعدل في احكامه. وارسـل إليه الخليفة إبراهيم المنتصر الحفصي بتونس سنة 758 فذهب إليه وولاه القضاء بها. وأقام نيفا وعشرين شهرا ثم توفي هناك[87].

2- أبـو عبـد الله محمـد بن أحمـد الزليتنـي المتوفي سـنة 808. قرأ علـى الشـيخ أبي عبـد الله محمد بن فندار ثـم ارتحل إلى تونـس فقرأ بها على شـيخها ابـن عرفة حتى مـات. وكان عالماً صالحاً ناسـكاً ورعاً. قال في معالـم الايمـان: واخترمته رحمه الله تعالى الوفاة. ولـو عاش كانت طريقته الإمامـة بجامع الزيتونة صلاة وخطبة. لا يزاحمه أحد في ذلك. وكانت وفاته بتونس[88].

3- الشـيخ يوسـف بن علي الجعراني المسـلاتي قال عنه أحمد النائب: إمام في علوم القرآن ومقدم في علوم اللسـان. ألف شرح القرطبية، وشرح الأجروميـة، ونظمهـا، وغير ذلـك. كان موجودا عـام 820. ودفـن بعد موته بمسلاتة بقرب القصبات[89].

ولئـن كان هذا القرن قـرن خمود وتأخر هنا اذ لم ينتـج اعلاماً، فقد كان قـرن ازدهار وتقدم في جبل نفوسـة، اذ انتج علمين كبيرين هما الشـماخي والجيطالـي، وهمـا فخر نفوسـة ومـن أخصب المؤلفـين من ابنائهـا. وتعد مؤلفاتهما مفخرة للأمة الإسلامية بأسرها كما سنرى الآن.

4- أبو سـاكن عامر بن علي بن عامر الشـماخي المتوفي سـنة 792هـ وهو شـيخ كبير. أقام بمتيون 13 عاما يقرىء العلـوم، ثم تحول إلى يفرن عام 756 وأقام بالمسـجد الكبير إلى أن مات. وأخذ عنه بشـر كثير. وألف ديوانه في عشر الثلاثين ولم يكمله لأمر عرض له. فالكتاب الأول في الصلاة، (سفر مسـتقل)، والثاني فـي الزكاة والصوم والحج والنذور والايمان والحقوق (سـفر ضخم)، والثالث في البيوع والقسـمة والرهن (سـفر مستقل)، والرابع في

87- ابن غلبون ص 227 وأعلام ليبيا ص 28

88- المنهل العذب 174/1 ، وأعلام ليبيا ص 264

89- المنهل العذب 190/1 واعلام ليبيا ص 363 ، 364

الوصايا والهبات. ثم امتنع من تكميل الفقه. قال الشماخي: وهذا التأليف ما أظن الف في المذهب مثله جمعاً وتعليلاً واختصاراً غير مخل وتطويلا غير ممل. وهو اعتماد أهل المغرب في وقتنا وخصوصاً نفوسة. وبعده ديوان أبي زكريا يحي بن الخير. وبعدهما ديوان الأشياخ. واذا أطلق الشيخ في زماننا فهو المعني. وقد ذكر له الأستاذ معمر وغيره كتابا اسمه «الإيضاح». فلا أدرى أهو الكتاب السابق ذكره ام غيره. وإن كنت أرجح أنه غيره[90].

5- أبو طاهر إسماعيل بن موسى الجيطالي النفوسي. نسبته إلى «جيطال» مدينة فسيحة في جبل نفوسة تقع بين « أمسين» و «إينر» على ربوتين متقابلتين تحيط بها من جميع الجهات غابات كثيفة من شجر التين والزيتون. ولا نعرف بالتحديد تاريخ مولده. ولكن الشماخي يحدد وقت وفاته بسنة 750هـ. في جزيرة جربة بتونس.

أخذ العلم عن العالم الكبير أبي موسى عيسى الطرميسي وغيره. وكان الطرميسي من الأئمة الأعلام في جبل نفوسة. وهو صاحب المدرسة العظيمة التي خرجت عددا غير قليل من الأفذاذ.

وأمضى الجيطالي حياته الأولى متنقلا بين مدن الجبل مدرسا ومربيا وداعيا ومذكرا على عادة علمائها. وقصد طرابلس في بعض أمره فلم يقر بها حتى أودعه حاكمها السجن وذلك بسبب حسد فقهاء طرابلس له وافترائهم عليه لدى الحاكم. ومن سجنه الذي بقي فيه مدة أنشد قصيدة مدح بها ابن مكي صاحب قابس وكانت جزيرة جربة تحت يده فتشفع فيه عند صاحب طرابلس فأطلقه. ويقال كذلك انه بذل مالا لصاحب طرابلس حتى عفا عنه. وبعد إطلاقه كتب رسالة إلى ابن مكي يعتذر فيها عن مدحه الذي لا يستحقه. وذلك من تحفظه وورعه الا يكون قد كذب في شعره. وبعد إطلاق سراحه اتجه إلى جربة ونزل الجامع الكبير وتلقاه علماء جربة بأحسن لقاء واجتمعت عليه الطلبة. وكان يقرىء ويصنف في المجلس الواحد. ومن كثرة حفظه انه كان يقرأ ويحفظ كتاب العدل (في 3 اجزاء) ويدرس جمل

90- الشماخي ص 559 , 560 ومعمر 3/114-117 وانظر فهرس مخطوطات دار الكتب المصرية لفؤاد سيد «إيضاح أدلة الفقه»

الزجاجي في النحو ومقامات الحريري وكتاب الدعائم والأشعار الستة وغير ذلك مما يكثر. وترك الجيطالي وراءه كتباً كثيرة في الدراسات الإسلامية منها: كتاب الحج والمناسك كتاب في الفرائض قواعد الإسلام – قناطر الخيرات – شرح النونية في أصول الدين للشيخ أبي نصر فتح بن نوح الملوشائي ومطلعها:

سلام على الإخوان في كل موطن....

ما جمع من أجوبة الأئمة (في 3 اجزاء) – ما جمع من الرسائل – مجموعة قصائد هي إلى معاني الفلسفة أقرب منها إلى أغراض الشعر. وقد لقبه الأستاذ معمر بفيلسوف الإسلام وعلل ذلك بأنه قد ترك مكتبة عامرة لا تقل عما تركه أبو حامد الغزالي.

وقد طبع كتابه قناطر الخيرات بالمطبعة البارونية بإشراف الشيخ محمد يوسف الباروني سنة 1307هـ في ثلاثة أجزاء. ويقوم الآن الأستاذ عمرو خليفة النامي بإعادة طبعه. وقد أصدر منه الجزء الأول عام 1385هـ-1965م.

وتوجد بدار الكتب المصرية مخطوطة لكتاب «الفرائض» برقم 22297ب. كما توجد بها نسخة مخطوطة من اختصار قواعد الإسلام تأليف محمد بن يوسف ابن عيسى اطفيش ورقمها 20901 ب. ومخطوطة لحاشية شرح قواعد الإسلام لأبي عبد الله محمد بن عمر بن أبي ستة القصبي .

القرن التاسع:

أما القرن التاسع فقد توج بعلماء أعلام على رأسهم:

1- الشيخ أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي[91] الفاسي المعروف بزروق. وهو لقب لجده انتقل إلى فروعه. وقد ذكر زروق انه ينتسب من جهة ام جده إلى المصطفى صلى الله عليه وسلم ولكنه لم يحقق ذلك.

ولد زروق في 18 محرم وقيل 28 من عام 846هـ. بمصراتة ونشأ يتيما.

91- نسبة إلى قبيلة البرانس البربرية المشهورة بالمغرب وقد سرى اليه هذا اللقب من أجداده

إذ ماتــت أمه ثالث يــوم من ولادته، وأبوه خامس يــوم، فكفلته جدته، وحفظ القرآن، ثم تعلم الخرازة، واشتغل بالعلم في السادسة عشرة من عمره فقرأ الرســالة على أبي عبد الله الفخار وغيره، وكما درس في ليبيا درس خارجها؛ فقد ســافر إلــى تونس واخذ من كبار علمائها، ثــم نالته محنة فارتحل عنها إلــى مصــر ودرس بالأزهر وحضر على أســاتذته، أخذ التصــوف عن أحمد بن عقبة اليمني والقراءات عن الزرهوني والقوري بقراءة نافع، ومن أساتذته عبد الرحمن الثعالبي وحلولو والسخاوي والديمي وغيرهم، ومن تلامذته الشهاب القسطلاني والشمس اللقاني والحطاب الكبير.

وكان الزروق زاهدا فاضلا منقطعا إلى الله ســبحانه وتعالى وله بركات ظاهرة وكرامات باهرة في الحياة وبعد الممات، وكثير من مؤلفاته ورسائله في التصوف، وعاش الزروق 54 سنة حافلة بالعلم اذ توفي عام 899 في مصراتة، مدينة من مدن طرابلس ودفن بها، وكان قد اســتوطنها، وانخرط في ســلك أهلها وتزوج منهم.

من مؤلفاته – وهي كثيرة – شــرحان لرســالة ابن أبي زيد في الفقه – شرح الإرشاد في الفقه – شرح مواضع من مختصر خليل – شرح القرطبية – ستة عشر شرحا على الحكم لابن عطاء – كتاب الحوادث والبدع – القواعد في أصول الطريقة – شــرح حزب البحر – شــرح الأســماء الحسنى – شرح العقيدة القدسية للغزالي – رسائل في المواعظ والحكم واللطائف – تعليق على البخاري.

وتوجد من بعض مؤلفات الزروق نسخ في كثير من مكتبات العالم وقلما تخلو مكتبة مشــهورة من بعض كتبه ورســائله المخطوطة، أو من الشــروح والتعليقــات والتلخيصات على بعضها، ومما يوجد له في دار الكتب المصرية: أصــول الطريقة الشــاذلية، ويحمل رقــم 22724 ب، والفوائد اللطيفة في شــرح ألفاظ الوظيفة ويحمل رقــم 22988 ب ورقــم 23322 ب، واختصار خواص أســماء الله الحسنى له قام به محمد بن محمد بن أحمد بن المرزنات ورقمه 21580 ب، وخواص نظم الدمياطية لأســماء الله الحســنى، ورقمها 20534 ب، وشــرح حــزب البحر، ورقمه 21580 ب، وشــرح عقيدة الغزالي،

ورقمه 20112 ب، كما طبع شرحه لحكم ابن عطاء الله أكثر من مرة[92].

2- خلف الله بن سعيد الطرابلسي، مات في الأربعينات من هذا القرن، ذكره العلامة الســخاوي في الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، وذكر أنه مات سنة بضع واربعين وثمانمائة[93].

3- على بن عبد الحميد العوسجي المولود سنة 775 تقريبا والمتوفى عام 925 عن 150 سنة، وصفه الزاوي بقوله «الشيخ الوقور العالم السالك». كان يحفظ القرآن بالروايات الســبع، ويعلم أبناء المســلمين، ولذلك اشــتهر باســم «مؤدب الصبيان». كان مشــاركا في علوم كثيرة، وأخذ عن والده 12 علما، بني مســجده في حياتــه وحين مات دفن بداره المتصلة بمســجده من الناحية القبلية[94].

4- أحمــد بــن عبد الرحمن بن موســى بــن عبد الحــق الزليطني حلولو الوامح الفقيه الأصولي، ولد ببلدة زليطن، ورحل إلى تونس في طلب العلم، وأخــذ عن الإمــام البرزلي وغيــره، وأخذ عنه الشــيخ أحمــد زروق، وأحمد بن حــاتم وغيرهما، ثم رجع إلــى طرابلس وتولى القضاء بها ثــم عزل عنه ورجع إلى تونس وأســندت إليه فيها مشــيخة المدارس، وهو أحــد الأئمة المكثرين من التأليف؛ فمن مؤلفاته: شــرح جمع الجوامع، والتنقيح، واشارات الباجي، وعقيدة الرســالة، وله شــرحان على خليل احدهما كبير في ست مجلدات والآخــر صغير في مجلدتين، وله شــرح مختصــر فتاوى البرزلــي، كما أن له شــرحين على أصول الســبكي، قال عنه تلميذه ابن حاتم: كان موجودا سنة 895، ولا تنقص سنه عن 80 سنة.

وتوجــد بــدار الكتــب المصرية نســخة مخطوطــة من مختصــر فتاوى البرزلــي، له برقم 20110 ب ونســخة اخرى بمعهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية برقم 29 فقه مالكي، كما توجد نســخة بمكتبة وقف النائب

92- ابن غلبون ص 222-24 والزاوي : أعلام ليبيا ص 65-67 وفهرس مخطوطات دار الكتب عمل فؤاد سيد

93- المنهل العذب 97/2 والزاوي : أعلام ص 102

94- الزاوي : أعلام ص 208

بطرابلس من كتابه «مسائل منتخبة من كتاب البرزلي»[95].

5- مساعد بن حامد بن مساعد المصراتي المتوفى سنة 780. احد فضلاء مصراتة، كان له اشتغال بالعربية والمنطق وبعض الأصول، وكانت اغلب إقامته بمصر، وتوفي بالهند[96].

أما علماء الأباضية فلم أعثر على أحد منهم يستحق التنويه باسمه سوى:

6- أبو العباس بدر الدين أحمد بن سعيد بن عبد الواحد الشماخي اليفرني المتوفى سنة 908[97] أو 928[98]. سافر إلى تونس طلبا للعلم ثم عاد إلى مسقط رأسه. من أشهر كتبه: مقدمة في أصول الفقه، وشرحها، وقد اختصر المقدمة من كتاب العدل والإنصاف لشمس الدين أبي يعقوب الوارجلاني، فكانت أجمل وانقى متن في أصول الفقه. كما أن له حاشية على مقدمة التوحيد. ويبدو أن للشماخي مؤلفات أخرى في الفروع الفقهية بيد أنها لم تصل إلينا، بل لعبت بها أيدي التلاشي وعبثت بها عوادي الزمان. ويدل على ذلك ما ذكره أبو إسحاق اطفيش من أنه سمع بكتاب للشماخي اسمه «إعراب مشكل الدعائم»، وبكتاب آخر له يعد شرحا على متن الديانات. كما اشار الشماخي أثناء شرحه لمقدمة الأصول إلى كتاب آخر اسمه «شرح مرج البحرين» لشمس الدين أبي يعقوب. فقد قال حين الكلام على اسم الجلالة واشتقاقه: « قد بسطنا ذلك في شرح البحرين فلينظره الراغب»[99].

7- أبو يوسف يعقوب بن أحمد بن موسى ولشهرته بالنحو ستأتي له ترجمة في فصل الدراسات اللغوية.

القرن العاشر:

95- أعلام ليبيا للزاوي ص 37 ، 38 وفهرس مخطوطات دار الكتب وفهرس مخطوطات جامعة الدول العربية معهد المخطوطات وفهرس كتب وقف النائب
96- أعلام ليبيا ص 337
97- ذكر هذا على صفحة العنوان من كتاب السير للشماخي
98- ذكر هذا الباروني في الأزهار الرياضية 13/2
99- معمر 125/3 ، 126

أمتلأ القرن العاشر – بخلاف سابقه – بعدد لا بأس به من العلماء الأعلام منهم:

1- محمد بن محمد عبد الرحمن الحطاب (الصغير) المتوفى سنة 954هـ أصل أسرته من الأندلس، ولكن آباءه وأجداده استوطنوا طرابلس وأقاموا بها. وقد اشتهر في الفقه خاصة والف فيه. وإنه وإن كان باحثو الفقه المالكي في العصور المتأخرة يعتمدون اعتمادا كليا على كتاب الشيخ خليل، فإن الشيخ الحطاب عندما قرأه لاحظ فيه بعض هنات وأخطاء، فألف كتابا يستدرك فيه على خليل وشراح خليل. وكتب كذلك رسالة «الالتزامات»، وهو إلزام الرجل نفسه بمعروف، وهو بحث دقيق يحتاج إليه أهل الإفتاء. وسافر الحطاب للحج فظهر هناك علمه وفضله فتولى رئاسة المذهب المالكي بالحجاز. والى جانب شهرة الحطاب في الفقه ألف في التفسير فكتب حاشية على البيضاوي، ثم شرع في تفسير القرآن كله، ولكنه لم يتمه ووقف عند سورة الأعراف. وترك كذلك أثرا في فن القراءة والتجويد، كما شارك في فلسفة الفقه أو أصوله بشرح كتاب إمام الحرمين «قرة العين». وشارك كذلك في التصوف، وفي مصطلح الحديث[100]. والى جانب تبحره في علوم الشرع كان بحرا في علوم اللغة والنحو كما سنفصله في موضعه.

2- والده محمد بن عبد الرحمن الحطاب (الكبير) المتوفى سنة 945هـ. ولد بطرابلس عام 861هـ ونشأ بها وحفظ القرآن، ثم تحول إلى مكة ومنها إلى القاهرة ثم عاد إلى مكة وجاور بالمدينة النبوية، وقرأ العربية والفقه، ثم جلس لإقرائهما، وكانت وفاته بتاجورة ودفن بزاويته الموجودة هناك[101].

3- عبد الرحمن بن محمد بن أحمد المغربي الطرابلسي التاجوري المتوفي سنة 960هـ. قال في كفاية المحتاج: علامة الزمان في علم الميقات. رحل إلى الأزهر وأخذ الفقه عن الأخوين شمس الدين اللقاني، والناصر اللقاني وغيرهما، وأخذ عنه القرافي وقال فيه: شيخنا العالم الناسك. أقام بمكة زمنا وكان زوارها يقصدونه ليدعو لهم. ألف رسالة في علم الميقات سماها

100- المنهل العذب 207/1 والمصراتي : أعلام من طرابلس ص 109 - 113
101- الزاوي : أعلام ص 309-311

«الدرر المنتثرات على ربع المقنطرات» منها نسخة في مكتبة شيخ الإسلام بالمدينة المنورة مخطوطة بخط نسخ جميل وتقع في 19 ورقة من القطع المتوسط. وله رسالة اخرى في علم الميقات أيضاً في معرفة الفصول الأربعة وأوقات الصلاة وأجزاء الليل وجهة الكعبة المشرفة منها نسخة بمكتبة شيخ الإسلام بالمدينة المنورة مخطوطة بخط نسخ جميل. وتقع في 20 ورقة من القطع المتوسط. وتوجد بدار الكتب المصرية نسخة من مخطوطة بعنوان «رسالة في معرفة وضع بيت الإبرة على الجهات الأربع» للتاجوري برقم 3989 ك. ولعلها نفس الرسالة السابقة[102].

4- أبو عبد الله محمد بن علي الخروبي المتوفي سنة 963هـ بالجزائر. ولد بضاحية قرقارش على بعد ثلاثة كيلومترات من مدينة طرابلس الغرب. من بيت ثوارث أهله العلم والتصوف. ونشأ في اجواء تدفعه إلى تصفية روحه ومحاسبة نفسه حسابا دقيقا. وكان والده على الخروبي من أصدقاء أساتذة التصوف وفقهاء البلاد. ويتمتع في قلوب العامة بالاحترام والوقار. وفي قلوب الخاصة بالإجلال والإكبار. وكان والده من أخص أصدقاء الشيخ أحمد الزروق الذي أحدث في عصره ازدهارا في المدرسة الصوفية والطريقة والطريقة الشاذلية ومدارسة فقه الإمام مالك وأصحابه.

وكانت أمه بعد وفاة أبيه تقرأ له ولإخوته شيئا من المدائح النبوية والتراتيل الصوفية فتبعث في أطفالها نشوة دينية روحية. وكانت المدرسة الأولى التي صقلت نفسية محمد الخروبي هي والدته. ثم مشاهدة مجالس والده. ثم دراسة أحمد الزروق. كذلك عني بتربية محمد الخروبي ابن عمة أمه المسمى «محمد تمام» فدرس عليه مسالك الطريق. وأخذ عنه حكم ابن عطاء الله السكندري. وكان محمد تمام شاذليا زروقيا. وبعد ذلك انتقل الخروبي إلى مجلس «عبد الرحمن الحطاب الرعيني» (الحطاب الكبير رقم 2 السابق ذكره). وكان أستاذا يعلم طلابه التواضع عمليا. وخدمة العامة ومصالح الجماهير. وكان الحطاب سلفيا في كل احواله وأموره. ثم انتقل إلى درس «قاسم القلاع» الذي دفعه للتصوف العملي بعد ان درس معه

102- اعلام ليبيا ص 159 . 160 وفهرس المخطوطات بدار الكتب المصرية عمل فؤاد سيد

سيرة عمر بن الحطاب. ورسالة في دفعه للتصوف العملي بعد أن درس معه سيرة عمر بن الخطاب. ورسالة في التصوف كتبها «يوسف العجمي». وديوان سلطان العاشقين عمر بن الفارض ونتيجة لذلك زهد الخروبي في الحياة المادية الصرفة. وباع غالي ثيابه. ووزع ثمنها على الفقراء. وارتدى ابسط الثياب.

وقد ساهم الخروبي في التأليف فكتب «مزيل اللبس عن آداب وأسرار القواعد الخمس». وكتب شرحا على الصلاة المشيشية؛ وهي من أوراد ابن مشيش المشهور. وشرحا لحكم ابن عطاء الله. وله تفسير يقع في ثماني مجلدات توجد منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية واسمه « رياض الأزهار وكنز الأسرار» بخط مغربي ورقمها 364 طلعت. وقد أكلت الأرضة النسخة حتى لتبدو محترقة. وأصبح من العسير قراءتها. كما لا يمكن إصلاح الكثير منها. وحينما ارتحل الخروبي إلى الجزائر وأقام بها احتل مكانة عظيمة في النفوس وأخذ عنه كثير من أهل المغرب الأقصى والجزائر[103].

5- إبراهيم بن علي بن عبد الحميد العوسجي المولود سنة 904 ببلدة الحرشا من قرى الزاوية. حفظ القرآن على والده وهو صغير. ثم أصبح عالماً فاضلاً واعظاً. ولقي الشيخ عبد السلام الأسمر وتتلمذ له. توفي سنة 998 ودفن ببلدة عوسجة الجديدة بجامعه الذي ما يزال معروفا باسمه[104].

6- سالم بن طاهر بن نفيسة الأنصاري نسباً الأطرابلسي مولداً الزليطني داراً ووفاة. اخذ العلم عن شمس الدين اللقاني وأخيه بزاوية الزروق بمصراتة. ثم رحل معهما إلى مصر وحج. ورجع بعد ذلك إلى طرابلس ولقي الشيخ عبد السلام الأسمر سنة 910 توفي عام 999 ودفن بعد وفاته بزليطن في وسط القرية وقبره معروف هناك[105].

7- عبد السلام بن سليم بن محمد بن سالم بن حميد بن عمران

103- الزاوي ص 286 – 288 والمصراتي : لمات أدبية ص 43-48 وقد اعتمد الاستاذ المصراتي في هذه الترجمة على رسالة مخطوطة له تقع في 26 صفحة ترجم فيها لبعض شيوخه وأساتذته ومن أثر فيه أو درس عليه
104- أعلام ليبيا ص 9
105- أعلام ليبيا ص 120

المغربي المخزومي القرشي، العالم العابد الصوفي المجذوب في حب الله والمعروف باسم سيدي عبد السلام الأسمر[106]. كان سيدي أحمد زروق يثني عليه ويقول «عبد السلام سلطان زمانه ولاشك في ذلك». وكان يقول «إنه أكبر مني سناً، وأكثر مني علماً، وفهماً، وزهداً، وعبادة، وفقرا إلى الله»[107].

ولد بزليطن عام 880هـ وتوفي والده وهو ابن سنتين وشهرين فكفلته أمه وتولى شئونه عمه أحمد بن محمد الفيتوري وقد اشتهر عمه بحب آل البيت، وكان يديم قراءة البردة للبوصيري وكثيرا ما كان ينظم مدحا في سيدنا الرسول، ولا ينظم في غير ذلك[108].

وقد أتم عبد السلام حفظ القرآن وعمره 7 سنوات وأخذ عن عمه مبادىء الفقه والنحو والتوحيد والمنطق، ثم قرأ على المشايخ مثل الشيخ زروق والشيخ الدوكالي. وقد حضر على الدوكالي في مسلاتة ولازمه طوال سبع سنوات وتلقى على يديه التصوف وآداب الإسلام، وقرأ عليه المختصر والرسالة ومقدمة الأشعري في التوحيد[109]. وبعد أن ترك استاذه الدوكالي توجه إلى سيدي العبادي وهو رجل من الاولياء المشهود لهم بالتقوى والصلاح ومن الاولياء المعروفين. وقد استقبله سيدي العبادي احسن استقبال وأكرم وفادته. وحينما أظهر له سيدي عبد السلام رغبته في البقاء معه كتلميذ يتلقى منه العلم والتلقين قال له: يا عبد السلام إنك من رجال الله الذين يؤخذ عنهم، وما عندنا من علوم الدين والحقيقة والتصوف لا يساوي شيئا مما عندك. وتوجه بعد ذلك لمقابلة سيدي عبد النبي عبد المولى وسيدى على العوسجي وسيدى محمد بن عبد الرحمن الحطاب فكانت إجابتهم جميعاً له: لقد وصلت إلى مرتبة العارفين وانه لا يوجد الآن في هذا العصر من يعطيك بل انك تعطي[110].

وقد كان عبد السلام الأسمر كثير العبادة دائم الذكر، وكانت تعتريه حالة

106- الزاوي ص 169 وذكره اسحاق المليجي «بن حميدة « بدلا من «حميد» ص 1 من كتابه سيدي عبد السلام الأسمر
107- إسحاق المليجي ص 16
108- المرجع ص 22 ، 23 والزاوي ص 169
109- إسحاق المليجي ص 23 ، 24 والزاوي ص 169
110- إسحاق المليجي ص 72-74

من الوجد والهيام يتحرك فيها حركات لا إرادية، وكان يستخدم في مجالسه الدف والبندير والغناء والرقص، وقد لاقى نقداً قاسياً مراً من كثيرين بسبب ذلك. وممن نقده سيدي سالم الحامدي وسيدي سعيد التطاوني والشيخ سالم ابن طاهر والشيخ كريم الدين البرموني، ولكن الأخير رجع عن نقده وأصبح من مريدي الشيخ عبد السلام والف أهم كتاب عنه[111]. وبسبب ما تعرض له من نقد وهجوم جلا عن زليطن، فذهب إلى جبل زغوان بتونس ومكث فترة هناك يتعبد ثم عاد إلى زليطن. واستمر هجوم الحساد عليه حتى اضطر إلى الخروج من زليطن مرة أخرى. وتكرر خروجه وعودته سبع مرات ثم اعتزم مغادرتها نهائيا فاتجه إلى ساحل الأحامد وهو ما يعرف الآن بالاسم الجديد «سوق الخميس». ولم يطب له المقام هناك كذلك اذ حقد عليه كثيرون وحاولوا قتله فقال فيهم سيدي عبد السلام شعراً منه:

يالله يا واحد   يامحيي العبد بعد الممات
شق وطن الأحامد   حتى يبقى على ثلاث شضيات
واجعل وكرهم بايد   يارب ياقابل الدعوات[112]

وبعد أن غادر ساحل الأحامد قصد طرابلس وأقام بمسجد الناقة وهو من المساجد الأثرية ويقع قريبا من سوق الترك ولكنه أخرج من طرابلس بامر الوالي فعز عليه ذلك وقال شعرا أوله:

اذا ظلم الأمير وكاتباه   وعم الحسد في كل البلاد[113]

وقصد بعد ذلك غريان وأخرج منها فذهب إلى قلعة وادي سوفجين (سوف الجين) ومكث فيها سبع سنوات ثم انتقل إلى تاورغا ومن تاورغا ذهب إلى مصراتة ثم إلى موطنه زليطن.

وقد كان عبد السلام الأسمر على جانب كبير من العلم وكان يقرأ لتلاميذه في زاويته بزليطن التوحيد، ومختصر خليل في الفقه، والحكم لابن عطاء الله، والنحو، والمنطق.

111- المرجع ص 86-95 والزاوي ص 170
112- إسحاق المليجي ص 102 – 112 والزاوي ص 170
113- إسحاق المليجي ص 112-132 والزاوي ص 170 ، 171

ومن الكتب التي ألفها: «العظمة في التحدث بالنعمة» و «الأنوار السنية في أسانيد الطريقة العروسية» و «التحفة القدسية لمن أراد الدخول في الطريقة العروسية» وكلها وغيرها أمر بالمعروف ونهي عن المنكر.

وقد توفي الأسمر سنة 981 ودفن بزاويته في زليطن. وانتهبت معظم مؤلفاته. وضاعت كتبه حينما انتهبت زاويته في فتنة قتل ابنه عمران سنة 995 [114].

8- عمران بن عبد السلام الأسمر المتوفى سنة 995. كان من العلماء العاملين. والنساك العابدين. اشتهر بالكرم وذاع صيته بعد والده. وجاهر بالعداوة يحي الزرهوني فقتله في سوق بلدة اولاد غيث. ونهب الزرهوني مكتبة الشيخ وزاويته وكان فيها نحو 500 مجلد من الكتب الثمينة موقوفة على الطلاب ضاعت كلها. ونهب ما كان بالزاوية من الأموال والارزاق. ودفن عمران بقرب زاوية والده وقبره معروف[115].

9- عمر بن عبد الرحمن بن عبد العزيز السعيدي المخزومي أبو حفص الطرابلسي مولداً وداراً. قال عنه البرموني: ولد بمدينة طرابلس سنة 906 وتوفي والده قبل اليوم السابع من عمره فكفلته جدته. ولما كبر أرسلته إلى الكتاب. وحفظ القرآن في صغره. ورحل إلى تونس في طلب العلم. وأخذ عن مشايخها. ثم ارتحل إلى الأزهر وتتلمذ على علمائه. ثم رجع إلى طرابلس واجتمع بالشيخ عبد السلام الأسمر وأخذ عنه التلقين. ودرس بمدينة طرابلس. ثم انتقل إلى الصابرية (قرية من قرى مدينة الزاوية تقع غربيها بنحو 4 ك م) وبقي بها إلى ان توفي في صفر سنة 999هـ. ودفن بمسجده المعروف بالصابرية[116].

10- كريم الدين البرموني المصراتي. ولد بمصراتة سنة 893هـ. ووالده مصري جاء إلى مصراتة مع الشيخ أحمد زروق لما رجع من مصر. وقد ابتدأ

114- إسحاق المليجي ص 112-132 والزاوي ص 170 . 171
115- المرجع ص 239
116- المرجع ص 227

البرموني تعليمه في زاوية الزروق على الشيخ أبي بكر المصراتي. ولما مات تحول إلى زاوية الشيخ المحجوب حيث درس على سيدي عبد الرحمن بن بركات وكان من كبار الآخذين عن سيدي عبد السلام الأسمر. وقد حفظ البرموني القرآن وهو ابن تسع سنين ثم توجه لزاوية الزروق مرة ثانية فوجد بها الشيخ شمس الدين اللقاني المصري فقرأ عليه الأجرومية والألفية والعقائد السنوسية ولازم الشيخ اللقاني إلى أن رجع إلى بلده مصر وبعد ذلك انتقل البرموني إلى مدرسة الرخام بمدينة طرابلس لتعلم السنة والفرائض والفلك والحساب وبعد ذلك رحل إلى مصر ولازم شمس الدين اللقاني وأخذ عنه العلوم والآداب إلى أن توفي فانتقل إلى غيره من العلماء الأعلام. وبعد ذلك ذهب للحج والزيارة والالتقاء بالأساتذة. ثم رجع إلى طرابلس وزار سيدي عبد السلام ثم مكث عنده إلى أن توفي. وبعد ذلك رجع إلى مصر وأقام بطنتده (طنطا) ثم رحل منها - نتيجة حسد الحساد - إلى مكة. وقد قال صاحب نيل الابتهاج ما نصه: «كريم الدين البرموني من شيوخ العصر. أخذ عن الناصر اللقاني وغيره.. كان حياً بمكة سنة 998هـ». وقد أخذ عن البرموني تلاميذ كثيرون منهم الشيخ إبراهيم اللقاني وأبو الحسن علي الأجهوري.

ويعد البرموني من أعلام التاريخ لتأليفه تاريخه المشهور «روضة الأزهار ومنية السادات الأبرار» الذي ذكر فيه ما وصله من أخبار عن العلماء الصالحين وكراماتهم. وبعض قبائل العرب وانسابهم. وتعرض لأنساب الأشراف الموجودين بطرابلس. وهو مجموعة تاريخية لم يعرف من كتب مثلها في طرابلس. كما أنه مؤلف أهم كتاب عن سيدي عبد السلام الأسمر. وأخرج الاستاذ إسحاق إبراهيم محمد المليجي كتابه عن سيدي عبد السلام الأسمر على ضوء كتاب البرموني. كذلك ترك البرموني أثرا في الفقه. اذ شرح «خليل» في جزءين[117].

ولم أوفق في العثور على عالم أباضي ذي قدر في هذا القرن. وإن من كان من غير المعقول خلوه من العلماء

وليس ما سبق هو كل جهود علماء نفوسة في مجال الدراسات

117- اسحاق المليجي ص 93 . 227 230- والزوي : أعلام ص 255 . 256

الإسلامية. فقد كان لهم إنجازات اخرى هامة أذكر منها على سبيل المثال[118]:

1- تفسير هود بن محكم الهواري. وقد وصفه الشماخي بقوله: وهو كتاب جليل في تفسير كتاب الله لم يتعرض فيه للنحو والإعراب بل على طريقة المتقدمين[119].

2- الديوان الذي ألفه في الفقه سبعة من كبار علماء نفوسة في غار أمجماج ويحتوي اثنى عشر جزءاً[120]. والسبعة هم: أبو عمران موسى بن زكريا المزاتي، وجابر بن سدرمام، وكباب بن مصلح، وأبو مجبر توزين، وأبو عمرو النملي، وأبو زكريا يحي بن جرناز، وأبو عبد الله محمد بن مانوج. وقد تولى نسخه أبو عمران موسى بن زكريا لما عرف به من جودة الخط فنسب إليه الكتاب وليس له - على حد تعبير أحد علمائهم - «ليس له فيه فضل سوى فضل البنان. والا فهو كأحدهم في فضل البيان..» ويوجد بدار الكتب المصرية مخطوط يحمل اسم «أحكام الديوان» ومؤلفه اباضي – بدون شك – ينقل عن أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة وغيره. ويقع في ثلاثة أجزاء. وذكر مفهرسه ان المؤلف عشرة من الأباضيين (ولا أدري من أين أتى بهذا وليس في الكتاب ما يشير إليه). وربما كان هذا الكتاب هو نسخة «للديوان» المذكور وان كان يعكر على الاستنتاج أن المخطوط في ثلاثة أجزاء فقط وجاء في آخره: «تم الجزء الثالث من كتاب الأحكام وبتمامه تم جميعه». والكتاب يعالج أمور الأحكام وآداب القاضي وما يتعلق بالأحكام والقضاء من مسائل. ومن أبوابه: باب في التنزه عن القضاء – باب فيمن ينبغي أن يكون قاضياً وفيمن يولي القضاء من الناس – باب في أرزاق القاضي – باب في أدب القاضي – باب فيما لا ينبغي للقاضي أن يفعله – مسألة في الدعوى – باب في مانع الحق – باب فيمن ينبغي للحاكم ان يتخذه كاتباً – باب في كتاب القاضي إلى

118- لم تسعفني المراجع الأباضية التي تحت يدي في تحديد الفترة الزمنية التي تمت فيها هذه الأعمال أو بعضها ولذلك لم أجد بدا عن عزلها عن المادة الموزعة على القرون برغم القطع بأن هذه الأعمال قج تمت خلال الفترة موضوع الدراسة.

119- السير ص 381 وذكر اطفيش أنه في اربع مجلدات وانه موجود (مقدمة كتاب الوضع ص 11)

120- وذكر اطفيش انه يقع في خمسة وعشرين جزءا (مقدمة كتاب الوضع ص 9)

القاضي – باب في الدعوى – ماتجوز فيه الدعوى وما لاتجوز فيه – الدعوى في البيوع – الدعوى في العيوب – الدعوى في الشفعة... – باب الإقرار وما يتصل به – باب الشهادات.. – باب الأيمان -.. وغير ذلك[121].

3- «ديوان العزابة» الذي اشترك في تأليفه عشرة من الفقهاء الكبار وهم:

أبو طاهر إسماعيل بيدير – أبو العباس بكر – يخلفتن بن ايوب – محمد بن صالح النفوسي – يوسف بن موسى من قنطرار – يوسف بن عمران بن أبي عمران من تيجديت – موسى بن زكريا المزاتي – عبد السلام بن سلام – جابر ابن حمو – إبراهيم بن أبي إبراهيم. وقد سماه بعضهم «ديوان الأشياخ». وذكر الشماخي في سبب تأليفه «وقد اجتمع العزابة على تأليف كتاب في المذهب ليسهلوا على المبتدئين حفظه فصنفوه في 25 جزءاً». وروى بعضهم أنه يقع في 24 جزءاً. ومن أجزائه: كتاب الأحكام (في 3 أجزاء) - كتاب الصلاة (في 3 اجزاء) – كتاب الزكاة (في جزءين) – كتاب البيوع (في جزءين) - كتاب الطهارات (جزء) – كتاب الصيام – (جزء) كتاب الرهن (جزء) – كتاب الإجارات (جزء) – كتاب الديات والقصاص (جزء)... الخ الاجزاء. وقد ذكر دبوز أنه في عشرة اجزاء فقط وأنه يوجد مخطوطاً في خزائن وادي ميزاب[122].

4- نوازل نفوسة للإمام عبد الوهاب الرستمي. وهو مجموعة الفتاوي الشرعية التي كان علماء نفوسة يستفتونه فيها. وأسلوب الكتاب يدل على غزارة علم وفصاحة وتمكن من العربية وعمق فهم وسعة باع. ومنه نسخ مخطوطة في ميزاب وجبل نفوسة وجزيرة جربة[123].

وبعد: فقد كان لعلماء نفوسة الأباضيين فضل كبير في النهوض بالدراسات الإسلامية. وقد ذكر بعضهم مشايخ نفوسة وما أدركوه من

121- رسالة فيها تقييد كتب أصحابنا ورقة 207 وسير الشماخي ص 401 وأحكام الديوان مخطوطة دار الكتب المصرية وفهرس مخطوطات دار الكتب عمل فؤاد سيد وسير ابي الربيع ص 54 وراجع دبوز 388/3

122- الشماخي ص 431 ورسالة فيها تقييد كتب أصحابنا ورقة 207 وراجع دبوز 389/3

123- دبوز 373/3

الورع والعلم فقال احد الحاضرين: بلغت نفوسة في دين الله مالم تبلغه الأنبياء. ولكن نهره الشيخ أبو الربيع سليمان بن موسى قائلاً: تب إلى الله وانزع؛ لأن درجة الأنبياء لا تدركها الاولياء[124].

وهناك ظاهرة بارزة تلفت نظر من يتصفح كتاب «نفحات النسرين» وهي كثرة المتصوفة والزهاد في ليبيا خلال فترة دراستنا. وأقدم من وجدته أشار إليه منهم هو الشيخ عبد الله الشعاب الذي وصفه النائب بقوله «العارف بالله قطب القطاب». وبقوله «وكان رحمه الله تعالى من كبار الصوفية واحد الزهاد الورعين»[125]. وتلا ذلك اجيال متلاحقة أشير إلى بعضهم فيما يأتي:

1- أبو نزار خطاب البرقي الطرابلسي.

2- أبو عثمان سعيد بن خلفون الحساني.

3- سمدونة[126].

4- أبو جعفر المتعبد بالمنستير. وكان فاضلاً مجتهداً. إماماً مرابطاً أربعين سنة ومن المستجابين في الدعاء وتوفي سنة 346 [127].

5- عبد الوهاب القيسي. قال عنه النائب: « العارف بالله تعالى الناسك العابد الزاهد.. النائل لأسرار المعارف القدسية.. عروس الصوفية له كرامات كثيرة ومآثر شهيرة..[128]

6- إسماعيل بن يربوع.

7- محمد بن عبد الرحمن الحطاب.

8- محمد بن علي الخروبي.

9- قاسم بن قلاع[129].

124- الشماخي ص 541
125- ص 68
126- صفحات 78-81 وقد سبق الحديث عن ثلاثتهم
127- ص 82
128- ص 83 . 84
129- صفحات 103 . 104 107- . 116 . 117 . 118 وقد سبق الحديث عن بعضهم

10- أحمد زروق.

11- سيدي عبد السلام الاسمر[130].

وهناك فرع وثيق الصلة بالدراسات الإسلامية لاقى عناية من الليبيين كذلك وهو التاريخ الإسلامي. واشهر من كتب فيه:

1- أبو سعيد عبد الرحيم بن عبد الله بن عبد الرحيم بن أبي زرعة البرقي. المتوفي سنة 286هـ. روى عن عبد الملك بن هشام المغازي. وكان ثقة. كما روى السيرة عن ابن هشام[131].

2- أحمد بن عبد الله بن عبد الرحيم بن أبي زرعة البرقي. حدث بالمغازي عن عبد الملك بن هشام وكان ثقة ثبتاً. وله تاريخ[132]. كما كان أديباً وشاعراً. وسياتي له ذكر في الشعراء فيما بعد.

3- أبو العباس عبد الله بن عبد الرحم الأجدابي المتوفى سنة 384. كان عالماً فاضلاً عارفاً بالتاريخ وكان ثقة ودفن بباب سلم بتونس[133].

4- أبو عبد الله الحسين بن عبد الرحمن الأجدابي. كان واحد زمانه علما وفضلاً. كما كان مؤرخا ثقة ثبتا توفي سنة 432 هـ[134].

5- أبو الحسن علي بن عبد الله بن مخلوف الطرابلسي. قال عنه النائب: «كان له اهتمام بالتواريخ وصنف تاريخاً لطرابلس. وكان فاضلاً في فنون شتى. وسافر إلى الحج فأدركته المنية بمكة وذلك عام 533هـ[135].

6- كريم الدين البرموني المصراتي المتوفى في أواخر القرن العاشر الهجري وقد سبق الحديث عنه.

ولم يقصر علماء نفوسة في هذا الميدان. وان اقتصرت مؤلفاتهم على تأريخ رجالهم وحوادثهم. وذكر طبقاتهم. وأشهر من كتب في هذا

130- سبق الحديث عنهما
131- اعلام ليبيا ص 40 . 169
132- أعلام ليبيا ص 40
133- المنهل العذب 105/1 واعلام ليبيا ص 190
134- المنهل العذب 114/1 واعلام ليبيا ص 25 . 26 . 100
135- نفحات النسرين ص 97 . 98 واعلام ليبيا ص 212

الخصوص:

7- أحمد بن سعيد الدرجيني الفقيه الأباضي الذي عاش في القرن السابع الهجري. وقد ألف كتابه المشهور «طبقات المشايخ» ومنه نسخ مخطوطة في أماكن عدة منها دار الكتب المصرية. ويقع كتابه في جزءين نقل في أولهما تاريخ أبي زكريا مع زيادات أضافها. وضمن ثانيهما سيرا مفصلة لأئمة المذهب الأباضي ورتبه على طبقات. كل طبقة تضم خمسين سنة ووصل به إلى نهاية القرن السادس الهجري. وسبب تأليفه هذا الكتاب أن اباضية عمان ارسلوا رسولاً إلى المغرب ليأتي لهم بكتاب يتضمن سير الأوائل ومناقب الأسلاف من أهل المغرب. ولما لم يجد طلب من الدرجيني تأليف هذا الكتاب ففعل[136].

8- أبو العباس بدر الدين أحمد بن عثمان بن سعيد بن عبد الواحد... بن عامر الشماخي... أما عمله التاريخي فهو كتابه المشهور «السير» الذي يتناول تاريخ الأئمة الأباضية ويرصد حركات العلم والعمران في مناطق نفوذ الأباضية بالمغرب منذ عرف المذهب الأباضي حتى اوائل القرن العاشر الهجري. ويقول الاستاذ معمر في وصف هذا الكتاب: عن طريقة أبي العباس.. طريقة فريدة.. فإن المؤلفين في التاريخ غالبا ما تجذبهم حوادث السياسة ويتتبعون الانقلابات والمعارك العسكرية وسير الملوك والحكام ويعتقدون انهم بذلك أرخوا للشعوب والأمم.. ولم ينجرف الشماخي مع تيار السياسة الا بمقدار وانما قدم لنا الصورة الحقيقية لجانب من الأمة المسلمة في صورة الرجل الذي يحمل الفأس.. وفي الشيخ العالم القدوة.. وفي الطفل اليتيم الذكي.. وفي المجالس العلمية.. وفي صورة الأحاديث والمشاورات والفتاوى[137].

136- دائرة المعارف الاسلامية – الدرجيني
137- معمر : الأباضية 128/3 , 129

الفصل الثاني
الأدب

الخصوص:

7- أحمد بن سعيد الدرجيني الفقيه الأباضي الذي عاش في القرن السابع الهجري. وقد ألف كتابه المشهور «طبقات المشايخ» ومنه نسخ مخطوطة في أماكن عدة منها دار الكتب المصرية. ويقع كتابه في جزءين نقل في أولهما تاريخ أبي زكريا مع زيادات أضافها. وضمن ثانيهما سيرا مفصلة لأئمة المذهب الأباضي ورتبه على طبقات. كل طبقة تضم خمسين سنة ووصل به إلى نهاية القرن السادس الهجري. وسبب تأليفه هذا الكتاب أن اباضية عمان ارسلوا رسولاً إلى المغرب ليأتي لهم بكتاب يتضمن سير الأوائل ومناقب الأسلاف من أهل المغرب. ولما لم يجد طلب من الدرجيني تأليف هذا الكتاب ففعل[136].

8- أبو العباس بدر الدين أحمد بن عثمان بن سعيد بن عبد الواحد... بن عامر الشماخي... أما عمله التاريخي فهو كتابه المشهور «السير» الذي يتناول تاريخ الأئمة الأباضية ويرصد حركات العلم والعمران في مناطق نفوذ الأباضية بالمغرب منذ عرف المذهب الأباضي حتى اوائل القرن العاشر الهجري. ويقول الاستاذ معمر في وصف هذا الكتاب: عن طريقة أبي العباس.. طريقة فريدة.. فإن المؤلفين في التاريخ غالبا ما تجذبهم حوادث السياسة ويتتبعون الانقلابات والمعارك العسكرية وسير الملوك والحكام ويعتقدون انهم بذلك أرخوا للشعوب والأمم.. ولم ينجرف الشماخي مع تيار السياسة الا بمقدار وانما قدم لنا الصورة الحقيقية لجانب من الأمة المسلمة في صورة الرجل الذي يحمل الفأس.. وفي الشيخ العالم القدوة.. وفي الطفل اليتيم الذكي.. وفي المجالس العلمية.. وفي صورة الأحاديث والمشاورات والفتاوى[137].

136- دائرة المعارف الاسلامية – الدرجيني
137- معمر : الأباضية 821/3 , 921

تمهيد:

يدخل تحت هذا العنوان نوعان من المادة: أولهما: الإنتاج الأدبي من شعر ونثر. وثانيهما: الدراسات المتعلقة بتأريخ الأدب وتوجيهه ونقده.

أما الإنتاج الأدبي فقد كان وفيرا ، سواء في مادته الشعرية أو النثرية. وإن كان - في حدود المادة التي وصلتنا - أصغر حجما. وأقل جودة من نظائره في بعض البلدان العربية الأخرى. ونقول: في حدود المادة التي وصلتنا لأن هناك أخبارا وأسماء وإشارات يتناقلها المؤلفون وتحويها بطون كتب الأدب تؤكد وجود مادة اخرى كثيرة ضاع بعضها وطمر بعضها الآخر داخل خزائن الكتب والمخطوطات .

وحتى نبتعد عن التعميمات ما أمكن. رأينا أن نفصل الإنتاج الأدبي للأباضيين عن غيره. لما للأول من سمات خاصة تميزه. ولهذا قسمنا البحث إلى قسمين رئيسين هما:

-1 الأدب في ظل الأباضيين
-2 الأدب في سائر انحاء ليبيا

وفي كلا الأدبين سنتناول كلاً من الشعر والنثر على حدة. ولكن في تناولنا للشعر غير الأباضي سنقسم المادة - نظرا لكثرتها النسبية - إلى فترات أربع هي:

أ- الشعر إبان حكم الولاة 23هـ - 184هـ.

ب- الشعر في عهد الأغالبة 184هـ - 296 هـ

ج- الشعر تحت حكم الفاطميين ومن بعدهم حتى قيام الموحدين 296هـ - 555هـ.

د- الشعر تحت حكم الموحدين ومن بعدهم حتى بداية العصر التركي 555هـ - 958هـ.

أمــا النثــر بنوعيه، والشــعر عند الأباضيــين فســنتناول كلا منه جملة واحــدة، نظــرا لندرة المادة التــي تحت أيدينا، وعدم إســعاف المراجــع لنا بقدر يسمح بالتحليل والتتبع التاريخي والمقارنة واستخلاص النتائج.

1- الأدب في ظل الأباضيين

معلوماتنــا عن هــذا الأدب جد ضئيلة؛ لقلة المراجــع التي حفظت نماذج منــه - من ناحية - ولصعوبة الحصول على كثير من هذه المراجع - من ناحية ثانية - ولعدم اعتناء الأباضيين بوجه عام بتســجيل أدبهم - من ناحية ثالثة - فيما عدا ما له غرض ديني أو سياسي أو تعليمي.

ومــع ذلك يمكننا ان نقــول ان جانب النثــر عند الأباضيين قــد فاق جانب الشعر، وانه جاء إلينا في شكل خطب أو وصايا أو رسائل ديوانية أو أقاصيص تعليمية أو حكم أو أجوبة.

أ- النثر

أما الخطب فمن أمثلتها:

1- خطبة أبي الخطاب المعافري[1] في أهالي طرابلس يحثهم على الجهاد وغــزو القيــروان لظلم حكامها، ومما جــاء فيها بعد حمــد الله والثناء عليه والصــلاة على نبيه: « أطمع لمن مات في هــذه الغزوة الجنة الا من فيه احدى ثلاث خصال: قاتل نفســا ظلمــا، وقاعد على فراش حــرام، ومن في يده أرض مغصوبــة، والمخرج منها ان يتبرأ من المرأة، ويتــوب إلى الله، وليتبرأ من الارض، وليشهد على تركها، وليقد نفسه القاتل إلى أولياء المقتول، فإن لم يجدهم فليدفع نفسه في سبيل الله ..»[2].

2- وهــذه خطبة ذكر صاحب «الجواهر المنتقاة في اتمام ما أخل به كتاب الطبقات « أنها خطبة المســلمين يوم الجمعة أيام يوســف بن محمد رضي الله عنه[3]: «الحمد لله الذي ابتدأ الخلق بنعمائه، وتغمدهم جميعا بحســن

1- يعــد ابو الخطــاب المعافري رابــع وال أباضي علــى طرابلس واولهم عبد الله بن مســعود التجيبي وثانيهم الحارث بن تليد الحضرمي وثالثهم اسماعيل بن زياد النفوسي (دبوز 2/410-415) وقد تم اختياره بعد رجوعه مع سائر افراد البعثة التي تتلمذت على زعيمهم ابي عبيدة مســلم بن ابي كريمة في البصرة وذلك اواخر عام 139 أو اول عام 140 يقول الشــماخي: ولما رجعوا الى بلادهم وأنســوا من انفسهم قوة اجتمع من اهتم بأمور المسلمين ومن له نظر من الشــيوخ بموضع يقال له «صياد» غربي مدينة طرابلس فاتفــق رأيهم على تولية ابي الخطاب المعافري وكانوا يظهرون ان اجتماعهم بســبب أرض ارادوا قســمتها وقيل بسبب رجل وامرأة اختصما (السير ص 124 ، 125)

2- السير ص 128

3- هو ابو حاتم يوســف بن محمد بن افلح بن عبد الوهاب احد أئمة الدولة الرســتمية التي حكمــت بين عامي 144 و 296هـ وكانت حدود الدولة الرســتمية الشــرقية تصل الى خليج

بلائه.. لا يشتمل عليه زمان، ولا يحيط به مكان. خلق الأماكن والأزمان، ثم استوى إلى السماء وهي دخان، فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا اتينا طائعين، فقدرها احسن تقدير، واخترعها من غير نظير، لم يرفعهما بأعمدة تدرك بالمعاينة، ولم يستعن عليها بأحد استكبارا عن الشركة والمعاونة، وزينها للناظرين، وجعل فيها رجوما للشياطين، فتبارك الله احسن الخالقين.. جعل القرآن إماما للمتقين، وهدى للمؤمنين، وملجأ للمتنازعين، وحكما بين المتخالفين، ودعا أولياءه المؤمنين إلى اتباع تنزيله، وأمرهم عند التنازع في تأويله بالرجوع إلى قول رسوله، فقال الله عز وجل: يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ..»[4].

والخطبة الأولى تبدو عليها البساطة التعبيرية، وعدم الالتفات إلى الأناقة اللفظية، كما انها تخاطب العقل، وتجنح إلى الإقناع، وترسم السبيل امام المحاربين لينفروا للجهاد بروح صافية، ونفس مجردة، وهي تذكر بما سبق ان كتب به عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص ومن معه من الأجناد: «أما بعد فإني آمرك - ومن معك من الأجناد - بتقوى الله على كل حال؛ فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة في الحرب، وآمرك ومن معك ان تكونوا اشد احتراسا من المعاصي منكم من عدوكم؛ فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وانما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة؛ لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم ..»[5].

أما الخطبة الثانية فتبدو فيها الأناقة اللفظية حتى لا تكاد تخلو منها جملة واحدة، وتتنوع المحسنات فيها بين الجناس والسجع والمقابلة كما أنها - لتتناسب الغرض منها - قد اعتمدت في أفكارها ومعانيها على القرآن الكريم .

وأما **الوصايا** فمن أمثلتها:

1- ما أوصى به قومه أبو زكريا السمح (عامل الإمام عبد الوهاب على طرابلس) حين حضرته الوفاة: « أوصيكم بتقوى الله تعالى، والاتباع لما

سرت ولها علاقات متينة بمصر (دبوز 301/3 وانظر الأزهار الرياضية ص 265)

4- ورقة 105

5- العقد الفريد 130/1

امركم به، والانتهاء عما زجركم عنه، وبطاعة امامكم عبد الوهاب، وتأييده، ونصرته، وما دام مستقيما على الحق الذي مضى عليه السلف الصالح من المسلمين»[6].

2- ماروى من ان جماعة من العزابة طلبوا من «تابركانت» إحدى العالمات الأباضيات الشهيرات أن توصيهم فقالت: وكيف أوصيكم، وأنتم الرجال، منكم الرسل والأنبياء، ومنكم الامراء والوزراء، ومنكم المؤذنون والأئمة، قالوا: لابد من ذلك؛ فإن الذكرى تنفع المؤمنين. قالت: إياكم وكثرة الكلام لئلا تكذبوا واياكم وكثرة الايمان لئلا تحنثوا واياكم وكثرة الإدلال لئلا تسرقوا، وإياكم والتهمة لئلا تظلموا.. ثم ترجمت إلى اللغة البربرية قول بعض الحكماء: نق العمل فإن الناقد بصير، جدد السفينة فإن البحر عميق، كثر الزاد فإن السفر بعيد، خفف الحمل فإن العقبة كئود..[7].

3- وما أوصى به أبو محمد اللواتي[8] قومه: «.. ثم اني موصيكم إخواني ونفسي بتقوى الله العظيم في السر والإعلان، وباتباع آثار أهل دعوة المسلمين، فإن الاتباع اولى.. من الابتداع، وعليكم بالائتمار لما أمر الله به من طاعته، والانتهاء عما نهى عنه من معصيته، فاقتفوا آثارهم، فإن الله أوعد بالنار من خالفهم، كما أوعد بها من خالفه وخالف رسوله؛ اذ قال تبارك وتعالى: ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين .. الآية، فاتقوا الله اخواني، واحذروا مخالفة آثار ائمتكم في القليل والجليل، فإنه قيل في المثل: حيث مال الحمل وقع، واحذروا كثرة مجالسة المخالفين، ففي ذلك أثر مشهور عند المسلمين كالذي يروى عن أبي نوح وابي خزر رضي الله عنهما، وتجنبوا مخالطتهم، والميل إليهم، وكثرة مطالعة تواليفهم، وحذروا من ذلك سواكم، الا ترون مسألة السخط والرضا قد وقعت عند من وقعت من أهل الدعوة من كتاب أحمد بن الحسين الضليل،

6- الشماخي: السير ص 156 ، والازهار الرياضية 148/2

7- معمر الأباضية 252/3

8- هو ابو محمد عبد الله بن محمد ناصر بن ميال بن يوسف وزير الإمام افلح وكان أصله من برقة وصفه الدرجيني بقوله:» نجيب النجباء وامام الادباء المعتني بحفظ الاخبار وتقييد سير الأخيار درس العلوم زمانا وصحب الأشياخ ضروبا والوانا حتى غدا وافر البضاعة في كل الفنون ...» (الطبقات ورقة 195) وانظر ما سبق عنه ص 147

فرسخت في قلوبهم ودانوا بها، فضلوا وأضلوا.. وأحذركم الترك بعد الجد، وعليكم بالحذر من الانهماك في الشر، والخلاف بعد الزجر عنه؛ فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهي عن ذلك وغضب منه وقال: أمنهمكون انتم فيها بعد ما جئتم بها بيضاء نقية حنيفية سمحة سهلة ..»[9].

وواضح ان الوصية الأولى تجمع بين الغرض الديني والسياسي. أما الثانية فتهذيبية تأديبية. وأسلوب الوصية الأولى سهل سلس، لا يجنح إلى الحلى اللفظية، وان اشتمل على محسن معنوي يتمثل في المقابلة بين المعنيين المتضادين في قوله: والاتباع لما أمركم به، والانتهاء عما زجركم عنه. وهو محسن خفي لا يحتوي على أي موسيقى لفظية تحس بها الأذن أو ترن في السمع. أما الوصية الثانية فواضح ما فيها من تقسيم الفقرات إلى جمل متساوية في الطول تقريبا. كما يقرع السمع فيها انهاء جملها بحرف مد يسمح بإطالة الكلمة عند الوقف، حتى في نصفها الأخير الذي ينتهي بحرف ساكن نظرا لالتزام حرف المد قبله. وتمتاز هذه الوصية كذلك بما فيها من تركيز، وحسن تصوير تخلو منهما الوصية الأولى. أما الوصية الثالثة فأوضح ما فيها الالحاح على الفكرة، وكثرة ضرب الأمثال، والاستشهاد بالقرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، وأحداث التاريخ.

أما الرسائل **الديوانية** فكثيرة، وسنختار منها النماذج الآتية:

1- كتب العباس بن أحمد بن طولون[10] من لبدة إلى أبي منصور النفوسي رئيس الأباضية: «أقبل بسمعك وطاعتك، والا وطئت بلدك بخيلي، ورجلي وابحت رحمك». فرد عليه النفوسي «أما أنك أقرب إلى الكفار مني وأحقهم بمجاهدتي. فقد بلغني من قبيح افعالك ما لا يسعني التخلف معه عن جهادك. وأنا على أثر رسالتي إليك[11].

9- الطبقات ورقة 198

10- حاول العباس الاستيلاء على افريقية سنة 266 فاستولى على لبدة ولكنه عجز بعد ذلك عن مواجهة جيش ابن الأغلب والأباضية (المواعظ والاعتبار للمقريزي مقتبس في إحسان عباس ص 187)

11- الأزهار الرياضية ص 257 ، 258

2- رسالة من الإمام أفلح بن عبد الوهاب إلى نفاث بن نصر النفوسي[12] وفيها يقول: « من أفلح بن عبد الوهاب إلى نفاث بن نصر. أما بعد: فالحمد لله المنعم علينا، والمحسن إلينا، الذي بنعمته تتم الصالحات، ولا يهتدي مهتد الا بعونه وتوفيقه. فله المنة علينا، ولا منة لنا عليه. وهو المحسن إلينا اذ هدانا لدينه، وجعلنا خلفا من بعد أسلافنا الصالحين، وأئمتنا المهتدين ...

قد كتبت إليك غير كتاب، أنصح لك فيه وأدعوك إلى رشدك. وفي كل ذلك لا يبلغني من عمالنا فيك الا ما أكره، ولا أرضاه لدين ولا دنيا، حتى حررتُ كتابا منشورا إلى عمالنا، امرتهم فيه بخلع كل من خالف سيرة المسلمين وابتدع غير طريقتهم، وسار بغير سيرتهم... فكتبت إليَّ كتابا كأنك تسخط ذلك. اترى اني أوازر من ابتدع في ديننا؟ كلا! ما كنت بالذي يفعل ذلك، ولا أوازر من يسعى في خلافنا ما كنا على الهدى.

ثم قلت: أنا أمرنا في كتابنا بالبراءة منك. فإن كنت كما كتب به إلينا عمالنا فأنت محقوق بالبراءة، ومقصى من جماعتنا؛ لأننا ما كتبنا ذلك الا على ان كلَّ من ابتدع في ديننا خلاف أسلافنا... فهو محقوق بالبراءة، ومقصى من جماعة المسلمين. فإن تكن أنت منهم، فأنت الذي أبحت لنا البراءة منك، وأحللت بنفسك ما لابد لنا أن نفعله بك وبغيرك. وان لم تكن كذلك فأظهر الانتفاء من ذلك، وكذّب عن نفسك ما قيل عنك لتكون عندنا بالحالة التي تستحقها وتستوجبها...

واني غير كاتب إليك كتابا بعد هذا، الا ان انتهي إلينا منك ما نحبه فننزلك من انفسنا بحيث تحب. والله المستعان، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم[13].

3- رسالة من الإمام عبد الوهاب إلى أهل طرابلس في مشكلة تتعلق بالولاية وتعيين كبار الموظفين، وهي رد على رسالة بعثوا بها إليه: « أما بعد:

12- خرج نفاث هذا على الحكام الرستميين واخذ يطعن في ائمتهم وينقد الامام افلح في اشياء منها لبس الطرطور والخروج الى الصيد (انظر: الأزهار الرياضية 2/195-198) وتبادل نفاث وافلح عددا من الرسائل كان آخرها ما كتب به افلح اليه وهي الرسالة الثالثة التي معنا .

13- الأزهار الرياضية 205/2

فإني آمركم بتقوى الله، والاتباع لما امركم به، والانتهاء عما نهاكم عنه، وقد بلغني ما كتبتم إليّ به من وفاة السمح، واستخلاف بعض الناس «خلفا»، ورد أهل الخير ذلك، فإن من ولى «خلفا» من غير رضا إمامه فقد أخطأ سيرة المسلمين، ومن أبى توليته فقد اصاب، فإذا أتاكم كتابي هذا فليرجع كل عامل استعمله منكم السمح على عمالته التي ولي عليها الا «خلفا» حتى يأتين أمري، وتوبوا إلى بارئكم، وراجعوا التوبة لعلكم تفلحون»[14].

أما الرسالة الأولى فتتميز بالتركيز والايجاز الشديدين، وكأن الكاتب - وهو يستعد لخوض المعركة الحربية - لايجد من الوقت ما يسمح بأكثر من ذلك، ولعل في هذا الايجاز من البلاغة ما يغني عن تسطير الصفحات الطوال، وكأن هذا الايجاز يعني انه لا مجال للكلام، وانما المجال للسنان، وقد كان.

ورسامة الإمام أفلح إلى نفاث تتسم بالطول والإطناب، فهي أطول ما ذكرنا ولكننا اختصرناها، وهي تناسب في طولها مقام المراوحة بين الترغيب والترهيب، والارخاء والشد، والإدناء والإقصاء، التي سار عليها الكاتب، ولأن الموضوع يتعلق بالإمامة كان أفلح حريصا على أن يثبت أحقيته فيها، وكونه خير خلف لخير سلف، وهو ينسب توليه الحكم إلى الله حتى يظهر خصمه في صورة من يخرج على طاعة الله، ومن يناصب ارادة الله العداء، وعلى الرغم مما يظهر في آخر الرسالة من سآمة الكاتب، ومله تكرار مراسلة نفاث دون جدوى، فقد تركت الرسالة الباب مفتوحا على مصراعيه، وأبقت الفرصة أمام نفاث لينضوي تحت لواء أفلح مرة أخرى، ويعلن حبه له، فيكون الجزاء من نوع العمل، ويقابل الحب بالحب.

ورسالة الإمام عبد الوهاب فيها اعتدال، فلا إيجاز ولا إطناب، ولأنها كسابقتها تمس مشكلة تتعلق بموضوع الإمامة في الصميم، وتبين حقوق الحاكم على المحكوم، استندت في تقرير احكامها على حكم الدين، وما جرى عليه عرف المسلمين، وتصر الرسالة على رفض تعيين «خلف» بعد وفاة «السمح» ووصم من فعل ذلك بالخطأ، فتذكر اسمه ثلاث مرات تعبر

14- الشماخي: السير ص 180 . 181

في أولاها عمن اختاره بأنه «بعض الناس» فهم أولا «بعض» وهم ثانيا من عامة «الناس» الذين لا يستحقون أن يعبر عنهم بالمسلمين، وتضع ثانيتها اسم «خلف» في اسلوب شرط يقع هو في فعل الشرط، ويأتي الجواب بعد ذلك بالحكم على من فعل ذلك بالخطأ، ليس ضد الإمام فحسب، وإنما ضد المسلمين وتقاليدهم وأعرافهم، أما الثالثة فتضعه في اسلوب حصر يقع فيه هو مستثنى، وتحرمه بهذا - دون غيره من العمال - من أن يكون له صفة الشرعية، أو حق تسلم زمام الأمور، وتنتهي الرسالة بطلب التوبة منهم، بغية إشعارهم بأنهم قد ارتكبوا إثماً يستوجب التوبة، وباشروا ذنبا لا يمسحه الا تكرار الدعاء، ومراجعة الندم .

أما الأقاصيص التعليمية والحكم والأجوبة فمن أمثلتها:

1- ماراوه الدرجيني في طبقات الأباضية نقلا عن الشيوخ: « أن ثلاث نسوة صالحات مجتهدات اجتمعن يوما بجبل نفوسة، وتحدثن فيما طاب لهن التحدث إلى الأماني حتى قالت إحداهن: اتمنى لو ان الله ساقني إلى قوم جهال فأعلمهم ما يحتاجون إليه من أمور دينهم، فيرحمني الله بما أعلمهم من فضل العلم والتعليم، وقالت الثانية: أتمنى أن آوي إلى ملأ من المسلمين في ليلة ذات مطر وبرد وقد بللهم المطر وتمكن منهم البرد والجوع فأنهض فأعالج لهم ما يذهب عنهم البرد والجوع فيرحمني الله بهم بفضل الصدقة وحرمة الصالحين، وقالت الثالثة: أتمنى لو تزوجني رجل ذو غلظة وفظاظة فيحملني ما يعجز عنه مثلي، ويكلفني من خدمته فوق طاقتي، ويؤذيني بأنواع من سوء العشرة فأصبر على ذلك، وأطيعه فأنال بذلك خيراً، فيرحمني الله بفضل حسن التبعل والصبر على اللأواء ..»[15].

والهدف التعليمي واضح في هذه القصة التي وضعها خيال الكاتب ليوجه الناشئة بطريق غير مباشر إلى جانب الحق والخير، والعمل لصالح المسلمين، والامتثال لأوامر الدين، وان كانت المراجع الأباضية تصر على انها قصة واقعية.

15- ص 132

2- مارواه الشماخي من حكم أبي عبد الله محمد بن بكر كقوله: « هم أهل زمان كالسبخة ان ابتلت زلقت، وان جفت خدشت» وقوله «كالتيوس ا ن اجتمعوا تناطحوا، وان افترقوا تصايحوا» وقوله «قطيعة الرحم كقطع عضو من الجسد لا يخاط ولا ينخاط ولا يربط » وقوله «أهل هذا الزمان مثل الحطب الصغير؛ لايربط فيصير حزمة، ولايمكن ان يجعل في الغرائز فيرفع»[16].

وتأثير البيئة في هذه الحكم واضح كل الوضوح، كما أن حسن صياغتها واختصار عبارتها، كان كفيلا بأن ينشرها ويذيعها، لو أتيح لها ولأمثالها من الأدب الأباضي فرصة الانطلاق خارج حدود المجتمع الأباضي.

3- وشكا بعض الناس إلى أبي الخير توزين من علماء القرن الرابع فقال: أشكو إليك من قلب قاس، وعقل لا يفهم، ولسان لا يسأل، وبدن لا يخشع، ويد لاتعطي، ورجل لاتزور. فكان جواب توزين: دواء الست بالست: محبة المسلمين، وقراءة القرآن، والتضرع إلى الله عند السحر، وقيام الليل، والصيام، وزيارة المسلمين[17].

والايجاز الشديد، مع التزام قصر الجمل، وإرسال الكلام على عواهنه بدون تأنق أهم خصائص هذه الشكاة، وجواب توزين عليها. ولو ان الكاتب صرف نظره إلى الحلية اللفظية، لقال مثلا بدلا من «قلب قاس»: « قلب لايرحم» فيحقق - من ناحية - الانسجام بين الجمل المتتالية عن طريق التزام النفي في كل منها. ويحقق - من ناحية ثانية - السجع بين «لايرحم» و«لا يفهم». كما يحقق - من ناحية ثالثة - التوازن الموسيقي بين عبارة «قلب لا يرحم» وعبارة «عقل لا يفهم» اللتين تتطابقان في الحركات والسكنات.

4- كان أبو إسحاق العالم الزاهد لا يفتأ يقول لأهل بلده: « اضمنوا لي اربعا اضمن لكم اربعا: الأذان والصلاة وتعليم الخط وحفظ القرآن الكريم، يسلم مسافركم، وينم رزقكم، وتطفأ نار الحرب عنكم، ويرتفع القحط» فإذا جاء إلى المسجد ولم يجد أحدا غضب غضبا شديدا واسمعهم قوارع

16- سير ابي الربيع ص 165 وسير الشماخي ص 389

17- معمر: الأباضية 3/149-151

التأنيب، وربما قال لهم: « ياأهل إشارن صرتم إشارن»[18].

ونص أبي إسحاق هذا ذو شطرين. فهو في شطره الأول دعوة إلى المواظبة على امور اربعة لا توجد - في نظري - علاقة قوية بينها جميعا، كما لا توجد فيها - أو في بعضها - مزية خاصة على غيرها من الأوامر كالصيام والزكاة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر.. وغير ذلك. ويرتب أبو إسحاق نتائج خطيرة على هذه الأمور الاربعة بالذات، ويأخذ على نفسه عهدا بضمان وقوع النتائج اذا وقعت المقدمات. وهي ضمانة لا يقدر على تحقيقها - بدون شك - أبو إسحاق، وكان عليه ان يتركها لمقام النبوة أو الألوهية، كما في مثل قوله صلى الله عليه وسلم حكاية عن الله تعالى: « تضمنت لمن خرج في سبيلي...»

ولعل شعور السامع بهذا المعنى قد سلب هذه المقالة تأثيرها، وهو ما يكشفه الشطر الثاني من النص حين بين صراحة ان رد الفعل لم يكن مشجعا، وان المستجيبين للنداء كانوا قلة أو لا أحد. وان ذلك سبب ثورة أبي إسحاق وغضبه، ولو أنه تدبر قوله تعالى: « إنك لا تدهي من أحببت، ولكن الله يدي من يشاء » لما ثار.

وينتهي النص بهذا الجناس الغريب بين كلمتي «إشارن». وهو جناس يبدو مفتعلا لتحقيق النغمة الموسيقية فحسب. والا فإن كلمة «الأظافر» تبدو نابية لو وضعت في هذا المقام مكان الكلمة البربرية «إشارن».

5- ومن أقصر الأجوبة ما كتب به بعضهم إلى نفوسة: « كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون» فأجابهم محمد بن جنون الشروسي النفوسي: «ألم نهلك الأولين ثم نتبعهم الآخرين. كذلك نفعل بالمجرمين»[19].

6- كذلك يروون أن أبا سهل الفارسي[20] قد دون اثني عشر كتابا وعظا

18- معمر: الأباضية 3/211 واشارن الاولى اسم بلد اما الثانية فيعنى بها معناها البربري وهو الاظافر (المرجع السابق هامش 1)

19- سير الشماخي ص 323 ، 324

20- قال الشماخي: غلبت عليه العزوة الفارسية وليس بفارسي وانما هو نفوسي وأمه

وتخويفا وتذكيرا باللغة البربرية[21]. ويبدو أنه لم يكتب شيئا من ذلك باللغة العربية، فقد قال الدرجيني عن إنتاجه: «وجميع ما حفظ من ذلك فإنما هو بلسان البربر»[22].

ب- الشعر

على الرغم من قلة ما تحت ايدينا من شعر أباضي، فإن الشواهد تدل على انه كان هناك شعراء أباضيون كبار، وأنه كان من بين حكام الأباضية من يتذوقون الشعر ويجازون عليه، وأن هناك من الشعراء الأجانب من قصدوهم طلبا للعطاء. وقد ظهر ذلك بشكل واضح تحت حكم الدولة الرستمية التي عرف عنها احتضانها للعلم، وتشجيعها للأدب، وعرف عن حكامها الشغف بالبحث والاطلاع والتأليف.

ومن الشعر الأباضي الذي وصلنا ما يأتي:

1- من قصيدة للإمام أفلح – ثالث رؤساء الدولة الرستمية[23] - تسمى «تحريض الطلبة» وكانت مما يحفظه التلاميذ وينشدونه في المناسبات:

العلم أبقى لأهل العلم آثارا ... يريك أشخاصهم روحا وابكارا
حي – وان مات – ذو علم وذو ورع ... مامات عبد قضى من ذاك اوطارا
وذو حياة على جهل ومنقصة ... كميت قد ثوى في الرمس أعصارا
لله عصبة أهل العلم ان لهم ... فضلا على الناس غيابا وحضارا
العلم علم كفى بالعلم مكرمة ... والجهل جهل كفى بالجهل ادبارا
العلم عند اسمه اكرم به شرفا ... والجهل عند اسمه اعظم به عارا
يشرف العلم للإنسان منزلة ... ويرفع العلم للإنسان اقدارا

رستمية من بيت الإمامة ولذا غلب نسبها عليه (ص289)
21- الطبقات ورقة 149 والسير ص 289
22- الطبقات ورقة 149 وهناك أمثلة اخرى نثرية اجلناها لقسم الشعر لأنها جاءت في نص يجمع بين الشعر والنثر
23- سبق الحديث عن امتداد نفوذ هذه الدولة حتى خليج سرت

العلم در له فضل ولا أحد ... في الناس يدري لذاك الدر مقدارا
للعلم فضل على الاعمال قاطبة ... عن النبيء روينا فيه اخبارا
يقول: طالب علم بات ليلته ... في العلم أعظم عند الله اخطارا
من عابد سنة لله مجتهدا ... صام النهار واحيا الليل اسهارا
وقال: ان مداد الطالبين على ... ثيابهم وعلى القرطاس اسطارا
مثل دم الشهداء المكرمين لهم ... فضل فأكرم بأهل العلم أخيارا
وقال هم يرثون الأنبياء كذا ... فيهم روينا احاديثا وأخبارا
أكرم بهم من ذوي الفضل المبين لهم ... إرث النبوءة في أيديهم صارا
اشدد إلى العلم رحلا فوق راحلة ... وصل إلى العلم في الافاق اسفارا
واصبر على دلج الإغساق معتسفا ... مهامه الرض أحزانا وأقطارا
حتى تزور رجالا في رحالهم ... فضلا فأكرم بأهل العلم زوارا
والطف بمن أنت منه العلم مقتبس ... جدد له كل يوم منك ابرارا
وأحسن الكشف عن علم تطالبه ... والزم دراسته سرا وإجهارا
ولاتكن جامعا للصحف تخزنها ... كالعير يحمل العير اسفارا
نعم الفضيلة نعم الذخر تورثه ... لنفسك اليوم إن أحسنت آثارا
وإن هممت بخير الناس تألفهم ... ألفت بالعلم أبرارا وأخيارا
فاطلب من العلم ما تقضي الفروض به ... واعمل بعلمك مضطرا ومختارا
واطلبه ما عشت في الدنيا ومدتها ... لموقف العرض أن لا تورد النارا
واجعله لله لا تجعله مفخرة ... ولا ترائي به بدوا وأحضارا

وهي قصيدة طويلة تقع في 44 بيتا[24].

وقد شطرها الرحالة الأديب الشيخ علي بن أحمد العماني من علماء الأباضية المشرقيين في أثناء سياحته بالقارة الإفريقية في أواسط القرن الثالث عشر. ومن ذلك قوله:

(العلم أبقى لأهل العلم آثارا)   وليلهم بشموس العلم قد نارا
يحي به ذكرهم طول الزمان وقد   (يريك أشخاصهم روحا وأبكار)
(حي وان مات ذو علم وذو ورع)   إن كان في منهج الأبرار ما مارى
أو أنها غبرت أشخاصهم ومضوا   (ما مات عبد قضى من ذاك أو طارا)
(وذو حياة على جهل ومنقصة)   ولا يبالي أخيرا نال أم عارا
حياته عدم في طول مدته   (كميت قد ثوى في الرمس أعصارا)
(لله عصبة أهل العلم إن لهم)   (فضل على الناس غيابا وحضارا)
(العلم علم كفى بالعلم مكرمة)   ومن يرد غير خير العلم ما اختارا
كم جاهل بأمور الدين مختبط   (والجهل جهل كفى بالجهل إدبارا)[25]

-2 قال أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم من قصيدة يرثي بها شيخة ابا سليمان ايوب بن إسماعيل[26]. وكان قد أصيب بالجذام مدة قبل وفاته وعجز عن الحركة:

أيوب ما ايوب لا أيوب   أودى به قدر الردى المجلوب
فتصرمت أيامه وتلونت   حينا عليه وللردى تعقيب
علقته أشراك الردى من بعدما   أوفى على مئة وجاب الجوب

24- دبوز 376/3 ، 377 وانظرها كذلك ملحقة بكتاب الدعائم ص 328 – 331
25- الأزهار الرياضية 190/2 وبقيتها تمتد الى ص 194
26- وضعه الدرجيني في الطبقة الحادية عشرة أي أنه من رجال النصف الاول من القرن السادس

ماخط في المكتوب لايخطى الفتى   وكذا الفتى لم يخطه المكتوب
حكمت عليه بها المنية حكمها   قبل الممات ولوحته خطوب
سدكت به أتراحه وتنحلت   أوصاله لم يشف منه طبيب
دب البلاء بجسمه بعد البلى   فله به طول الحياة دبيب

....

فانسل منه الروح عند وفاته   بأبي وأمي الطاهر المسلوب
بل مات سبع سنين قبل مماته   لم يبق الا الروح والتركيب
في كل ما يوم مر وليلة   ابدا يقلب ظهره التقليب

....

قد كان ذكرا للعباد ورحمة   للعالمين وانه لمنيب
وأتى أمام الصابرين يقودهم   فلأنت أنت الصابر المنكوب

....

بكت السموات العلا ونجومها   حزنا عليه والفلا والروب
واستوحشت منه المساجد كلها   لما خلت منه وحسن النيب

....

رجل أتاه الله ربي بسطة   في العلم والجسم الكريم لبيب
لله عبد خالص متخشع   متهلل متهجد متعوب
يا غائبا ما تنقضي حسراتنا   أبدا عليه ولات حين أيوب
عن غبت عن أبصارنا واسماعنا   لم تحجبنك عن القلوب غيوب

....

فلئن رحلت وغبت عنا ميتا　　للحزن في الدنيا علي رقيب
خطب أجل وعبرة مسفوحة　　مهراقة ان الخطوب تنوب
....
جعلوه تحت الارض ثم تنعموا　　يا للخلائق إن ذا لعجيب
لهفي على الظل الذي ضمنته　　بطن الثرى والمستراد رحيب
....
من للصلاة بجوف ليل مظلم　　والليل أسود حالك غربيب
أو للصيام اذا تطاول يومه　　وامتد طرفاه وهاج لهيب
أو لليتامى والأرامل بعده　　وتواترت في العالمين حروب
أو للأمور اذا تفاقم حولها　　أهل النهى والرأي بعد غريب
وتفاقم الخطب العظيم بفقده　　ولربما هانت عليه خطوب
....
فعليه رحمة ربه وسلامه　　حتى القيامة والإله وهوب[27]

3- كما وصلنا شعر كثير للشيخ أبي نصر فتح بن نوح الملوشائي النفوسي معظمه في المواعظ والحكم وأقله من الشعر الخالص وبعضه من ناحية اخرى – يحتفظ بوحدة القافية وبعضه ينوعها في أشكال مختلفة كما أن بعضه الآخر يمزج بين النثر والشعر ويلتزم في جزئه المنثور السجع والجناس وقصر الجمل وغير ذلك من المحسنات البديعية هذا بالإضافة إلى ماوصلنا من جهوده الموفقة في نظم العلوم وبعض المباحث الدينية وسنقف طويلا أمام إنتاج أبي نصر لأنه أغزر إنتاج وصل إلى علمنا لأديب اباضي.

أما عن حياة الشاعر وثقافته، فكل ما نعرف عنه انه من علماء النصف

27- طبقات الدرجيني ورقة 193 ، 194

الأول من القرن السابع[28]، وأنه عاش فترة تزيد عن 57 سنة[29] حافلة بالبحث والتأليف والتدريس، وأنه نشأ بين يدي خاله البحر الزاخر الشيخ أبو يحيى زكريا بن إبراهيم الباروني المشهور بغزارة العلم والفضل في نفوسة[30]. ويصف لنا الاستاذ معمر جانبا من نشاط الشاعر قائلا «كان أبو نصر يجلس على حافة الجبل متجها إلى الشمال حيث تنبسط أمامه السهول الخضراء الفسيحة التي تمتد ما بين جبل نفوسة والبحر. وفي هذا الموقع الجميل.. نظم أبو نصر أغلب شعره وأكثر متونه وفيه الف مقاماته الرائعة التي نحا فيها منحى جديدا بالنسبة إلى ما عرف من أساليب المقامات وأغراضها.. وكان في الليل يبدأ نوعا آخر من النشاط: اذ كان يلقي دروسا عامة على الناس في المسجد بعد صلاة العشاء، ثم يفزع إلى كتبه ومراجعه الضخمة، يحقق ويدرس. وينهي ليله بالعبادة ومناجاة ربه، ثم يعود في الصباح الباكر إلى مهنة التدريس لينشىء جيلا من الشباب الواعي المسلم ..[31] »

ومن أمثلة شعره الذي وصلنا:

أ- قوله في الحكمة وحفز الهمة:

أحب فتى ماضي العزائم حازما　　لدنيا وأخرى عاملا بالتشمر
وأما أخو النومات لا مرحبا به　　ولا بالجثوم الراكد المتدثر

ب-وقوله يصف طريق السمو والجد:

سما من سما بالجد والعزم والصبر　　وسهر الليالي والسرى والتهجر

ج- وقوله مصورا الناس من الموت قبل وبعد موارة الجسد:

28- الأباضية في موكب التاريخ 98/3 ومقدمة متن النونية بقلم أبو اليقظان ص 2
29- يقول ابو نصر في احدى مخمساته:
الا فاسمعوني ثم عوا قول ذي حجر　　تملأ حقبا باحتلاب لأشطر
وأربي على السبعين خمسا من العمر

30- مقدمة متن النونية ص 2
31- معمر 100/3 ، 101

ترى عند ذكر الموت للنفس نفرة   وتأبى الطباع الانتقال عن الضير
كذئب دهي خرفان حر فآرزت   وغاب فعادت لاقتطاف المنور

د- وقوله معاتبا قراء عصره:

نظرت إلى قرائنا فوجدتهم   بفقه المعاش مولعين بألسن

هـ- وقوله يصف الانسان في معركة الحياة:

وما المرء في دنياه الا كناعسٍ   أحاطت به الأمواج في لجج البحر

و- وقوله في مخمسة في المواعظ والنصائح والحكم على حروف المعجم:

أسنى كلام خط في كتاب   حمد الإله البارىء الوهاب
هذا المخمس حكته بصواب   على حروف المعجم الرتاب
انشدته ذكر اولي الألباب

وقد تنقل في قافية هذا المخمس من حروف هجائي إلى الذي يليه متبعا الترتيب الهجائي المغربي مع ذكر اسم حرف القافية في أول كل مجموعة. فكان يقول مثلا:

ألف ألفت مؤلف الأدباء ....

باء بدا الهدى كالغيهب......

تاء توى من ضيع الموقوتا ....

ثاء ثوى حب الثواني اللابث .....

وما جاء في هذه المخمسة قوله:

حاء حذار واسمعن ياصاح   من سحر ثغر الأبراق الوضاح

يلهبك تخلابا عن الأرباح   عما قليل أضت صفر الراح
من صالح الأعمال جم الحاب

خاء خبت نار امرىء شماخ   يفخر بالأنجار والأسناخ
ما الفخر الا للفتى النواخ   حيث التقى مخيم الأشياخ
أولي النهى والعزم والألباب

ز- وما جاء في مخمسة أخرى في المواعظ والحكم:

أقول ولا أعني سوى التذكر   من أبناء جنسي والعفاء عن الغير
ألا فاسمعوني ثم عوا قول ذي حجر   تملأ حقبا باحتلاب لأشطر
وأربى على السبعين خمسا من العمر

خذوه كلاما جوهريا مصححا   مصوغا من اسنى همة بلغت نصحا
تعيد به الأعناق أفصح أو محا   متى يلج الأسماع قال لن ابرحا
عسى يرد الأعماق وردا بلا صدر

فأول ما أوصى به في مخمسي   لباس سرابيل التقى خير ملبس
به ساد أقوام من الجن والإنس   وليسوا ذوي مال ولا بذوي فنس
ولا نيل ما نالوا ببيض ولا سمر

بذلك أوصى الله من كان واعيا   من أهل القرون السالفات الخواليا
ونادى به أهل العصور البواقيا   وقال اتقون اليوم حق تقاتيا
يطاع فلا يعصى وشكر بلا كفر

ح- ومن قصيدة له في المواعظ والحكم أيضاً:

أنا المتيم لا باليوسفيات   ما نهنهتني إليه قط همات
بل تيمتني فنون العلم أطلبها   ما النفس باقية في هيكل الذات
لست الغداة بمن يبكي على دمن   صم الرجام بحنات ورنات
لست الغداة بمزجي   لى السباسب أحدوها بأموات
لست الغداة بصب خاضع طمعا   في وصل غانية ارجو مودات
بل في منادمة الأخيار راغبة   نفسي إلى أجل يفضي بموتات
لله هم ماهم هم نور مذهبنا   هم قادة الدين ارباب المروات

ط- وقال أيضاً يشفع مخمسة الأمير أبي زكرياء الحفصي فعشرها فجاء نظمها على سنن المعنى الأول:

يا كاشف الباساء واللواء   يا قارن السراء بالضراء
اسمع نداء وأجب دعاء   وخفف الظهر من الأعباء
فإن لي بين يدي رجاء   ان حشرجت في صدرها حوباء
فحمدا مبلغ الأنباء   صلى عليه الله ذو الالاء
وآله الأتقين خير آل   زمن الزمان غرر الأجيال
واها لمن أجفانه تصوب   بأدمع كأنها شبوب
وفي حشاه لهب مشبوب   فجسمه من حرها يذوب
أورطه زمانه النشيب   أيام من لهو الصبا طروب
فهو اذا تقبضه الذنوب   وكاد ان تعلقه شعوب
يبسط كفيه لدى السؤال   دعاؤه يا من بلا محال

وهكذا إلى آخر القصيدة ينتقل بالقافية من حرف إلى حرف بالترتيب الهجائي المغربي حتى يأتي على جميع حروف الهجاء.

ى- ومن قصيدة له يرثي بها المرحوم الشيخ أبو زكريا يحي بن إبراهيم الباروني وعدتها أربعون بيتا:

أحرى وأجدر للأجفان والمقل   تفنى بكاء على الإسلام لم تبل
دعها تسيل أسأل الله مقلة من   يسطو عليها بسطو

……………………

أبعد ما غاب بدر الدين في جدث   يهنى الحياة بنو الآداب بالأمل
كيف البقاء لطرف زال ناظره   حين اعترته بنات الدهر بالسمل
زر ساحة السفح   دمعا يزيد على
قبر بجانبه الغربي أرفنني   من أجله بت أرعى
سقيا لساكنه رعيا لقاطنه   سحت عليه عيون المزن لم تزل
أعني الولي أبا يحي الذي حييت   صوى العلم بمحياه ولم يأل
هب النعاة فوافى الناس مدفنه   كل يفديه بالآباء والنسل
يا موقفا شهدت نفسي حقائقه   عجت عجيجا به
تزاحم الناس عند اللحد مكرمة   ولا تزاحم باب البيت من عجل

……………………

ومن أذى هذه الدنيا وفجعتها   حشو التراب على
يا غربة الدين بعد الشيخ مفتقدا   يا وحشة السير الغرا عن الأول
لا عن تراض جرى حكم المنون به   قدما جرى في نبي الله والرسل
قسرا على الأسد في الأغيال واغلة   وفي الذرى لوعول صعبة السبل

. . . .

كمثله فلتلد انثى مفاخرة أولا فلا ولدت عن آخر الطول

يستصحب الحق في أحكامه ابدا ويورث الجد دون الهزل والخطل

عذب الشمائل محمود خلائقه مأمون عيب نقي العرض ذو بذل

فمن لذى البؤس يأتيه وأرملة تأتي بأيتامها شعثا من الهزل

. . . .

يأيها الشامت المبدى شماتته مهلا بفيك تراب السهل والجبل

في نجله خلف طابت أرومته ما مات من أنهج الاولاد للسبل

يستأسد الشبل نزاعا لعنصره حتى تؤول أصيلا غير مندخل

لسنا نقول بوهن لا ولا خور خلا لك الجو قولا صادق المثل

ك- ومن قوله أيضاً نظما ونثرا في النصائح والمواعظ والوصايا:

هذا المهين اذا ما عضه زمن وإن طغا دهره للشرنبات

أخسأ به متعسا لا عز ناصره فإنه في سجون الضيم لبات

لا ظفر بجد عاص ومن دان أو قاص ولا علا كف المنتخي ولو كان في النسب أخي ومرحبا بالمطيع ولو عاملني بالتقطيع وعوفى المتقي من شر ما يتقي...

وقوله في نفس النص:

إن الشماتة لا تشفيك من حنق كما التحاسد لا يجديك من ناو

هبك المحكم في كل البسيطة هل تخلو من الهم أين القائل الداو

كل من غدا على ظهرها وراح. مشغول البال ما استراح. حتى الأجنة في الأرحام، من بني سام ويافث وحام، كل أهداف السهام، وموقع هذا الرهام.

أروني خلفا خلوا، وسليم الخاطر سفلا وعلوا، وهيهات لن ترى الا نضوا وبلوا. فإنا لله؛ جفت الحضارم، وعفت الأكارم، ونبتت الصوارم، وكثرت المغارم. لم تر الا عبدا مال، وعابد مال، وفاسد أعمال، ومتصنعا بأسمال. فسد العمران والبيد، وأشرفنا على ما ذكره لبيد. أليس في مساعي رجل رشيد. فيبني التلع ويشيد، ويمت بالأساس القوى، وينشد عني الروى.

ومن نثر هذا النص قوله:

«صين صائن الدين والعرض، ومؤدى الواجب والفرض، ومطيع ديان السماء والأرض، وحوشي من اللوم، من ليس على الدنايا هلوم، ولا للورى بظلوم ....»

وقوله:

«لو علم الغابر مصرع العابر، وفهم مضمون المقابر، ما اغضى جفنا على سنه... ولا ادخر لشهر ولا سنة، بل ينصاع على أثره، ويجوز السرو بأسره، ويندم على سالف شأنه وأمره، حبذا من اعتنى بذا، وهجر الخنا والبذا، وأغضى على القذى، وآمن الناس من الأذى...»

وطريقته في هذا النص أن يبدأ ببيتين من الشعر، يتبعهما بقطعة نثرية يلتزم فيها السجع والمحسنات، ثم ينتقل إلى بيتين آخرين من قافية جديدة وهكذا، وقد اشتمل النص على قطع شعرية بعدد حروف الهجاء بادئا بقافية الهمزة ثم الباء ثم التاء ... وهكذا إلى آخر حروف الهجاء بالترتيب المغربي[32].

4- قال الشيخ إسماعيل الجيطالي:

هون عليك فكل المر ينقطع وخل عنك عنان الهم يندفع

فكل هم له من بعده فرج وكل أمر اذا ما ضاق يتسع

32- الأمثلة الشعرية أ ، ب ، ج ، د ، هـ مأخوذة من الأزهار الرياضية 139/2 والأباضية في موكب التاريخ 3/98-100 أما سائر الأمثلة فمأخوذة من ديوانه المطبوع طبع حجر والملحق بكتاب الدعائم ، صفحات 218 – 224 ، 224-224 – 242 ، 244-245، 250-260 ، 283-286 ، 262 -282

إن البلاء وإن طـال الزمان بـه … فالموت يقطعـه وسوف ينقطـع[33]

5- وهنـاك قصيدة من بحـر الرجز نظمها محمد بن زكريا بن موسى الباروني عام 967 في بيان سنده في دينه. وعدد أبياتها اثنان وسبعون. وقد بدأت بقوله:

قال محمد الضعيف المذنب … أحمدك اللهم حمدا أرغب
في العون والتوفيق والإياب … صلاتنا على النبي الأواب
ثم الرضا عن صحبه وآله … وكل تابع لقول ربه
من تابع الرسول هم أعلام … عليهم الرحمة والسلام
فهذه نسبة ديني مسندة … كعقد در وياقوت محكمة
بحمد ربي لم أكن مغيبا … في مذهبي ونسبي مخيبا
ولم أجر الذيل في لهو الصبا … ولم يكن دينى رهوا لعبا
ولا ارتضي بمنزل الأدناس … أهل الخناء والهوى الأنكاس
ولا أسير في الدجى للغيد … ولا أهيم في الفلا والبيد
كدأب قيس وجميل تاها … ثم الفرزدق والبعيث فاها
بالشعر في الملوك والغوغاء … ثم جرير مال للهراء
والكندي امرؤ القيس كان يذكر … وطرفة ونابغ وعنتر
هاموا وعاموا في الهوى دهرهم … من أجل ليلى وسلمى ويلهم
ولا أنتمي للفخر والإعجاب … لكن لأهل الدين والصواب

ثم انتقل إلى الغرض المقصود وهو نسبة مذهب الأباضيين فقال:

33- الملحق الأول بأحكام الديوان ورقة 205 والجيطالي سبق الحديث عنه في فصل الدراسات الإسلامية

يا سائلي عن سندي في ديني … رشدت للدعوة والتبيين
فهاك إفصاحا بغير عجمه … يزيح كل شبهة وغمرة
سندنا تنزيل ذي الجلال … على رسول خص بالكمال
بجابر وابن عباس نهتدي … والراسبي وابن أباض نقتدي
صحابة الرسول والتالي لهم … قادتنا حقا فاعرف حالهم
أخذناه عن الثقات الفضلا … من مشرق ومغرب أهل الولا
أتى به حملة الآثار … من بصرة خمس فلا تمارى
فمنهم عبد العلى الإمام … وداود وعاصم الهمام
وابن درار سبقه عند القضا … إمامهم الفارسي المرتضى
قبله عنهم رجال فازوا … قولا وفعلا كل ذا قد حازوا
وجلهم من جبل نفوسة … كم جاهدوا في الدين من عبوسه
وأظهروا الدين بدار المغرب … بسيفهم قام كذا في المكتب
لكنه بعد زمان أكتما … صار غريبا بل طريدا محجما
نصَّ على ذا سيد الأخيار … بدا غريبا والحديث جار

ثم انتقل إلى بيان سنده هو وعمن تلقى من الأساتذة فقال:

أخذت دين الله والرسول … عن قدوة ليس بذى فلول
سمته داود شيخي في الورى … زماننا ضاء به بلا مرا
تلقف الدين عن الأشياخ … عن خمسة جد بلا تراخى
أولهم هو ابن عيسى الطيب … عن شيخه يحي الولي النجيب

عن صاحب الفنون والعلوم ... يعقوب نجل أحمد المعلوم

عن عبد الله اخذ ثم رحلا ... لحضرة المغرب ثم نزلا

وثانيا أخذ عن شيخ سما ... هو أبو القاسم لكن مغتنما

عن يعقوب بن صالح لا تجادل ... قد فاق في العلوم لا تناضل

عن يونس عن صالح المجاهد ... عن شيخه عبد الإله الماجد

وثالثا أخذ عن زكريا ... عن أحمد الشماخي لاتك ساهيا

عن صالح المذكور لا تمارى ... ورابعا عن ابنه ياقارى

وخامسا عن نجل أحمد النقي ... هذان عن يونس خذ وحقق[34]

6- وكتب الشيخ أبو عبد الله إلى أبي يعقوب يوسف بن نفاث القنطراري النفوسي يعاتبه وما جاء:

قد كنت أحسب ان فيك رجية ... ترجى لصرف نوائب الحدثان

أو فيك للإخوان أمر يرتجى ... فاراك لا شىء من الإخوان

راحت فراستنا وخاب رجاؤنا ... شمت العداة بنا مع الأقران

وقد مات أبو يعقوب بدرجين فيمن مات على يد المعز بن باديس[35]

أما قصيدة الإمام أفلح فتكشف عن شاعرية صاحبها. وان كان يغلب عليها الطابع التقريري الوعظي. وهي - في كثير من أبياتها - اقرب إلى منظومات العلوم منها إلى القصائد الشعرية. و « أسلوبها بسيط يدل على أن الإمام أفلح قصد بها كل طبقات الشعب والمبتدئين من المتعلمين»[36]. وربما كان من أروع ابياتها قوله:

34- نسبة دين المسلمين واحدا عن واحد للباروني – ملحق بسير الشماخي ص 485 وما بعدها

35- سير الشماخي ص 466

36- دبوز 378/3

وذو حياة على جهل ومنقصة ... كميت قد ثوى في الرمس أعصارا

فعلى الرغم من هدفه التهذيبي التعليمي. فقد وضع في صورة خيالية معبرة جعلته يقف على قدم المساواة مع أبيات الحكمة المشهورة عند العرب. ويدانيه في الجودة قوله:

ولا تكن جامعا للصحف تخزنها ... كالعير يحمل بين العير أسفارا

فهو يقطر حسرة على انتشار الجهل والزهد في العلم بين الناس. حتى صاروا أقرب إلى العجماوات منهم إلى الأناسي. وهو يحذر طالب العلم من أن يتحول العلم في يده إلى أداة جامدة ميتة غرضها التكسب والارتزاق. والا فقد مزيته على سائر الناس. وصار مثلهم حيوانا أعجم في وسط مرتع للحيوانات. وتأثره واضح في هذا البيت بقوله تعالى: « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا».

وفي القصيدة أبيات ركيكة ساقطة من ناحية الأداء كقوله:

العلم علم كفى بالعلم مكرمة ... والجهل جهل كفى بالجهل إدبارا

فهو بالإضافة إلى خلوه من العاطفة والخيال. لاتبدو المقابلة واضحة فيه بين مكرمة العلم وإدبار الجهل.

وأما قصيدة أبي يعقوب يوسف بن إبراهيم في الرثاء فهي أقرب إلى الشعر الخالص من كثير من النماذج الشعرية التي عثرنا عليها. وهي قصيدة طويلة تسجل إحساس تلميذ مخلص نحو أستاذ أقعده المرض ثم وافاه أجله المحتوم. وظاهرة الموت - على الرغم من أنها من الظاهر الطبيعية المألوفة - من المواقف التي تهز مشاعر الإنسان. وتوقظ كوامن نفسه. وتهيج عاطفته. ولذلك فإن شعر الرثاء يعد - في جملته - من أصدق أنواع الشعر عاطفة. وأقرب إلى عقول الناس وقلوبهم.

والقصيدة وإن كانت تبدأ هذه البداية الضعيفة:

أيوب ما أيوب لا أيوب   أودى به قدر الردى المجلوب

وإن كانت تحوي كثيرا من الأبيات الجامدة التي يغلب عليها روح التكلف، فإن فيها عددا لا بأس به من النماذج المعبرة الصادقة. انظر مثلا إلى قوله:

علقته أشراك الردى من بعد ما   أوفى على مئة وجاب الجوب

حيث صور الموت أو الهلاك في صورة صائد ينصب حبائله ويلقي شباكه للإيقاع بكل ما ترميه الأقدار في طريقه، وإن كانت الصورة قديمة ترددت في أشعار السابقين.

وانظر كذلك إلى قوله:

إن غبت عن ابصارنا واسماعنا   لم تحجبنك عن القلوب غيوب

فهو يصور حقيقة واقعة تتمثل في تصور المحب حبيبه ماثلا أمامه بالجسد، لقوة مثوله أمامه بالروح. وإن كان يعيب البيت وصل همزة القطع في «اسماعنا» للحفاظ على الوزن، وقد كان في مقدور الشاعر أن يقول مثلا: «أوسمعنا» بدلاً من ارتكاب هذه الضرورة.

كذلك من أحسن أبيات القصيدة أبياتها التي تسجل مآثر الفقيد وأعماله الخالدة، من صلاة وصيام وعطف على الأرامل واليتامى وحل لمشكلات الأمور. وحسن التصوير واضح في هذه الأبيات، وإن كنت لا أجد ارتباطا بين شطري كل من البيتين الخامس والعشرين والسادس والعشرين، ولعل هناك تحريفا في روايتهما.

والقصيدة – بعد هذا – لا تخلو من بعض المآخذ الأسلوبية كاستعماله كلمة «أيوب» في البيت السابع عشر التي يتعثر اللسان في نطقها، ولكن هي القافية التي أرغمته على استعمالها. ومثل استعمال «بها» في البيت الخامس، ولا أدري علام يعود الضمير فيها، ولا ما قيمة الجار والمجرور جميعا.

وملاحظة أخيرة وهي أن البيت الثاني والعشرين رويت كلمة «ضمنته» فيه «بالظاء» وذلك طبقا لنطق الليبيين لهذا الصوت، والذي يبدو أقرب إلى

النطق القديم من نطق سائر البلاد العربية[37].

وأما أبيات أبي نصر فتح بن نوح فلعلها – في معظمها – أقرب ما وصلنا من شعر الأباضيين إلى روح الشعر وجوهره. وقد كفانا الأستاذ علي يحي معمر مئونة التعليق على بيتها الأولين بقوله: « قارن بين الرجال الثلاثة في هذين البيتين. انظر إلى هذا الفتى الحازم ذي العزيمة الماضية الذي يكافح من أجل الحياة السعيدة في الدنيا والآخرة.. ثم انظر إلى هذا الكسلان الذي يقطع يومه بالنومات.. استمرأ البطالة وتعود على الامتداد، لا يصلح لدنيا ولا لدين. أما الصورة الثالثة فهي لهذا الرجل الذي يقبع في زاوية المسجد أو البيت قد تلفع بثوبه وركد ركود الصخر، تحسب ان الحياة قد فارقته فهو جاثم جثوم الجماد لا روح له ولا حركة...[38]

ومن شعره الجيد كذلك قصيدته في الرثاء التي رثى بها الشيخ أبا زكريا الباروني، وبدايتها قوية، كما أن صورها - أو كثيراً من صورها في الحقيقة - ينم عن خيال خصب وعاطفة صادقة. ومن أجمل أبياتها قوله:

كيف البقاء لطرف زال ناظره   حين اعترته بنات الدهر بالسمل

وكذلك أبياته التي يتحدث فيها عن نزول الموت بكل مخلوق حتى الأسود في عرينها والوعول في ذرى الجبال.

ورغم أن بقية ما وصلنا من شعره في المواعظ والحكم فأنت تحس أثناء قراءته بقوة عارضة الشاعر وحسن اختيار ألفاظه، وتحسن في بعضها بعاطفة صادقة وشاعرية متدفقة. ومن أمثلة ذلك النص رقم ح الذي يبدأ بقوله:

أنا المتيم لا باليوسفيات   مانهنهتني إليه قط همات

وفيه إلى جانب ذلك حديث صريح عن مفهوم الشعر عند الأباضية وصفات الفخر عندهم وهي الشغف بطلب العلم، وملازمة الأخيار، وعدم

37- في نطق الضاد القديمة ارجع الى «الأصوات اللغوية» للدكتور ابراهيم أنيس ص 50

38- 3/98 ، 99 وانظر تعليقاته على الأبيات ج . د . هـ ص 99-101

الركون إلى اللذات أو المشاركة في مغامرات الصبا ولهو الشباب.

ويسير على نفس الخط قصيدة أخرى له بدأها بقوله:

خليلي ما وجدي بربع ولا رسم	**ولا ساق حر هاجني بالترنم**
ولا همتي عوج المطايا إلى الحمى	**أسائل عن قطانه كل معلم**[39]

ويتضح كذلك من النماذج التي سقناها ومن سائر قصائده الشعرية الموجودة بديوانه أن الشاعر كان ممن يدينون بمذهب الصنعة، ويخضعون الشعر لمقدرة الشاعر اللغوية ويتخذونه أداة لإظهار البراعة اللفظية. ولهذا نجد الشاعر يهتم بالقالب أكثر مما يهتم بالمعنى، وبالشكل أكثر مما يهتم بالمضمون. فهو تارة يلجا إلى المخمسات، وأحيانا يعشر قصائد غيره. وفي أحيان أخرى يلتزم شكل القصيدة العربية التقليدي. وهو في كثير من مخمساته يلتزم تغيير القافية مراعيا الترتيب الهجائي. وحتى في نصه الذي خلط فيه الشعر بالنثر راعى تغيير القافية على جميع حروف الهجاء بالترتيب. وفي النص الأخير يبدو الشاعر وكأنه يلقي جل اهتمامه إلى حشد اكبر عدد ممكن من الألفاظ. ومنه يدرك الإنسان مبلغ غزارة محفوظاته اللغوية وقراءاته الأدبية.

وأما أبيات الجيطالي الثلاثة فهي من أبيات الحكمة العادية، وهي تعالج موضوعا أكثر الشعراء والحكماء من معالجته. ولا أظن أن هناك جديدا في هذه الأبيات يستحق الوقوف عنده.

وأما قصيدة الباروني، فتعد في جزئها الأول (41بيتا) أقرب إلى الشعر منها إلى النظم. وأما سائر أبياتها فأقرب إلى منظومات العلوم. وإن لم تخل من عاطفة في بعض الأحيان.

وتعد الأبيات الأربعة عشر الأولى ذات أهمية خاصة لأنها تكشف في وضوح عن موقف الأباضية من الشعر، وعدم ترحيبهم الا بالنوع الجاد منه، الذي يحقق غاية، أو يخدم هدفا. وهي تنحي باللائمة على الشعراء الذين قضوا شبابهم في اللهو واللعب ومعاقرة الخمر وملاحقة النساء، وتعرض

39- ديوان الشاعر ص 445

بالشعراء المجان، وتهاجم أولئك الذين أفنوا عمرهم في الجري وراء حبهم، وأولئك المداحين المتكسبين بالشعر، أو الهجائين المقذعين. كما تهاجم أولئك الذين اشتهروا بالفخر بأنسابهم وقبائلهم؛ لأن موضع الفخر الحقيقي هو العمل الصالح، والانتماء إلى أهل الدين والصواب.

ولعل هذه الأبيات تكشف لنا عن حقيقة هامة هي أنه لا مكان لمعظم أغراض الشعر عند الأباضيين، وأنهم لم يكونوا يرتاحون للأغراض التي يجود فيها الشعراء عادة مثل الغزل والفخر والهجاء والمدح ووصف مجالس الخمر ورحلات الصيد، وان معظم شعرهم كان من النوع الديني أو شعر الحكمة، بالإضافة إلى بعض الموضوعات التي لا تخدش تقاليدهم مثل الرثاء والحرب والوصف والفخر بالعمل الصالح والإخلاص في العقيدة.

ولا تخلو هذه القصيدة – كأخواتها- من الركاكة وضعف الأسلوب والضرورات الشعرية مثل منع «محمد» من الصرف في البيت الأول، وتخفيف ياء «النبي» في البيت الثاني، وقصر ياء «ياقوت» في البيت الخامس وغير ذلك.

وأما أبيات الشيخ أبي عبد الله فتقطر حسرة وأسى، وتجسم خيبة الأمل التي أصيب بها الشاعر حين وضع ثقته في غير ثقة. وعلى الرغم من أن التجربة مألوفة، والإحساس بها كثير الوقوع، فقد استطاع الشاعر أن يضعها في شكل تعبيري رائع، فيه براعة الصياغة وخفة الوزن. وقد تدرج الشاعر في التعبير عن خيبة أمله في صديقه حين نفى عنه أولاً صفة الخيرية مع عامة الناس، ثم نفى عنه هذه الصفة مع أصدقائه وإخوانه. وإن كنت ألمح في تكرار كلمة «الإخوان» في البيت الثاني عيبا كان في مكنة الشاعر أن يتخلص منه اذا استبدل بإحدى الكلمتين – والأولى أسهل لعدم ارتباطها بالقافية – أخرى مرادفة لها.

أما الشعراء الذين وفدوا على بلاط الدولة الرستمية – وقد كان إقليم طرابلس ولاية تابعة لها – فأشهرهم بكر بن حماد بن سهل بن إسماعيل

الزناتي[40] الذي ولد بتيهرت سنة 200 ونشأ بها، ثم رحل إلى المشرق عام 217 لطلب العلم. ويبدو أنه كان من المتكسبين بشعرهم عن طريق مدح الحكام والرؤساء، فقد روي له شعر في أحمد بن القاسم بن إدريس حاكم مدينة «كرت» بالمغرب جاء فيه:

إن السماحة والمروءة والندى	جمعوا لأحمد من بني القاسم
واذا تفاخرت القبائل وانتمت	فافخر بفضل محمد وبفاطم

ثم انتقل إلى غرضه وهو قوله:

إني لمشتاق إليك وإنما	يسمو العقاب اذا سما بقوادم
فابعث الي بمركب أسمو به	علي أكون عليك أول قادم
واعلم بأنك لن تنال محبة	لا ببعض ملابس ودراهم

افبعث إليه بغلة سنية وصلة جزيلة[41].

كما كان له صولات وجولات مع دعبل الخزاعي وغيره. ويهمنا شعره في يوسف بن محمد بن أفلح بن عبد الوهاب احد أئمة الدولة الرستمية. وقد حفظ لنا الباروني نموذجين منه. أما أولهما فقصيدة أنشدها بين يديه لتهنئته بعودته إلى دار الإمارة بعد حروب دامت مع أعدائه أربعة أعوام وقد جاء فيها:

ماذا يدبر ربنا في أمره	سبحانه في أرضه وسمائه
رد الملوك إلى محل قرارهم	مستبشرين بفضله وعطائه
فتبارك الله اللطيف بصنعه	ما أغفل الثقلين عن نعمائه
رفع السماء بلا عماد بين	والبحر أمسكه على أرجائه

40- قال الباروني عنه: من الذين لم نتحقق مذهبهم أهو أباضي أم صفري (الأزهار الرياضية 70/2)

41- الأزهار الرياضية 74/2

لولاه فاض على العباد بموجه	وعلى الجبال الراسيات بمائه
إن المتوج يوسف بن محمد	تتزين الدنيا بطول بقائه
أخذ البلاد بسيفه فاستسلمت	وبعدله وبفضله وسخائه

وأما الثانية فقالها معتذرا طالبا الصفح والمغفرة ومنها:

ومونسة لي بالعراق تركتها	وغصن شبابي في الغصون نضير
فقالت كما قال النواسي قبلها	عزيز علينا أن نراك تسير
فقلت جفاني يوسف بن محمد	فطال علي الليل وهو قصير
أبا حاتم ما كان ماكان بغضة	ولكن أتت بعد الأمور امور
فأكرهني قوم خشيت عقابهم	فداريتهم والدائرات تدور
وأكرم عفو يؤثر ا لناس أمره	اذا ما عفا الإنسان وهو قدير[42]

وروعة هذا الشعر وتفوقه على ما سبق عرضه من شعر الأباضيين دليل على أن الشعر الأباضي الصرف لم تتح له فرصة النهوض، ولم يهيأ له الجو الملائم ليزدهر. كما يبدو من ناحية أخرى أن اهتمام الأباضيين بتسجيل شعر شعرائهم وروايته وحفظه كان ضئيلا للغاية حتى تسبب في فقد كثير من نماذجه وعبق الأيام به. ويكفينا أن نمثل بالقصيدة التي حدثت المراجع ان الإمام الجيطالي المتوفى سنة 750هـ قد قالها في مدح ابن مكي صاحب قابس ليشفع له في إطلاق سراحه عند حاكم طرابلس. ويبدو أنه بالغ في مدح ابن مكي في هذه القصيدة وتملقه، حتى لقد أنبه ضميره لذلك فبعث إليه بعد إطلاق سراحه رسالة يعلن فيها عن رجوعه عن مدحه ويخبره بأنه مدحه بما لا يستحق . ونبحث تحت ايدينا عن هذه القصيدة أو عن أبيات منها فلا نجد.

42- المرجع ص672

2- الأدب في سائر أنحاء ليبيا

1- النثر

على عكس ما سبق في الأدب الأباضي – تعد النماذج النثرية التي وصلتنا هنا قليلة جدا، على الرغم من وفرة النماذج الشعرية التي وصلتنا. وقد كنا نتوقع – لوجود الدواعي الملحة – أن نجد – على الأقل – خطابة سياسية ودينية، ومكاتبات ورسائل ديوانية، إلى جانب فنون النثر الأدبية الخالصة من رسائل إخوانية، ومحاورات أدبية، وحكم، وأمثال، ونحو ذلك. ولكننا اخذنا نقلب فيما بين أيدينا من مراجع، ونستشير كل ما وصل إلى علمنا من مصادر تاريخية وأدبية، دون أن نجد الا النزر اليسير الذي لا يطفيء ظمأ، ولا يروي غلة، ولا يسمح بإصدار أحكام على النثر الليبي، فضلا عن تقسيمه إلى عصور ومراحل.

ومن النماذج القليلة التي وصلتنا:

1- ما قاله أبو الفضل العباس بن محمد الصواف الغدامسي المتعبد: « ثلاثة أشياء تنبت النفاق كما ينبت الزرع على شاطئ الفرات: المنكر، والاختلاف إلى أبواب الحكام واستماع الغناء»[43].

2- ما قاله أبو محمد عبد الله بن إسماعيل البرقي عندما سئل عن كثرة بكائه: «إنما جعلت عيناي للبكاء، ولساني لتعظيم الله عز وجل وتحميده، والصلاة على نبيه، وبدني للتراب والبلى، وقلبي للخوف والرجاء. لم اخلق للعب ولا للهو، وانما خلقت للعمل الصالح»[44].

3- وينقل لنا أبو علي منصور العزيزي في كتابه «سيرة الأستاذ جوذر»[45]

43- اعلام ليبيا ص 146 وانظر فصل الدراسات الإسلامية من هذا البحث

44- المنهل العذب ص 68 وانظر الدراسات الإسلامية من هذا البحث

45- هو جوذر الصقلي من رجال الدولة الفاطمية. كان في صباه عبدا من مماليك مؤسسها عبيد الله المهدي وأهداه هذا الى ولي العهد ابي القاسم القائم بأمر الله وتقدم عند القائم حتى استخلفه وهو مايزال وليا للعهد على قصره (سنة 300هـ). وجعله بعد ولايته الخلافة– صاحب بيت ماله وقد أعتنق جوذر فيما بعد وحمل لقب «مولى أمير المؤمنين»، وذلك بأمر من المنصور بن القائم. ثم كان مع المعز كما كان مع ابيه وجده. وسافر مع المعز في رحلته إلى مصر فمات في الطريق قرب برقة عام 263هـ. (الأعلام الزركلي 142/2)

نماذج متنوعة لرسائل متبادلة في القرن الرابع الهجري ترتبط بولاة برقة وطرابلس (أفلح الناشب عامل برقة، ونصير الخازن عامل طرابلس، وعبد الله بن يخلف اليكتمي والى طرابلس وسرت وبرقة) والأستاذ جوذر والخليفة الفاطمي. ويهمنا منه رسالة الأمير عبد الله إلى جوذر ردا على رسالة بعث بها جوذر (وهو في طريقه إلى برقة) إلى عبد الله يطلب منه فيها أن يسأل أمير المؤمنين أن يرسل إليه مددا من السلاح والعدة، حتى يدخل المدينة والقصر بصورة بهية. وقد قال لكاتبه تعبيرا عن ذلك: «والواجب أن نجمل عسكرنا بالعدة، والسلاح الشاكي، والزي الحسن، حتى يكون دخولنا تاما بهيا. فاكتب إلى الأمير عبد الله – صلى الله عليه – تعرفه بذلك، وتسأله سؤال مولانا عليه السلام بإنفاذ شيء من السلاح والعدة، زيادة على ما عندنا، وتعرفه أني أحب الوصول إلى القصر المبارك بهذا الزي». وقد جاء رد الأمير عبد الله يقول: «سلمك الله، وأتم نعمته عليك، وتابع آلاءه لديك، ومنع فقدك، وقضى لك بالحج إلى البيت الحرام، مع مولانا عليه السلام. انتهى إلينا كتابك – سلمك الله – ووقفنا على جميعه، من بعد أن وقف عليه مولانا – صلى الله عليه – وقبلنا له الأرض، وهو يرد عليك أفضل سلام وأطيبه. وأمر – لا زال أمره عاليا مكرما معظما – بالكتابة إليك لتعريفك – سلمك الله – أن أمره نفذ إلى نصير الخازن ببعثه الجمال وصدرا كثيرا من السلاح لاحد له، وهو يصل إليك إن شاء الله. فاعمل – قال لك صلى الله عليه – على الوصول إلى الحضرة المباركة أي يوم يتهيأ لك، وأردت الوصول فيه. ويكون وصولك إلى باب القصر المبارك ... على رسم ما فعلته في أجدابية بأحسن زي وأهيئه... وهب الله لك أتم العافية، وأمل الصحة والسلامة بفضله. فاعمل ما حددناه لك – قال صلى الله عليه – وأبشر بما رزقك الله من رضاه – عز وجل – عنك، ورضا وليه – عليه السلام – الذي لم يجر هذا لأحد غيرك في العصر الذي أنت فيه، ومحقوق أنت بذلك فاحمد الله وأشكره تستوجب المزيد من جميل عطائه وجزيل فضله وامتنانه والله أسأل حراسة نعمة عندك وتتابعها لديك، ومرادفة آلائه عليك، بأجمل سلامة نرجوها لك، وأفضل صحة نؤملها بمنه وفضله، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته»[46].

46- سيرة الأستاذ جوذر مقتبسة في: ليبيا في كتب التاريخ والسير ص 252 ، 253

4- وهنــاك رســالة – حفظهــا لنا التجانــي – كتبت عــام 195 لأهل طرابلس للتبشــير بفتح قابس، على لسان الشيخ أبي سعيد بن أبي حفص (وكانت طرابلس حينئذ تابعة له) وقد نقل التجاني نص الرسالة من خط شــيخه الفقيه أبي فارس عبد العزيز بن عبد العظيم بن عبيد. وكاتبها هو أبو محمد عبد البر بن فرسان، والرسالة تقول:

«الحمــد لله الــذي أعــاض مــن النصب راحــة، وأضــاء بإشــراق للدعوة العباسية جهة من هذه المدينة كانت مظلمة... وكنا قبل وضع تاجها، وخلع رتاجها، وكســر مهابتها، والتوغل في غابتها، خاطبنا جمهورهم، واستنزلنا معمورهــم للطاعة ومغمورهم، رغبة فــي الإبقاء عليهم، وإنذارا لم يكن بد من تقديمــه إليهم؛ فرفعوا عواءهم، وركبوا أهواءهم، واســتنهضوا غويهم، فنصب للشقاوة لواءهم، وكان فيها من رجال الدرق، ورماة الحدق، غثاء أسندوا إليهم ظهورهم فانقصمت، وتمســكوا بعراهم فانفصمت... فأخذهم هول الحصار، وأحاطت الخيام بالأســوار، حتى كانت المدينة معها كالزند في ضمن الســوار، وكالعنق تحت محيط الأزرار، وكالمركز للفلك الدوار... ولما سقط في ايديهــم، ولم يجدوا راحما يعصمهم، ممن يؤذيهم، ســلكوا للطاعة طريقة، وتظاهــروا بهــا مجازا وحقيقــة، فقبلت علــى حكم التســليم والتفويض، والقيام بعبء وظيفة المــال والنهوض، وانتقلوا من الحرم إلى الحل، ومن الحرور إلى الظل، وقصر عن العدو حد الســيف المطــل... فخاطبناكم بهذا الفتح، الذي أشــرقت من جانبيه شــمس النجح، لتأخذوا من المسرة بخط من تبين لعينه تبلج الصبح ...»[47].

5- ومــن أبلغ الأجوبة وأخصرها ذلك الحوار الذي دار في ودان بين قراقوش وابنه حين دارت الدائرة عليهما، وتمكن منهما الميورقي وساقهما إلى حتفهما سنة 906هـ. ففي الطريق قال الولد لأبيه: «ياأبت إلى أين يروحوا بنا؟» فكان جواب الوالد: «إلى حيث رحنا بآبائهم»[48].

6- وهــذه صورة الهدنة مع المعتدين من جنــوة عام 689هـ:» أقرر وأنا

47- ص 106 ، 107 ، 108

48- التجاني ص 110 . ولاحظ قوله «يروحوا « بحذف النون بدون مقتض

ألبرت اســبينولا .. أنني ألتزم لمولانا الســلطان الملك المنصور الســيد الأجل العالــم العادل ســلطان القدس والبلاد المقدســة وبلاد الســاحل وفتوحات المســلمين وفتوحاته ســلطان طرابلس الســاحل إلى طرابلــس الغرب أنهم (أي الجنوية) يحفظون ويحترمون ويكرمون جميع المسلمين لمولانا السلطان الملك المنصور»[49].

ويعد النصان الثالث والرابع أهم ما ســجل لهذه الفترة، وهما يكشفان عن خصائص الكتابة الديوانيــة على ايدي المحترفين حينذاك. أما النص الأول الأول منهمــا فقد كتب في القرن الرابع الهجري، وفرســان حلبته ثلاثة: أمير المؤمنين الفاطمي، ومولاه المقــرب جوذر، وواليه على برقة وطرابلس عبد الله بن يخلف اليكتمي. وهذا النص ذو شــقين: فشقه الأول مكتوب على لسان جوذر، أما شــقه الثاني فعلى لســان عبد الله بن يخلف. وفي الشــق الأول لا نجد أي نوع من التكلف، وإنما أرســل الكلام فيه إرســالا، وأطلق على سجيته، وخــلا من عبــارات التمجيد المبالغ فيها لأمير المؤمنــين الفاطمــي. ولعل ذلك يرجــع إلى ثقة جوذر في مكانتــه عنده، وقربه منه، مما رفــع الكلفة بينهما، وجعــل الكاتب يتحرر من عبارات التفخيــم والتكريم التي لا يكاد يخلو منها مثل هذا المقام. وأما الشق الثاني - فعلى العكس من ذلك - تبدو فيه الأناقة التعبيريــة، والعناية بجانب اللفظ، وتكلف المترادفات، وكثرة الجمل الدعائية المعترضــة. هذا إلــى جانب حشــوه بعبــارات التفخيم والتمجيــد، والدعاء والتســليم؛ لكلا الطرفين أميــر المؤمنين، ومولاه المقرب جــوذر. وأي فرق نجده بين «وأتم نعمته عليك» و«تابــع آلاءه لديك» حتى يذكرهما الكاتب جميعا؟ ومــا الداعي إلى قوله «وأردت الوصول فيه» بعد قوله «فاعمل على الوصول إلــى الحضرة المباركــة أي يوم يتهيأ لــك»؟ ونعجب أشــد العجب حين تقول الرســالة: « انتهــى إلينا كتابك ووقفنا على جميعه مــن بعد أن وقف عليه مولانا» فكيف يطلع عليه مولاه قبل ان يطلع عليه هو، والكتاب موجه إليه؟ ولكن هي المبالغة في الاحتياط، والتحرز عن مواطن الشــبهة، وتكلف الأدب حين توهم الكاتب ان ســبق الاطلاع قد يعني ســبق الرتبة. وفي رأيي أننا لو

49- تشريف الأيام والعصور ، مقتبس في: ليبيا في كتب التاريخ والسير ص 266.

قمنا بحذف العبارات المترادفة، والفاظ التفخيم والتمجيد، والجمل الدعائية المعترضة لما بقي من الرسالة الا أقلها.

وأما النص الثاني منهما فقد كتب في أواخر القرن السادس الهجري، وهو موجه من الحاكم للمحكومين، أي - كما يقول رجال البلاغة - من الأعلى للأدنى، وليس كالنص السابق من الأدنى للأعلى، أو الأقل رتبة للأعلى رتبة، ولذلك خلا من عبارات التمجيد والتفخيم. ونحن وان كنا لانعرف عن كاتب الرسالة سوى اسمه، فهو على ما يبدو كاتب قدير، معجب بطريقة ابن العميد والقاضي الفاضل في الكتابة، ومدرستهما في الإنشاء، وهي مدرسة كانت قد سادت طريقتها في المشرق منذ القرن الرابع الهجري، فلا غرابة ان نجد صدى لها في المغرب في القرن السادس الهجري. ولا أظن القارىء في حاجة إلى أن نضع يده على مواطن الأناقة التعبيرية، والمحسنات البديعية في النص، فهي كثيرة ومتتابعة، وفي نفس الوقت متنوعة بين طباق وجناس وسجع وازدواج وتورية واقتباس. واكثرها التزاما السجع في نهاية الجمل، والجناس في نحو: تاجها ورتاجها، معمورهم ومغمورهم، انقصمت وانفصمت، الأسوار والسوار، وهما من نوع المحسنات البديعية الصاخبة التى لا تخطئها الأذن، ولا تخفى في السمع.

ب- الشعر

1- الشعر إبان حكم الولاة (22-184هـ)

يعد النصف الأول من هذه الفترة عصر فتوحات وحروب، وكرّ وفرّ بين الفاتحين المسلمين، وسكان البلاد الأصليين. كما تعد الفترة بتمامها فترة انتقال من البربرية إلى العربية، ومرحلة من مراحل الصراع بين اللغة الوافدة واللغة، أو اللغات القديمة التي كانت موجودة في المنطقة . ولهذا لا يمكن توقع اى نهضة شعرية في هذه الفترة، أو وجود شعراء محليين من أبناء ليبيا، سجلوا مشاعرهم وعواطفهم باللغة العربية، وعلى طريقة العرب في قول الشعر.

وإلى جانب هذا كان انشغال الولاة - من ناحية - بإقرار الأمن وإخماد

الثورات، وقصر فترات حكمهم - من ناحية أخرى - صارفا لهم عن الاهتمام بالشعراء الوافدين وإسباغ العطاء لهم. بل أكثر من هذا لم يكن عند هؤلاء الولاة ما يسبغونه على الشعراء - لو ارادوا - لفقر الدولة في هذه الأيام وتلقيها إعانة سنوية من مصر يبلغ مقدارها 100 الف دينار كما حكى أحمد النائب في كتابه المنهل العذب. ولم تلغ هذه الإعانة إلا عام 184هـ حينما تولى إبراهيم بن الأغلب من قبل هارون الرشيد ولاية افريقية[50].

ولكن وسط هذا الظلام الكثيف، وجدت ومضة من ضياء لمعت في عهد أبي خالد يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي الذي ولاه الرشيد أمر افريقية والمغرب من سنة 155 إلى 170 هـ[51]. ولقد كان يزيد محبا للعلم، متذوقا للشعر، ميالا إلى الأدب، ولذلك لما آل إليه أمر افريقية «استصحب معه من المشرق جماعة من الأدباء والكتاب والبلغاء»[52]. وعرف الشعراء عنه ذلك، كما عرفوا عنه كرمه ونجدته، فتقاطروا عليه من كل حدب وصوب، وأنشدوا القصائد بين يديه، وأهدوا المدائح إليه، فكان يقابل مديحهم بالعطايا، وثناءهم بالهبات، ومن أشهر من وفدوا على يزيد أبو أسامة ربيعة بن ثابت الرقي الأسدي من أدباء الدولة العباسية المعدودين، وممن احتج الأصمعي بشعرهم. وقد كان ربيعة على صلة بيزيد في ولاياته

50- ص 73.

51- أرسل المنصور يزيد بن حاتم الى افريقية اول الأمر عام 154 لقتال الخوارج الذين قتلوا عامله عمر بن حفص وقد انتصر على الخوارج عام 155، ودخل بعدها مدينة القيروان، واستقر واليا بإفريقية يومئذ (وفيات الأعيان 365/5) وقد يسر يزيد بن حاتم بحكمته وسياسته للمغرب الأدنى في عهده سبيل البناء، فازدهرت العلوم والتجارة والصناعة، وعم النشاط، ونبغ في ظله عشرات من العلماء. وقد استقامت ليزيد الأمور بعد أن انتصر على البربر، وبنى المسجد الأعظم بالقيروان وجدده سنة 157، ورتب الأسواق هناك، وجعل كل صناعة في مكانها، حتى لو قيل انه الذي مصرها لم يبعد عن الحق. وقد بقيت الأمور ساكنة مدة حياته الى أن توفي (نهاية الارب للنويري، مقتبس في: ليبيا في كتب التاريخ والسير ص 172، ودبوز 90/3) ويقول ابن عذارى: « وفي سنة 155 انصرف ابو حاتم الأباضي من طرابلس إلى القيروان، وقدم يزيد بن حاتم وفي عهده ثار ابو يحي قرياس الهواري بناحية اطرابلس واجتمع عليه كثير من البربر ولكن يزيد هزمه وقتل عامة أصحابه وتهدنت افريقية له بعد ذلك (البيان المغرب 79/1)

52- ورقات 161/1 وقد كان إقليم طرابلس تابعا ليزيد كما يفهم من نص ابن عذارى السابق. وهذا الشعر الوافد وان لم يكن يمثل الشعر الليبي فهو يدخل تحت الشعر الذي ارتبط بليبيا؛ ولذا لا يصح تجاهله.

العديــدة قبل توليه افريقية بمدحه وينال جوائزه. فلما تولى يزيد أمر افريقية قصده ربيعة وأنشده أبياته السائرة:

حلفت يمينا غير ذى مثنوية   يمين امرىء إلى بها غير آثم
لشتان ما بين اليزيدين في الندى   يزيد سليم والأغر ابن حاتم
زيد سليم سالم المال، والفتى   خو الأزد للأموال غير مسالم
فهم الفتى الأزدي إتلاف ماله   وهم الفتى القيسي جمع الدراهم
فلا يحسب التمتام اني هجوته   ولكنني فضلت أهل المكارم
فيأيها الساعي الذي ليس مدركا   بمسعاته سعى البحور الخضارم
سعين ولم تدرك نوال ابن حاتم   ونمت وما الأزدى عنها بنائم
هو البحر إن كلفت نفسك خوضه   تهالكت في آذيه المتلاطم
تمنيت مجدا في سليم سفاهة   أماني خال أو أمالى حالم
الا إنما آل المهلب غرة   وفي الحرب قادات لكم بالخزائم
هم الأنف في الخرطوم والناس بعدهم   مناسم والخرطوم فوق المناسم
قضيت لكم آل المهلب بالعلا   وتفضيلكم حق على كل حاكم
لكم شيم ليست لخلق سواكم   سماح وصدق الباس عند الملاحم
مهينون للأموال فيما ينوبكم   مناعيش دفاعون عن كل حارم

وفيها:

أبا خالد أنت المنوه باسمه   اذا نزلت بالناس إحدى العظائم
كفيت بنى العباس كل عظيمة   وكنت عن الإسلام خير مزاحم

ويقال ان ربيعة لما مدحه بهذه القصيدة استبطأ بره وصلته فقال:

أراني – ولاكفران الله – راجعا   بخفى حنين من نوال ابن حاتم

فلمــا بلغ ذلك يزيد دعا به وقال لخدمــه: انزعوا خفيه. فنزعا – وربيعة خائــف علـى العقوبة من ذكره خفى حنين – فملأهما له دراهم ودنانير. وكانا كبيرين كأخفاف الجنود. ثم وصله بعد ذلك بصلات جزيلة[53].

كذلك من أشــهرهم أبو عبد الله محمد بن مســلم – وهو شاعر أموي – وقد مدحه بقصيدة بليغة جاء فيها:

واذا تباع كريمة أو تشترى   فسواك بائعها وأنت المشتري
واذا تخيل من سحابك لامع   سبقت مخيلته يد المستمطر
واذا صنعت صنيعة أتممتها   بيدين ليس نداهما بمكدر
واذا الفوارس عددت أبطالها   عدوك في أبطالهم بالخنصر[54]

ومما قاله ابن مسلم أيضاً:

يا واحد العرب الذي   أضحى وليس له نظير
لو كان مثلك آخر   ما كان في الدنيا فقير[55]

وممن وفدوا عليه المسهر التميمي الشاعر وأنشده:

إليك قصرنا النصف من صلواتنا   مسيرة شهر ثم شهر نواصله
فلا نحن نخشى ان يخيب رجاؤنا   لديك ولكن أهنأ البر عاجله

فدفع إليه يزيد مائتي ألف درهم.

ومدحه صفوان بن صفوان من بني الحارث بن خزرج بأبيات منها:

لم أدر ما الجود الا ما سمعت به   حتى لقيت يزيدا عصمة الناس[56]

53- يقصد بيزيد (الثاني) يزيد بن أسد والي أرمينية وكان في لسانه تمتمة فعرض بها انظر الحلة السيراء 74/1 ، 75 ووفيات العيان 366/5 ، 367 وورقات 142/1 ، 143.
54- وفيات الأعيان 269/5 وانظر ورقات 144/1 ، ودبوز 97/3
55- وفيات الأعيان 369/5
56- المرجع 368/5

ومما قيل في يزيد أيضاً:

ياواحد العرب الذي دانت له   قحطان قاطبة وساد نزارا

إني لأرجو اذ بلغتك سالما   ألا أكابد بعدك الأسفارا[57]

ولقد كان يزيد نفسه شاعرا، وقد قال عن نفسه:

لا يألف الدرهم المضروب صرتنا   الا لماما يسيرا ثم ينطلق

يمر مرا عليها وهي تلفظه   اني أمرؤ لم يحالف حزمتي الورق[58]

وماعدا هذه الفترة القصيرة لا نكاد نجد شيئا يذكر.

2- الشعر في عهد الأغالبة[59]: (184-296هـ):

بمجيء الأغالبة دخلت طرابلس عهدا جديدا، امتاز بتمتع البلاد بكثير من الحرية والاستقلال في الرأي، مع ارتباط شكلي بالخليفة يتمثل في السكة، والخطبة له على منابر البلاد. وكانت البلاد في العهد السابق تحت حكم ولاة خاضعين لأوامر الخلفاء الأمويين ثم العباسيين[60].

ولقد ساعد الأغالبة على ظهور الحركة العقلية وعلى ارتقائها بتأسيس أول جامعة افريقية للعلم والترجمة وهي بيت الحكمة في «رقادة». كما جلب الأغالبة نفائس الكتب من أطراف العالم العربي، من العراق والشام ومصر[61]. ولقد كان إبراهيم بن الأغلب مؤسس الدولة الأغلبية بإفريقية فقيها عالما أديبا شاعرا خطيبا.. وكان في أول أمره كثير الطلب للعلم[62].

57- دبوز 96/3

58- دبوز 97/3 ورواية الحلة السيراء:» حزمتنا « بدل «صرتنا» و»قليلا» بدل «يسيرا» و»خرقتي» بدل «حزمتي» (76/1)

59- كانت ليبيا في الحقيقة مقسمة في عهدهم سياسيا بين دولتين: القسم الساحلي ويتبع الأغالبة، والقسم الداخلي ويتبع الدولة الرستمية الأباضية وقد سبق الحديث عنها (راجع حسن محمود ص 137). ولم تكن عاصمة الأغالبة في ليبيا وانما كانت في «العباسية « من أول ولاية ابراهيم الأول (184هـ) ثم سكنوا بعدها «رقادة» منذ أن اتقل اليها ابراهيم الأصفر واتخذها مقر الإمارة (264هـ) وذلك قبل سقوط الدولة باثنين وثلاثين عاما (ورقات 192/1 ، 193)

60- حسن محمود ص 125

61- ورقات 27/1

62- الحلة السيراء 93/1

وقد تولى أمر إفريقية مدة اثنتي عشرة سنة (184-196هـ). وله شعر كثير روى طرفا منه ابن الأبار. ومن جيد هذا الشعر:

ما سرت ميلا ولا جاوزت مرحلة   الا وذكرك يثنى دائبا عنقي

ولا ذكرتك الا بت مرتفقا   أرعى النجوم كأن الموت معتنقي[63]

ومن ولاة طرابلس الشعراء: أحمد بن سفيان بن سوادة بن سفيان بن سالم ابن عقال من الأغالبة، وقد قال عنه ابن الأبار: «ولى طرابلس وأعمالها سنين كثيرة»؛ كما ذكر بيتين من قصيدة قالها بكر بن حماد في مدحه وهما:

وقائلة زار الملوك فلم يفد   فيا ليته زار ابن سفيان احمدا

فتى يسخط المال الذي هو ربه   ويرضي العوالي والحسام المهندا

ومن شعر أحمد نفسه:

قربوا الأبلق إني أعرف الخيل العتاقا

وعليها أصرع الأبطال طعنا واعتناقا

أخبط الارواح والانـ فس بالرمح صداقا

وأروي من نجيع الـ سهام أسيافا رقاقا

له من قصيدة أخرى:

انما الأبلق حصني ثم رمحي وحسامي

فيه عز لعشيري وبه عنهم أحامي

وبه أشفى من الأعـ داء صدري بانتقام

أنا من سر نزار وابن سادات كرام

63- المرجع 94/1

أنا من سعد تميم   لست من سعد جذام
أنا من قد جال ذكرى   وجرى بين الأنام
أنجبتني السادة الصيـ   ـد همام لهمام
تعرف الأنسر بأسي   فهي من فوقي حوام
ميزت في الحرب رايا   تي وارماحي الدوامي
فهي حولي عاكفات   وهي خلفي وأمامي
ترقب الطعم الذي عو   (م) دتها يوم صدامي
ابدا تعرف مني   هكذا في كل عام
فإذا ما آلت السلـ   ـم وصرنا للمدام
أبصرت عيناك منا   الجماً تحت الظلام
نتلاقى ونبدى   بتحيات السلام
وننيل الزائر المعـ   روف من قبل الكلام[64]

ويحدثنا ابن الأبار كذلك عن عبد الله بن الصائغ المعروف بصاحب البريد فيقول: «أحد ولاة زيادة الله بن عبد الله آخر ملوك بني الأغلب، وأصحابه المخصوصين بلطف المنزلة عنده، وتغير عليه آخرا فقتله بطرابلس عند انتقاض دولته وهربه إلى مصر أمام الشيعي في سنة 296»[65] ويبدو ان عبد الله هذا لم تكن له صلة وظيفية بطرابلس، وأن قتله كان أثناء مروره – فقط – بأرض طرابلس في الطريق إلى مصر، وكان عبد الله هذا شاعرا مجيدا، وروى له ابن الأبار نماذج كثيرة منها:

ولي كبد لولا الأسى لتصدعت   وقلب أبى أن يستريح إلى الصبر

64- الحلة السيراء 182/1-185
65- المرجع 189/1

وقد كنت أخشى هجرهم قبل بينهم   فقد صرت بعد البين أقنع بالهجر

ومنها:

طالعتني طوالع الشوق لما   أن بدا البدر في مثال طلوعك
يا غزالا أقسى من الصخر قلبا   ليت قلبي يبيت بين ضلوعك[66]

ولهذا وغيره فنحن نتوقع ان يوجد في هذه الفترة شعراء ليبيون مجيدون، ولكننا لا نجد تحت ايدينا شيئا ذا بال.

كذلك تتحدث المراجع عن الأمير محمد بن زيادة الله الثاني والي طرابلس وتقول إنه كان عالما أديبا شاعرا خطيبا لا ينادم الا أهل الأدب[67]، ولكنك تبحث فيما تحت يدك من مراجع عن تفصيل لهذا البيان الموجز، أو امثلة لشعره، أو حتى ذكر لأسماء منادميه من الشعراء والأدباء فلا تجد طائلا، فكل ما هنالك بيتان منسوبان له هما:

وما شجا قلبي بتوزر أنني   تناءيت عن دار الأحبة والقصر
غريبا فليت الله لم يخلق النوى   ولم يجر بين بيننا آخر الدهر[68]

ولعل محمد بن زيادة الله هذا الذي ولى طرابلس من قبل ابن عمه إبراهيم ابن أحمد بن محمد لم يمنح الفرصة للنهوض بطرابلس علميا وادبيا، اذ ما لبث أن حقد عليه إبراهيم بن أحمد بعد أن قال المعتضد «عجبا من إبراهيم ما يبلغنا عنه إلا سوء الثناء عليه، وعامله على طرابلس يبلغنا عنه خلاف ذلك من رفق بمن ولى عليه وإحسان»، ولذا مضى قاصدا طرابلس فقتله وصلبه بغيا وحسدا، وقتل أولاده، وشق جوف بعض نسائه عن جنينها[69].

ويبدو كذلك أن تقسيم طرابلس في هذه الفترة بين الأباضية – الذين لا يهتمون كثيرا بالشعر – والأغالبة، كان من أهم العوامل التي أضعفت

66- المرجع 177/1 ، 189
67- المرجع 179/1، 180
68- - الحلة السيراء 181/1
69- المرجع 180/1

الشـــعر الليبي فـي هذه الفتــرة، بل وأضعفت الحياة الأدبيـــة بوجه عام. كما يبدو أن لاستمرار الحروب بين أباضية ليبيا – التابعين اذ ذاك للدولة الرستمية – ودولة الأغالبة كان من عوامل انشغال الحكام عن الحياة الأدبية والشعرية. وقـد كان من أعنف المعــارك التي دارت غزو إبراهيم بــن أحمد الأغلبي – في وقعــة مانو – مدينة قنطرارة في جبل نفوســة وأســره 80 عالما وقتله 400 آخريــن[70]، وكان ذلك عام 283هـــ. وفي العالم التالي مباشــرة حدثت وقعة أخرى بين الأغالبة والنفوسيين، وقتل من الأخيرين جمع كبير[71]. وقد كان هذا الصراع خير فرصة للفاطميين، وقد اســتغلوها احسن استغلال فعلا، وتمت على ايديهم نهاية كلتا الدولتين الأغلبية والرستمية.

وكما شــغل الأغالبة بأباضية طرابلس شغلوا بوافد آخر من الشرق وهو العباس بن أحمد طولون. ففي ســنة 267هـ غــزا العباس طرابلس، ومر في طريقــه إليها ببرقة فوجــد فيها ابن قهرب، فلم يقــدر الأخير على مواجهة ابــن طولون ففر إلى تونس، وأخبــر إبراهيم بن الأغلب بخبر ابن طولون فجهز نحو عشــرة آلاف فارس برياســـة ابن قهرب، وأدرك به طرابلس قبل أن يدركها ابن طولون، وأخذ قســما من جيشها وعسكر ي لبدة في انتظار ابن طولون. ووصل ابن طولون لبدة وتغلب على ابن قهرب وعاث في بادية طرابلس فسادا، وكتب إلى إلياس بن منصور الأباضي رئيس الأباضية في جبل نفوســة يطلب منه تســليم نفسه، ولكن إلياســا اعد له جيشا والتقى الجيشان قرب قصر حاتم، وانتهى اللقاء بهزيمة ابن طولون شر هزيمة[72].

وعلــى الرغــم مــن هزيمة ابن طولــون فقد ســجل صموده فـــي المعركة

70- دبوز 393/3. وقد تحدث الباروني هن هذه المعركة فقال: في مدة افلح كانت موقعة مانو التي فل فيها حد ســيوف نفوسة، وفنيت فيها أبطالهم. وبعدها ضعفت الإمامة بتيهرت إذ كانت نفوســة حصنها الحصين وسيفها البتار. وسبب هذه النكبة ما كان يصل بني العباس في المشــرق من أخبار حول قوة نفوســة وكان ذلك في عهد المتوكل ببغداد. فأنفذ الى المغرب جيشــا بقيادة ابراهيم بن الأغلب، واراد ابن الأغلب المرور بطرابلس فمنعه أهل نفوسة مخافة أن يكــون ذاهبا الـــى تيهرت مقر إمامتهم. ودارت معركة بــين الفريقين عند «مانو» وهو قصر قديم بين قابس وطرابلس قتل فيها من الأباضيين 12 ألفا منهم 4 آلاف من نفوسة من بينهم 400 عالم (الأزهار الرياضية 281/2 ، 282) .

71- المرجع 284/2

72- ابن عذارى: البيان المغرب 119/1 ، والزاوي: ولاة طرابلس ص 63

واســتماتته في القتال في شــعر حفظــت لنا بعضه المراجــع العربية ومنه قوله عن نفسه:

لله درى إذ أعدو على فرسي … إلى الهياج ونار الحرب تستعر
وفي يدي صارم أفرى الرءوس به … في حدة الموت لا يبقى ولا يذر
إن كنت سائلة عني وعن خبري … فهأنا الليث والصمصامة الذكر
من آل طولون أصلي إن سألت فما … فوقي لمفتخر بالجود مفتخر
ورثت مجد أبي عنه وورثني … مجدا أناف به آباؤه الغرر
لو كنت شاهدت كرى بليدة إذ … بالسيف أضرب والهامات تبتدر
يدعون لا أين والعباس يقدمهم … كأنهم حمر والليث مقتسر
إذن لعاينت مني ما تبادره … عني الأحاديث والأنباء والخبر[73]

ومع انشــغال إبراهيم الثاني الأغلبي (261-289هـ) بهذه الحروب، فقد عرف بحشــده للأدباء والشــعراء، وكان هو نفسه يتقن كثيرا من علوم الدين واللغة والأدب، وينشــد الشعر الرقيق، ويشــارك في المناظرات العلمية. وقد كان رئيس ديوان الإنشـــاء في عهده أبو اليســر إبراهيم بن محمد الشيباني، وهــو أديب بغدادي تتلمذ على كبار أدباء عصــره كالجاحظ والمبرد وثعلب وابن قتيبــة، ولقي من الشــعراء أمثال أبي تمـــام والبحتري وعلي بــن الجهم، وروى دواوينهم مباشــرة عنهم، وجالس العلمـــاء والكتاب. وقد قال عنه المؤرخون: «هو الذي أدخل إلى إفريقية وســائل المحدثين وأشعارهم وطرائف أخبارهم»، ووصفوه «بالأدب الرفيع والترســل البليغ والشــعر الرائق». ومات سنة 298 بعد قيام الدولة الفاطمية واشتراكه في تثبيت أركانها[74].

ومـــن ضمهم البلاط الأغلبي كذلك أبو العباس محمد بن حيون البريدي،

73- المواعــظ والاعتبار للمقريزي وســيرة ابن طولون للبلوي كلاهمــا مقتبس في: ليبيا في كتب التاريخ والسير ص 187 ، 249 وهذا الشعر وإن لم يكن قائله ليبيا فقد ذكرناه لارتباطه بليبيا

74- ورقات 222/1 ، 244 ، 245

وقد كان معاصرا لأبي اليسر الشيباني، وكان يرأس ديوان الإنشاء قبل قدومه. وقد أرسل إلى الأمير رسالة بليغة يستعطفه فيها لأنه غضب عليه وسجنه، ومما جاء فيها:

هبني أسأت فأين العفو والكرم — قد قادني نحوك الإذعان والندم

يا خير من مدت الأيدي إليه أما — ترثى لمن قد بكاه عندك القلم

بالغت بالسخط فاصفح صفح مقتدر — إن الملوك اذا ما استرحموا رحموا[75]

ومن الذين وفدوا على بلاط الأغالبة في «رقادة» بكر بن حماد (الذي سبق القول بتردده على بلاط الرستميين كذلك)، ويروى أنه كان ينتجع إبراهيم الثاني ويمدحه، فيصله بجوائزه السنية، ومن شعره فيه قصيدة مدح بعث بها إليه، وقد جاء فيها:

خلقن الغواني للرجال بلية — فهن موالينا ونحن عبيدها

اذا ما أردنا الورد في غير حينه — أتتنا به في كل حين خدودها

وكتب تحت الأبيات:

فإن تكن الوسائل أعوزتني — فإن وسائلي ورد الخدود

وأعجب الأمير بالشعر، وأمر جواريه بإنشاده وإيقاعه على العود[76].

وهناك شاعر آخر مشهور ارتبط اسمه بفترة حكم الأغالبة، وإن كان من الثابت أنه لم يقصدهم في بلاطهم، ولم ينل جوائزهم، وهو دعبل الخزاعي. وعلى الرغم من تضارب الروايات في مكان موته فقد اختار الأستاذ علي مصطفى المصراتي بعد تحقيق طويل أن يكون موته في مدينة زويلة (من بلاد فزان). ودليل الاستاذ المصراتي ما ذكره الرحالة البكري حين التعرض لمدينة زويلة من أن بها قبر «دعبل الخزاعي»، وإيراده دليلا على ذلك قول بكر ابن حماد معاصر دعبل وعدوه اللدود:

75- ورقات 248/1

76- ورقات 193/2 , 194 والأبيات في الحلة السيراء 174/1

الموت غادر دعبلا بزويلة — في أرض برقة أحمد بن خصيب

ويعلل الأستاذ المصراتي ذهاب دعبل إلى زويلة بأن الشاعر بعد أن تناوش مع حاكم مصر تركه واتجه صوب ليبيا – في طريقه إلى المغرب - ولكن الموت باغته ولاحقه في ليبيا[77]. ومعنى هذا أن دعبلا لم يكن يقصد الإقامة في زويلة، ولكن الموت فاجأه وهو هناك. ويقدم الأستاذ المصراتي تعليلا آخر لوجود دعبل في زويلة قائلا إنه أراد أن ينزوي، فاختار هذه المدينة ذات الحضارة والحياة المنظمة، والتي أشتهر أهلها بحب أهل البيت الذين كان ينظم دعبل فيهم مدائحه الطوال، وبدائعه الرائعات التي تكاد تفوق قصائد الكميت ومقالات الشريف الرضي[78]. ومعنى هذا أنه اختار زويلة مستقرا له، وأنه كان ينوي الإقامة بها مهما امتد به العمر. ومهما يكن السبب في وجود دعبل بزويلة فإنني أرجح ما ذكره الأستاذ المصراتي من موته ودفنه بها، وأؤيد رأيه بما ذكره ابن رشيق كذلك من وجود قبر دعبل في مدينة زويلة بليبيا[79]. وابن رشيق من القيروان، أي من نفس المنطقة، وعصره قريب من عصر دعبل.

وقبل أن أختم هذا المبحث أشير إلى بيتين تتناقلهما كتب الأدب والتاريخ لشاعر ليبي قديم اسمه أحمد بن يحيى وهو ابن أخي علي بن زياد المتوفى سنة 183. وهذان البيتان هما:

لقد طال شوقي إلى فتية — حسان الوجوه بأطرابلس

وقد عيل صبري فما مسعدي — على الشوق الا دموعي الحبس[80]

وقد اهتمت كتب الأدب والتاريخ بهذين البيتين لاشتمالهما على شاهد لغوي، هو استعمال اسم البلد بالهمزة في أوله.

وهناك أبيات ثلاثة أخرى رواها ابن الأبار للشاعر عبد الله بن محمد ابن عبد الله بن الأغلب الذي ولي طرابلس ثم صقلية (عام 259هـ) ثم طرابلس

77- لمحات أدبية ص 25-29

78- المرجع ص 29، 30 وانظر كذلك الزاوي: معجم البلدان ص 177 , 178

79- العمدة 72/1

80- نفحات النسرين ص 56 ورواية التجاني: الا دموع بجس (ص271)

مرة أخرى، وولي أيضاً القيروان. وقد أرسل بالأبيات الثلاثة لما بلغه قرار عزله عن طرابلس إلى صديقه أبي هارون موسى بن مرزوق صاحب بريدها، وكانا صديقين:

قد أتى في الكتاب ما قد علمنا   من ثناء ورحلة وفراق

وعددنا الأيام فهي ثمان   بعد خمس سريعة الإفتراق

فعليك السلام إن فراقي   قد دنا والفراق مر المذاق[81]

وهناك أخيرا ارجوزة فريدة في المجون قالها ابن عامر الفزارى في مرد افريقية أيام بني الأغلب، وفيها إشارة إلى قاضي طرابلس وصاحب وثائقها، وكان رجلا مستهترا بالمرد. وقد تسببت هذه القصيدة في عزل القاضي عام 320هـ[82]. وأول الأرجوزة:

وروضة تكسو أديم الأرض

وشيا بديعا من نبات غض

منها على الأرواح قاض يقضي

بياض بعض واحمرار بعض

وفيها:

نار ابن سلمان على الغزلان

شبيه بدر فوق غصن بان

ما إن له في حسنة من ثان

كأنما صيغ من العقيان [83]

81- الحلة السيراء 181/1 ، 182

82- لا خطأ في هذا التاريخ كما قد يتوهم بعضهم فقد قيل الشعر إبان حكم الأغالبة (الذي انتهى عام 296هـ) ثم روى هذا الشعر أمام الوالي الفاطمي فعزل الشاعر عن منصب القضاء (الذي كان قد تولاه) وذلك عام 320هـ

83- البيان المغرب لابن عذارى ، مقتبس في: ليبيا في كتب التاريخ والسير ص 97

وهكذا يمكننا أن نصدر حكمنا – ونحن مطمئنون – على هذه الفترة بأنها فترة ارتقى فيها الشعر، وتنوعت فنونه، وكثر فيها الشعراء المحليون والوافدون، وإن بخلت علينا المصادر بالنماذج الكافية، وضنت علينا بتفصيلات تسمح بإصدار أحكام دقيقة.

3- الشعر تحت حكم الفاطميين ومن بعدهم حتى قيام الموحدين (555 -692هـ):[84]

لم تتمتع ليبيا – حتى في هذه الفترة – باستقرار سياسي، ولم تتخذ في أي وقت من أوقاتها قاعدة للحكم. ولهذا لم تخرج هذه الحقبة عن كونها امتدادا لحكم الولاة الذين يعينون من خارج الحدود، ويدينون بالولاء لغيرهم. ولم يكن الولاة – من ناحية – يتمتعون بنفوذ قوي، كما أنهم لم يستطيعوا – من ناحية أخرى – أن يشعروا الناس بالطمأنينة والاستقرار تحت لوائهم. كما أن استقرار الحكم الفاطمي في مصر، وتهاونه في امر المغرب خلق أطماعا كثيرة في المنطقة، وقسمها شيعا وأحزابا ودويلات، وفتح بابا للطامحين أو الطامعين أن يتحركوا، ويستقلوا ببعض أجزاء من البلاد.

لهذه الأسباب جميعها لم يزدهر الشعر بنفس القدر الذي ازدهر به في انحاء اخرى من العالم العربي و»لم تستطع طرابلس أيام بني خزرون أو بني مطروح أو بني ثابت ان تكون ذات بلاط أدبي، لم تستطع ان تنعش الحياة الأدبية بمثل حماية المعز بن باديس في القيروان، أو المستنصر الحفصي في تونس، دع عنك ذكر قرطبة الأمويين، وإشبيلية العباديين، وحلب الحمدانيين

84- يدخل في هذه الفترة الحكام الصنهاجيون وبنو خزرون لأن معظمهم كان يين بالولاء للحكم الفاطمي في مصر ويستمد وجوده منه وتمتد هذه الفترة حتى دخول طرابلس في طاعة الموحدين عام 554هـ (انظر ولاة طرابلس للزاوي ص 69-101) وقد قال ابن البار انه في سنة 296 انقرض ملك بن الأغلب بعد 112 سنة وملك بني مدرار بسجلماسة بعد 160 سنة وملك بني رستم بتاهرت عن 130 سنة (الحلة السيراء 1/ 191 ، 192) ويقول دبوز:» كانت الدولة العبيدية الشيعية التي نشأت في أواخر القرن الثالث الهجري هي السبع الهائج الذي فغر فاه على الدول المغربية فقضى عليها كلها ..» (610/3) ولكنه يختلف مع ابن الابار في بيان عمر الدولة الرستمية اذ يحدده بمائة واثنين وخمسين عاما وقد اعتبر ابن الابار نهاية الدولة العبيدية بافريقية على يد المعز بن باديس الصنهاجي 29/02)

وقاهرة الفاطميين وبغداد العباسيين»[85].

ولهذا فإننا – على الرغم مما نجده من إشارات إلى شعراء وأدباء يحملون نسبا ليبية كالوداني والطرابلسي والبرقي – لا نستطيع ان نقرر أنهم استطابوا العيش هناك، وانتجوا أدبهم أو شعرهم في مسقط رأسهم، بل إننا نستطيع أن نقرر في أحيان كثيرة أن العكس هو ما حدث، وأن كثيرا من هؤلاء الشعراء والأدباء – حين لم يجدوا التقدير والتشجيع في وطنهم – خرجوا إلى أرض الله الواسعة، واتصلوا ببلاطات اخرى للحكام، ووصلوا انفسهم بدواوينهم، وطاب لهم المقام معهم، وتحت لوائهم، والأمثلة على ذلك كثيرة حتى من بين أشهر شعراء هذه الفترة وأخصبهم إنتاجا كما سنرى فيما بعد، وأشهر شعراء هذه الفترة وما وصلنا من شعر لهم كما يأتي:

1- أبو العباس خليل بن إسحاق بن ورد، قال عنه بن الأبار «مولده بطرابلس وهو من أبناء جندها، وكان في أول الأمر يطلب العلم والأدب، ويصحب الصوفية ويبيت في المساجد إلى ان خالف أهل طرابلس بلده سنة 992، فكان هو المتولى لعذابهم، وأخذ أموالهم، وذلك في أول دولة عبيد الله المهدي»[86].

ولم يدم خليل طويلا في طرابلس اذ ما لبث أن أتبع القائم ابا القاسم محمد ابن عبيد الله المهدي في مسيرة إلى محاربة أهل مصر، وهو إذ ذاك ولي عهد، فلحقه بالإسكندرية وهناك ولاه أمر جباية الأموال والنظر فيها، ثم انصرف إلى المهدية فقدم على خيل افريقية، وكان أمر جندها إليه، مع النظر في البحر، وخرج بعد ذلك إلى صقلية واليا على أهلها فأهلكهم جوعا وقتلا وهرب كثير منهم إلى بلد الروم، وذلك في أول دولة القائم سنة 325، ولما قدم منها خليل ابن إسحاق عام 329 كان يفتخر بما فعل ويقول: «المكثر يقول اني قتلت وأهلكت ألف ألف والمقل يقول ستمائة ألف»[87] وكانت نهاية

85- إحسان عباس: تاريخ ليبيا ص 224 ، 225

86- الحلة السيراء 302/1

87- هذه رواية ابن الأبار وابن عذارى ومعظم المراجع ولكن رواية النويري في نهاية الأرب غير ذلك اذ يقول «فوصل خليل بن إسحاق الى المدينة في آخر سنة 325 فأطاعه أهل صقلية

ابن إسحاق محزنة؛ إذ انتدبه القائم بعد ذلك لحرب أبي يزيد الخارجي وأخرجه إلى مدينة القيروان في ألف فارس، فقصده أبو زيد[88] فدخل القيروان، وحصره بداره ثم اعتقله هو وأصحابه وقتلهم جميعا وأمر بهم فصلبوا[89].

ومع ما اتصف به خليل بن إسحاق من قوة وفظاظة وسفك للدماء فقد كان شاعرا مبدعا، ومن جيد شعره قوله يمدح المهدي ويناقض مروان بن أبي حفصة:

قف بالمنازل واسألن أطلالها   ماذا يضيرك إن أردت سؤالها
هل أنت أول من بكى في دمنة   درست وغيرت الحوادث حالها
يادار زينب هل تردين البكا   عن مقلة سفحت عليك سجالها
بدلت بالإنس الخرائد كالدمى   وحش الفلاة ظباءها ورئالها
ولقد عهدت لآل زينب حبرة   فيها ودنيا أقبلت إقبالها
بيضاء ناعمة يجول وشاحها   وتهز دقة خصرها أكفالها
ولها قوام كالقضيب وفوقه   جعد يصافح كفه خلخالها
وكأن في فيها بعيد رقادها   عسلا أصاب من السماء زلاها
ولقد عصيت عواذلي في حبها   والنفس تعصى في الهوى عذالها

ومنها:

صلى الاله على النبي محمد   وعلى الإمام وزاده أمثالها
إن الإمام أقام سنة جده   للمسلمين كما حذوت نعالها
أحيا شرائعها وقوم كتبها   وفروضها وحرامها وحلالها

فاكرمهم وعزل عنهم عمال سالم (الوالي السابق) ص 437

88- هكذا ورد الاسم مرة ابو يزيد ومرة ابو زيد في ابن الأبار 302/1

89- ابن الأبار 302/1 ، والبيان المغرب 215/1

وهدى به الله البرية بعدما   طلب الغواة الظالمون ضلالها

إن الخلافة يا ابن بنت محمد   حطت إليك عن النبي رحالها

والشـاعر يصـر علـى بـدء قصيدته في المـدح بالغزل والتشـبيب وبكاء الاطـلال على عادة العرب القدماء، وأوصاف محبوبته التي تعلق بها لا تخرج عـن الأوصاف العربية التقليدية، من بياض لبشـرتها دال على تنعمها وعدم تعرضها لأشـعة الشـمس، ودقة خصرها، وثقـل أردافها، واعتـدال قوامها، وطول شـعرها الذي يمتد حتى يصل إلى موضـع الخلخال منها، وطيب فمها حتى بعد قيامها من نومها، وهو وقت تغير الفم.

وحتـى في مدحه للمهدي لم يأت بجديد؛ فالإمام خليفة الله في أرضه، وانتقال الخلافة إليه جاء بطريق الشـرع والتسلسـل مـن النبي حتى وصلت إليه، والإمام عادل يقيم شرائع الله، ويطبق تعاليمه، ويحيي سننه؛ ومن أجل هذا فقد سـاد البلاد الطمأنينة والأمان، وعمـت الناس الهداية بعد أن حاول بعض المارقين الانحراف بهم، وإخراجهم عن الطريق السوي.

وخيـال الشـاعر في هذه القصيـدة خصب ولهذا جاءت صـوره الخيالية رائعـة معبرة وتنوعت بين التشـبيه، والاسـتعارة، والكناية، وأسـلوبه جيد وألفاظه موحية لا تجد في أي منها نبوا أو قلقا.

ويبدو ان ابن إسـحاق كان يقف نفسـه وشعره على الحكام، أو لم يصلنا من شـعره الا هذا النوع، فقد روى ابن الأبار له أبياتا قالها وقد افتصد القائم وهي:

قل للطبيب الذي اوصى ليفصده   رفقا ولا زلت بالإسعاد ترتفق

كيف استطعت ترى بالله طلعته   ومن سنا نوره ما يشرق الأفق

أم كيف تخرج من كف تقبلها   دما ومنها بحار الجود تتدفق

إني لأعجب من كف مسست بها   خير الورى كيف لم ينبت بها الورق

ورغم إعجابنا بخيال الشـاعر في هذه الأبيـات فإننا نأخذ عليه إغراقه في المبالغة، وخروجه عن الحد المعقول.

وروى لـه ابن الأبـار كذلك ابياتا اخـرى قالها توديعا للقائـم بعد أن أمره بالخروج إلى القيروان، وقد كتبت بالأبيات إليه:

وما ودعت خير الناس طرا   ولا فارقته عن طيب نفس

وكيف تطيب نفسي عن حياتي   أفارقها وعن قمري وشمسي

ولكني طلبت رضاه جهدي   وعفو الله يوم حلول رمسي

فعاش مملكا ما لاح شمس   على الثقلين من جن وإنس[90]

ويبـدو أن هذه كانت آخر أبيات الشـاعر، وأن وداعـه كان الوداع الأخير وأن حديثـه في البيت الثالـث عن طلبه عفو الله يوم موته كان إحساسـا بدنو أجله، فقد كانت نهايته المحزنة في القيروان حيث اعتقل ثم قتل وصلب كما سبق أن ذكرنا.

وبالإضافة إلى شـعر خليل ابن إسـحاق وصلتنا نماذج ليسـت بالقليلة لشعراء آخرين وفي أغراض مختلفة، فمما وصلنا:

2- بيتان في الفخر للشريف أبي عبد الله محمد بن عبد الله الحسيني التاجوري، المتوفي في دمشق عام 552هـ، وذلك قوله:

ألسنا بني بنت النبي وعمه   وفي الذروة العلياء من آل غالب

ليوث ولكن لا تصاد بحيلة   سيوف ولكن لا تدين لضارب

وعلى الرغم من أن إطلاق اسـم الليث أو السـيف على الرجل الشجاع يعد من الصـورة القريبة المبتذلة، فقد أخرجها عن ابتذالها ذلك القيد الذي وضعه الشـاعر في كل صورة، فهم كالأسـود الا انهم يختلفون عنهم في عدم إمكانية الإيقاع بهم بأي وسـيلة من الوسـائل، أو حيلة من الحيل، وهم كالسيوف، الا أنهم من نوع لا يوجد في السيوف الحقيقية، نوع لا يمكن للعدو

90- ابيات ابن اسحاق كلها في الحلة السيراء 1/ 303 ، 304

ان يستولي عليه أو يتمكن منه.

وقد تنقل التاجوري بين الخليل ومصر ودمشق، وكان أبوه قد خرج به من الكوفة وهو ابن سبع ودخل به المغرب فربي في مراكش، ثم انتقل إلى تاجورة فسكن بها. ويبدو انه مع كثرة رحلاته وأسفاره لم يجد الصديق أو الخل الوفي ولذلك يروى له بيتان في التأسف على ذهاب الكرام وكثرة اللئام في العالم وهما:

جربت في الأرض كل حي ... فلم أجد في الورى كريما

أظن ما في الطروس زورا ... عساه أن يسخى اللئيما[91]

3- أبيات في مدح الحاكم بأمر الله؛ قالها الشاعر أحمد بن عبد الله بن عبد الرحيم بن سعيد بن زرعة البرقي من أهالي مصر، وعرف بالبرقي لأنه كان كثير الذهاب إلى برقة للتجارة. أما أبياته فهي قوله وقد حدثت بمصر زلزلة:

بالحاكم العدل أضحى الدين معتليا ... نجل الهدى وسليل السادة الصلحا

ما زلزلت مصر من كيد يراد بها ... وإنما رقصت من عدله فرحا

وقوله في الحاكم وقد غاب وجاء في عقيب غيابه مطر:

أرى لفقدك يوم العيد أدمعه ... من بعد ما كان يبدي البشر والضحكا

لأنه جاء يطوى الأرض من بعد ... شوقا إليك فلما لم يجدك بكى[92]

ورغم قلة النماذج التي رويت لهذا الشاعر فهو – على ما يبدو – شاعر خصب الخيال متدفق الشاعرية فقد وفق – غاية التوفيق – في التماس علة مناسبة غير العلة الحقيقية، على جهة الاستظراف. وهو ما يسميه البلاغيون بحسن التعليل.

4- أبيات متفرقة للشاعر أبي الحسن علي بن محمد المعروف بابن

91- رحلة التجاني ص 308 ، 309 ومع تغيير طفيف في المنهل العذب 113/2
92- المنهل العذب 70/2 ومعجم البلدان لياقوت – مادة برقة

البرقي المتوفي سنة 522هـ. وقد ذكره العماد في الخريدة، وابن سعيد في المغرب، ومنها:

أ-

رماني الدهر منه بكل سهم ... وفرق بين احبابي وبيني

ففي قلبي حرارة كل قلب ... وفي عيني مدامع كل عين

ب-

ولي سنة لم أدر ما سِنة الكرى ... كان جفوني مسمع والكرى عذل

ج- وكتب إلى ابن النضر لما كتب إليه ابياتا يعنفه:

لا تكذبن فما كنا لنوجب من ... حق وأنت تراه عنك قد سقطا

وليت عصر شبابي شاغل أملي ... بك اغتباطا وها فوداى قد شمطا[93]

ويبدو أن هذا الشاعر لم يكن من الشعراء المطبوعين، فسمة التكلف واضحة في شعره. وما الجناس الناقص في الشطر الأول من البيت الثالث، وخفاء مراد الشاعر في الشطر الثاني من نفس البيت، وفي البيت الخامس إلا خير دليل على ذلك.

5- أبيات للشاعر أبي الحسن علي بن أبي إسحاق بن إبراهيم الوداني صاحب الديوان بصقلية. وقد كان في عهد ابن رشيق (390-456 هـ)، وبينهما مكاتبات. ومن هذه الأبيات:

أ-

من يشتري مني النهار بليلة ... لافرق بين نجومها وصحابي

دارت على فلك الزمان ونحن قد ... درنا على فلك من الآداب

ودنا الصباح ولا أتى وكأنه ... شيب أطل على سواد شباب[94]

93- اعلام ليبيا للزاوي ص 214 . والمنهل العذب ص 67
94- لم يقف الأستاذ المصراتي – رغم تنقيبه الشديد – الا على هذه الأبيات الثلاثة وقد اهتدى الأستاذ الزاوي الى البيتين الآخرين فيكون المجموع خمسة. وقد عقب الأستاذ المصراتي

ب- وله في المشيب:

وبرغمي لما أتاني مشيبي قلت أهلا بالضحوك القطوب

ولعمري ما كنت ممن يحييـ ـه ولكن تملق بالقلوب[95]

6- أبيات للشاعر أحمد بن الحسين بن حيدرة المعروف بابن خراسان وقد ذكره ياقوت في معجم البلدان[96] وأنشد له هذه الأبيات:

أحبابنا غير زهد في محبتكم كوني بمصر وأنتم في طرابلس

إن زرتكم فالمنايا في زيارتكم وإن هجرتكم فالهجر مفترسي

ولست ارجو نجاحا في زيارتكم الا اذا خاض بحرا من دم فرسي

وأنثني ورماح الخط قد حطمت في كل اروع لاوانٍ ولانكس

حتى يظل عميد الجيش ينشدنا نظمايضيءكضوءالفجرفي الغلس

يفدي بنيك عبيد الله حاسدكم بجبهة العير يفدي حافر الفرس

وقد توفى ابن خراسان عام 497 هـ على ما ذكر صاحب الأعلام[97] نقلا

على الأبيات الثلاثة بقوله: « لو كان عندي مداد من الذهب لكتبتها على رقاع من الورد» وبقوله «ما أظن أن شاعرا من أهل الاندلس أو من بني العباس أو في عصر مزدهر آخر نادى وهتف بمثل قوله» (أعلام من طرابلس ص 33 ، 47) ورغم مشاركتنا للاستاذ المصراتي في إعجابه فنحن لا نشاركه في مبالغاته وتعميماته التي لا يمكن بحال من الأحوال قبولها ويقول الاستاذ المصراتي كذلك: إن أحد الأدباء الأفاضل قد اقترح تشطير هذه الأبيات ووجد هذا الاقتراح ترحيبا من جريدة اللواء الطرابلسي وذلك سنة 1920م وتسابق شباب ذلك الجيل على التشطير وممن ساهم بنصيبه الشاعر أحمد الفقيه حسن وله تشطيران أحدهما:

من يشتري مني النهار بليلة جمعت لنا شملا من الأحباب

حسنت وحسنت الحياة لأنها لا فرق بين نجومها وصحابي

دارت على فلك الزمان ونحن قد ملنا لصقل حرائر الألباب

وكأننا لما تآلف جمعنا درنا على فلك من الآداب

ودنا الصباح ولا أتى وكأنه برق تألق تحت ظل سحاب

وكأنه لما تبسم ضوؤه شيب أطل على سواد شباب

(ص 50 ، 51 وانظر تشطيرات اخرى ص 51 ، 52 ، 54)

95- الزاوي: أعلام ليبيا ص 23 ، 204

96- مادة طرابلس (الغرب)

97- 113/1

عن مرآة الزمان، ولكن نسبة إلى طرابلس الشام لا طرابلس الغرب.

7- شعر كثير للشاعر محمد بن أبي سعيد بن شرف الأجدابي[98] (أو الجذامي) المتوفى سنة 460 أو نحوها. وسواء صحت نسبته الأولى أو الثانية فلابن شرف أهمية في هذه الفترة لأنه لو لم يكن ليبياً من أجدابية فقد كان على صلة بالمعز بن باديس أمير إفريقية – بما فيها طرابلس – (من سنة 406 إلى 453)[99]. وقد كان ابن شرف والحسن بن رشيق يتنافسان في قول الشعر أمام المعز. وفي ذات يوم طلب منهما الأمير ان يعملا شعرا في الموز على قافية الغين فصنعاه لتوهما، دون أن يقف أحدهما على صنعة الآخر. وكان ما قاله ابن شرف:

ياحبذا الموز وإسعاده من قبل أن يمضغه الماضغ

لان إلى أن لامجس له فالفم ملآن به فارغ

سيان قلنا مأكل طيب فيه والا مشرب سائغ

أما ما قاله ابن رشيق فهو:

موز سريع سوغه من قبل مضع الماضغ

مأكلة لآكل ومشرب لسائغ

فالفم من لين به ملآن مثل فارغ

وقد جمع شعر ابن شرف في خمسة مجلدات كما ذكر ابن دحية، ومنه قوله:

شتان في النطقين ما بيننا وبيننا في المنظرين اشتباه

98- هناك شك كبير يكاد يصل الى حد اليقين في صحة هذه النسبة والذي يبدو انها محلافة عن «الجذامةى» وعلى هذا فلا يمكن أن يكون ابن شرف ليبي الأصل كما ادعى بعضهم وقد وردت النسبة «الجذامى» في كل من الوافي بالوفيات (97/3) والمطرب لابن دحية (66) والأعلام لزركلي (10/7) ولم يذكر صاحب الأعلام النسبة «الأجدابي» مطلقا ولم يشر اليها – رغم تعدد مراجعة وتنوعها

99- انظر تاريخ الفتح العربي في ليبيا للزاوي ص 192 ، 200

يا عجبا من حرقات الهوى تصعد نيرانا وتجري مياه

وقوله في مليح اسمه عمر:

يا أعدل الأمة اسماكم تجور على فؤاد مضناك بالهجران والبين

أظنهم سرقوك القاف من قمر وأبدلوها بعين خيفة العين[100]

8- أبيات للشاعر أبي بكر عتيق بن القاسم السرتي[101] وهي:

أقول لعيني دائما ولدمعها لسان بسرِّ الحب في الخد ناطق

أجدك ما ينفك لي منك ضائر بسري واشٍ أو لحيني رامق

فلولاك لما أعرف العشق أوّلا ولولاه لم يُعرف بأني عاشق[102]

والتكلف في هذه الأبيات واضح حتى لكأن الشاعر ينحت فيها من صخر، بالإضافة إلى ما يلفها من غموض يجعل من الصعب فهمها فضلا عن تذوقها.

* * *

ولا نجد فرقا كبيرا بين شعر هذه الفترة، والفترة التي سبقته. وان كنا نلاحظ قلة الشعر المروي لشعراء هذه الفترة، وندرة الأسماء الليبية الصرف التي حفظتها لنا كتب الأدب والتاريخ[103]. وهي ظاهرة جديرة بالتسجيل والتعليل. ولعل مرجعها ما حل بالبلاد من فوضى سياسية تحت حكم الفاطميين، وعدم استقرار الحكام الفاطميين في ليبيا؛ فقد انتقلوا من

100- المطرب ص 67-69 والوافي بالوفيات 100/3

101- لم يذكر ياقوت ولا غيره – فيما تحت يدي من مراجع – تاريخ ولادته أو وفاته ولكن قال ياقوت عنه:» قال ابو الحسن علية بن المفضل المقدسي الحافظ من أصحاب السلفي: انشدني ابو بكر عتيق بن القاسم لنفسه « ولما كان السلفي (أحمد بن محمد بن سلفة) قد ولد عام 478 وتوفي عام 576هـ (الأعلام 1م209) كان من الممكن اعتبار السرتي هذا من ابناء الفترة التي نتحدث عنها.

102- ياقوت – مادة سرت – وقد روى الأبيات النائب في المنهل العذب مع اختلاف يسير (84/2)

103- من الشعراء الذين لم نذكر شعرا لهم خلوف بن عبد الله بن البرقي النحوي وسيرد مزيد بيان عنه في فصل الدراسات اللغوية

المغرب إلى مصر مارين – فقط – بأرض ليبيا، دون أن يظهروا أي عناية بها. ولا ننسى كذلك هجرة بني هلال وبني سليم، التي تمت في خلال تلك الفترة، والتي كان لها بعض الأثر في إثارة القلاقل بين الناس وسلب الطمأنينة من النفوس. وهو جو لا يصلح للنهضة الأدبية، ولا يعطي للحكام فرصة لاستجلاب الشعراء ورفدهم بالعطاء.

د- الشعر تحت حكم الموحدين ومن بعدهم حتى بداية العصر التركي (555-985):

تعد هذه القرون الأربعة أخصب فترات ليبيا في مجال الشعر من ناحيتي الكم والتنوع، وإن ظل الشعر – من ناحية الكيف – أقل مستوى من نظيره في بعض البلاد العربية الأخرى. كما يلاحظ ان معظم شعر هذه الفترة يدخل تحت نوعين:

1- شعر الفقهاء ورجال الدين.

2- شعر التصوف.

مما يسمح لنا بالقول بأن الشعر الخالص الذي يفتش عن الجمال، ويفيض بالعاطفة، ويخاطب القلب، ويجري وراء التعبير الفني – لم يكن كثير الوجود في ليبيا.

كما أن هناك ظاهرة اخرى في شعر هذه الفترة هي أن بعض شعرها قد وصلنا بأسلوب أقرب إلى أن يكون عامياً. ورغم أنا نعتقد ان هذا النوع من الشعر كان موجودا في كل الفترات السابقة، الا ان هذه هي المرة الأولى التي امكننا ان نضع ايدينا على نماذج منه.

ولا يظن ظان ان البلاد في هذه الحقبة قد تمتعت بالهدوء أو الاستقرار السياسي؛ فقد كان الأمر - كما كان سابقا - صراعا وتناحرا وتنافسا بين العربي والعربي واستيلاء على السلطة من كل من يأنس في نفسه - أو يظن في نفسه - القدرة على ذلك. ولقد أدى هذا إلى إضعاف البلاد والى إطماع الأجنبي فيها سواء كان صقلياً أو إيطالياً أو إسبانياً. بل إن خلاص البلاد من الحكم الأسباني لم يتم إلاَّ على يد قوة خارجية هي قوة الأتراك التي جاءت

بأساطيلها. وطردت الأجنبي لتستقر هي في البلاد.

وهكـذا كانت حالة المنطقة أشـبه بحالة الكرة التـي تتقاذفها الأيدي، وتنتقـل من يد إلى يد. وأقصى ما يحاوله أي شـخص. ان يحتفظ بالكرة في يده أطول مدة ممكنة.

ومن الشعر الذي وصلنا من تلك الفترة:

1- مـا قاله أبو يحيى رافع بن مطـروح التميمي (حاكم طرابلس) حين كبر في السـن. فطلب من يعقوب بن عبد المؤمـن إعفاءه من الحكم ففعل. وبعدها ترك ابن مطروح بلده. واسـتقر بالإسكندرية وذلك عام 586هـ. وفي الإسكندرية احس بالحنين إلى وطنه فقال:

لوقفة بين باب البحر ضاحية   أو باب هوارة أو موقف الغنم

أشهى إلى النفس من كسر الخليج   ومن دير الزجاج وشاطى بركة الخدم[104]

وليس في البيتين ما يدل على شاعرية قائلهما. بل على العكس من ذلك فيهما ما يدل على جفاف قريحته. وضحالة خياله.

2- أبيات قالها أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن إبراهيم الأصولي يمدح الأميـر أبا زكرياء يحيى بن عبـد الواحد من حكام الدولـة الحفصية (مطلع القـرن السـابع). وذلك بعد أن انتصـر على أبي عبد الرحمـن يعقوب بن أبي يعقوب ثائر طرابلس. وقد كان هذا الثائر أول الأمر من رجال الأمير أبي زكرياء، ثم حدثته نفسـه بالإمارة. ولكنه قتل هو وأتباعه على ايدي الطرابلسـيين، وصلبت جثتهم بباب هوارة ونصبت رءوسهم في تونس. وذلك عام 639. وقد سجل الشاعر هذه الكائنة. وذكر تسمية يعقوب (الثائر) نفسه بالفاطمي وكان مما قاله:

لقد عجلت للفاطمي فطامه   وما سوغته درّها البيض والسمر

104- التجاني ص 245 والتذكار ص 58 ، 59 وانظر ترجمة وافية لابن مطروح في « اعلام من طرابلـس « ص31-41 وباب البحر وباب هوارة وموقـف الغنم أماكن بطرابلس اما الاول فكان يطل على الناحية الشـمالية من المدينة وأما الثاني فهو الفتحة التي يدخل منها إلى سـوق المشير وأما الثالث فكان اذ ذاك يقرب من برج الساعة اليوم (هامش ص 59 من التذكار)

رجا رفعة فاعتاض منها بمنصب   نماه به للجذع منصبك الحر

يرى شرفات السور قد قمن حوله   يصحن لأمر منه أكذبه الأمر

ضحى فلحرّ الشمس لعج إهابه   وللريح لا للروح في جسمه كر

وكم رام تشييد القصور فحلَّها   وأعظم ما يرجوه لو أسعف القبر

أتى رهبة لما دعوت إجابة   فجرده من ثوب نعمتك الكفر

وجاءك منه بعضه متنصلا   وخلف بعض حيث لاجاده قطر

يناجي أخاه لا بقول يبثه   وهيهات عز السر فحواه والجهر

تبرأ منه وانتحاك لسانه   فلو رام نطقا لم يرمه لك الشكر

فدونك يا يعقوب عقبى منافق   إلى النار عقباها اذا ضمك الحشر[105]

وواضح أن الشـاعر هنا يرص الكلمات رصاً. ويتكلف المحسـنات البديعية ولا سـيما الجنـاس في مثـل الفاطمي وفطامـه - الريح والـروح - يعقوب وعقبى. وكذلك المقابلات بين البيض والسـمر - سر وجهر - القصور والقبر ... وغير ذلك.

3- أشـعار قالها أبو محمد عبد الحميد بن أبي البركات بن عمران بن أبي الدنيا الصدفي الطرابلسـي المولود بطرابلس سنة 606 هـ والمتوفي بتونس سـنة 486. قال عنـه التجاني: «من فضـلاء طرابلس المشـهورين بالعلم، والمشـاركة في الأدب». ارتحل إلى المشـرق فقضى فريضـة الحج. وحضر على الأسـاتذة. ووصل تونس في مدة اميرها أبي زكرياء. فأقام بها زمنا ثم عاد إلى بلده. واسـتدعي بعد ذلـك إلى تونس فولى بها الخطـط الرفيعة. من قضاء الجماعة. وقضاء الأنكحة. والخطابة بالجامع الأعظم. وله كتب في الدراسات الإسـلامية مثل «العقيدة الدينية» وشـرحها و«جلاء الالتباس في الرد على

105- التجاني ص 269 ، 270

نفـاة القيـاس»[106] وكتاب «مذكر الفـؤاد في الحض على الجهـاد»[107]. وهذا يكشف لنا عن شخصية الشاعر وطبيعة ثقافته الدينية.

ومن شعره:

أ-

طرق السلامة والفلاح قناعة　　　ولزوم بيت بالتوحش مؤنس
يكفيه أنسا أن يكون أنيسه　　　آي القرآن ونوره في الحندس
واذا رأت عيناه انسانا أتى　　　فلينفرن نفور ظبي المكنس
ولقلما ينفك صاحب مقول　　　من زلة أو عثرة في المجلس
تحصى وتكتب والجهول مغفل　　　حتى يراها في مقام المفلس[108]

ب- وأظهـر له الخليفة المسـتنصر في بعض الأوقات تغيـرا فكتب إليه يستعطفه:

أمولاي مازلتم تنيلون عبدكم　　　ضروبا من النعماء جلت عن المثل
ولم يبق الا العفو وهو أجل ما　　　ينال فأكمل لي به منحة الفضل
فما العيش في الدنيا بغير رضاكم　　　بصاف ولا طعم الحياة بمحلولي
وقد كدر الإعراض صفو معيشتي　　　فأنكرت أحوالي وأنكرني أهلي
ولي أمل يقضي بغفران زلتي　　　وبالعفو عن جرمي وبالصفح عن فعلي

106- ذكر المصراتي اسمه «حل الالتباس»
107- التجاني ص 272 ، 273
108- التجاني ص 273 وقد علق الاستاذ المصراتي على هذه الأبيات بقوله:
1- ان هـذا النظـم فاض به على طريقة الوعظ واسـلوب التصوف ولكنـه لم يطبقه على نفسـه حرفيا لأنه لم يكن عزليا بل كان اجتماعيا سـافر ورحل الى المشرق والمغرب ولم يكن في بيت بالتوحش مؤنس كما أشار في نظمه
2- فـي البيـت الثالث مـا يدل على لهجته الطرابلسـية اذ قد روى بالضـاء بدل الظاء وهي لهجة موجودة بطرابلس (ضبي بدلا من ظبي)
3- فـي الشـطرة الأخيـرة من البيت الأخيـر اقتباس وتأثر بالحديث الشـريف الـذي قال فيه الرسوقل (ص) لأصحابه: أتدرون من المفلس .. الخ (ص 72 اعلام من طرابلس)

بقيت تزيد الملك عزا وبهجة　　　وتحمي رسوم الفضل والدين والعدل
ولا يخطئني منك عفو ورحمة　　　فإنهما ما أخطأ أحدا قبلي
وصلى إله العرش بدءا وعودة　　　على المصطفى من خلقه خاتم الرسل

ج- وله قصيدة طويلة مطلعها:

بحمد الله نبتدىء الأمورا　　　ونختم آخرا فيه الحبورا[109]

4- قصائد قالها أبو علي الحسن بن موسى بن معمر الهواري الطرابلسي (المولـود بطرابلس سـنة 609 هـ). وقـد ترقى ابن معمر فـي دولة الخليفة المستنصر فولى خطة القضاء في كثير من بلاد افريقية منها باجة وبجاية.. وولى خطـة العلامة الكبرى، وخطـة الارفاع، والنظر فـي خزانة الكتب. ثم تغير الخليفة عليه فنفاه إلى المهدية عام 667. وتنقل بين غضب ورضا حتى اسـتدعاه الواثق سـنة 675 فأمره بالنظر في خزانة الكتب بتونس. وسـئل عنهـا حين كان ينظر فيهـا أولا فذكر انها كانت ثلاثين ألف سـفر، وأنه أخر عنها ثم أعيد إليها فوجدها عشرين الف سفر وأنه اختبرها مؤخرا فوجدها تقصر عن ستة آلاف سفر. ولما سئل عن سبب ذلك قال: المطر، وأيدي البشر. وقد توفي بتونس سنة 682. ومن شعره:

أ- أنشد أمامه قول أبي الوليد سليمان بن خلف الباجي:

مضى زمن المكارم والكرام　　　سقاه الله من صوب الغمام
وكان البر فعلا دون قول　　　فصار البر نطقا بالكلام

فقال شعرا يتممه على البديهة وهو:

وزال النطق حتى ليس تلقى　　　فتى يسخو بمرجوع السلام
وزاد الأمر حتى ليس الا　　　سخى بالأذى أو بالملام

109- التجاني ص 273 ، 274

ب- سجن ابن معمر مع صديق له يدعى أبا عبد الله محمد بن يحي الفضيلي، فهنأه الفضيلي لإطلاق سراحه فرد عليه مرتجلا:

لئن سرني فك الإسار من الحبس ... لقد ساءني فقدي لما فيه من أنسي
ولو أنني خيرت فيما أريده ... لآثرت تقديمي سراحك عن نفسي

ج- وفي مدة لزومه داره للجفوة التي عرضت له قبل نفيه إلى المهدية قدم من السفر صديق له تلزمه زيارته. فلما لم يتمكن ابن معمر من زيارته بعث إليه بهذه الأبيات:

كتبت ولولا الحكم كنت إليكم ... من الشوق في متن الرياح أطير
وإن يسيرا أن أسير مسلما ... عليكم على وجهي وذاك يسير
ومافي صميم القلب من خالص الوفا ... فسيان فيه غيبة وحضور

د – وله وقد أبل الخليفة من مرضه:

الله أنعم بعد الياس بالفرج ... يا أزمة الدهر عند الشدة انفرجي
شكر الخلائق لا يكفي لأيسر ما ... كفى وسكن من هرج ومن رهج
أبقى الأنام بإبقاء الإمام فكم ... بصونه صان من مال ومن مهج
اذا رعى الله للإسلام راعيهم ... لم نأس من فقد ذى قدر ولا همج

هـ- ومن قصيدة له:

لولا احورار جفون اودعت سقما ... ما أمطرت سحب اجفاني الدموع دما
ولا وقفت اصيلانا بربعكم ... ولا سقيت رباه من دمي ديما
ولا نثرت عقيق الدمع في طلل ... منه اذيع الذي كان مكتتما
شمل السلو شتيت بعد بعدكم ... وطالما كان قبل اليوم ملتئما

البين يقطع منه كل متصل ... والشوق ينثر منه كل ما انتظما
والوجد شاد بجسمي ما يهدمه ... آه على ما بنى فيه وما هدما
يا من يلوم على ما جل من أسفي ... هذا اليسير من الأمر الذي كتما
ما خطط النوم في جفني رسم كرى ... الا محا السهد ما قد خُط أو رسما
انبيكم انني من يوم بينكم ... ما زلت للسهد والتذكار ملتزما
أرتاح ان هب ريح من جنابكم ... أو لاح برق بذاك الأفق وابتسما
أما ومن قدر الأشياء مقتدرا ... وحبكم وكفى بالحب لي قسما
ما رام قلبي اصطبارا بعد بعدكم ... وما تأخر بي من وجده قدما

و- وأنشد ابن الأبار له ولأحد أصحابه في أبي الجد الصوفي المهدوي يداعبانه وكان ولوعا بتزوج العجائز:

أبا الجد كم تغرى بحب العجائز ... وذلك في شرع النُّهى غير جائز
كلفت بأطلال محا الدهر رسمها ... فأصبحت تبغى الفوز بين المفاوز

ز- وله أيضاً:

آها نردد لو تشفى لنا كربا ... وبالتعلات نحيا لو قضت أربا
وبالأماني ينال القلب بغيته ... وقد تحقق من معتادها كذبا
يرتاع ان لاح برق من جهامتها ... وما تراءى له الا وقد ذهبا
يسر ان مد يوما حبل منيته ... وما تطاول الا جذ وانقبضا
ان عز ما يبتغيه فهو في هرج ... ويختشي الفقد ان ما يبتغي قربا
وارحمتاه لقلبي كم أجشمه ... أمرا يذيب من الأصلاد ما صلبا
وكم يعاني ملمات بأيسرها ... يهون الأمر[110] من دنياه ما صعبا

110- كذا في جميع نسخ التجاني وقد تشكك محققه في صحة الكلمة وقال: لعل

وكم يلجلج في افكاره لججا   **سودا تؤجج في احشائه لهبا**

وكم تهب سموم من تنفسه   **لو استمرت لما هبت نسيم صبا**

استغفر الله لا أشكو الزمان ولا   **أبدي اذا طرقت احداثه رهبا**

ولا أئن لحظ منه اعوزني   **ولا أسر اذا ماء امنى انسكبا**

انى يسير لبيب ان رأى حلما   **وكيف يطرب من خمر الفنا شربا** [111]

وهــذا الشــعر – في عمومــه – جيد ينبىء عن شــاعرية ثــرة، وعاطفة صادقة. وهو – بلا شك – أقرب إلى مفهوم الشعر من كثير من النماذج التي عثرنا عليها. وكثير من أبياته لا يقل روعة عن أبيات مشــاهير الشعراء، كما أن كثيــرا من صوره الخياليــة رائع معبر. وإن كنا نلحــظ بعض هنات كتكرار كلمات يســيرا – أسير – يسير في بيت واحد وكقوله: ليس تلقى، وكان من الأفضل أن يقول: لست تلقى. وكتوالي الجيمات في قوله:

وكم يلجلج في أفكاره لججا   **سودا تؤجج ...**

مما ســبب تنافــراً في الأصوات وصعوبة في النطــق. والصورة غريبة في قوله: ولا أســر اذا ماء المنى انسكبا، فهو يريد تحقق الاماني بينما «انسكب» توحي بتبددها وعدم تحققها.

5- بيتان لأم محمد بن علي الخروبي (المتوفي سنة 963) كانت تقولهما حين تتضايق من شقاوة أولادها:

ولدت أولادي يحلون انكادي   **زادوني بين العباد انكادا**

ان كان أولاد الناس مثل أولادي   **لا أكثر الله للمسلمين أولادا** [112]

الصــواب «المــرء» (هامــش رقــم 2 ص 279) ولســت ارى معنى لهــذا التشــكيك اذ البيت مســتقيم ففاعــل «يهون» ضمير يعود علــى « القلب» « والأمر» مفعول بــه و « ماصعبا» مكونة من «ما» المصدرية الظرفية والفعل الماضي والمعنى يهون اى أمر في دنياه بأيسر سبيل مدة دوام صعوبته

111- التجانــي ص 275-280 وراجع «نفحات النســرين» ص 96 وله ترجمة في «اعلام من طرابلس « ص 57-64

112- لمحات أدبية للمصراتي ص 45

6- قصيدة رثاء رثى بها الشــاعر ســيدي عمر بن جحا – رثى بها سيدي عبد السلام الأسمر الذي توفي عام 981 هـ وقد جاء فيها:

أيا فقراء الله حق لنا البكا   **لموت إمام عظم الله منشاه**

وأعني به شيخ المشايخ كلهم   **سليل سليم الليث ظاهر مسماه**

فمن لكتاب الله والشرع بعده   **ومن لأحاديث النبي ومسراه**

ومن للفتاوي والعلوم بأسرها   **ومن لتصاريف الكلام ومعناه**

ومن لعلوم النحو والفقه ثم من   **لتوحيد رب العالمين ومسراه** [113]

7- ومن شعر سيدي أحمد الزروق الصوفي:

أنا لمريدي جامع لشتاته   **اذا ما سطا جور الزمان بنكبتي**

فإن كنت في كرب وضيق ووحشة   **فنادين يا زروق آتي بسرعة**

فكم طربة تجلى بمكنون سرنا   **وكم كربة تجنى بأطراف صحبتي** [114]

8- ومن شــعر ســيدي شــعبان بن عثمان بن ســيدي يوســف بن غرارة الصوفي المولود عام 903 والمتوفي عام 997:

أنا شعبان بن عثمان المشتهر   **ولد الشيخ يوسف بو غرارة**

أنا الليث الداجن يوم الكدر   **يوم يضيق الحال بالناس وهم حيارى**

أنا جدي من نسل سيدنا عمر   **مشهور في الأمصار شاعت أخباره**[115]

9- ومن شعر سيدي عبد السلام الاسمر الصوفي وهو كثير:

أ- ما قاله حينما طرد من طرابلس:

اذا ظلم الأمير وكاتباه   **وعم الحسد في كل البلاد**

وقاضي الحكم تاه في هواه   **وأظهر بالفجور وبالعناد**

113- اسحاق المليجي: سيدي عبد السلام الاسمر ص 282

114- المرجع ص 201 ، 202

115- المرجع ص 217 ، 218

فويل ثم ويل ثم ويل ... لكل فقير من قاضي البلاد

اقول اقول يا وحشتاه ... فلا يخلو الفقير من النكاد[116]

ب- ما قاله في ليلة الجمعة غرة شعبان بعد تسعين عاما قضاها في طريق الله وحبه:

شربت شراب العزة من خمر الصبا ... سقانيه محبوبي بسر العناية

وبانت لي الأنوار وانكشف الغطا ... وألهمت أسرارا بسر الجلالة

إلى ان رأيت مالا يمكن وصفه ... من حلول في مكان وجهة

وكوشفت بنور التقرب والرضا ... وذقت اسرار الوصال بحضرتي

ونمقت منشورا إلى كل عاشق ... بأنهم حزبي وأهل ارادتي

واني امام الكل في حال مدحهم ... ولم يشربوا شربا بدون خمرتي

هم أهل عصري تقيلوا آثارنا ... من العشق جمعا يتبعون طريقتي

وإسمي عبد السلام بلا خفا ... سليل سليم الليث قطب الإرادة

ايا معشر الإسلام إيتوا لبابنا ... ولوذوا به تنالوا سر الولاية

فكم من فقير خامل الذكر جاءنا ... فنال ما نال الصالحون بخدمتي

وكم من فقيه كان ينكر حالنا ... فصار بفضل الله من أهل حضرتي

فأعطى له التصريف حيا وميتا ... وصرت إمام الوقت شيخ الطريقة[117]

وواضح ان هذا الشعر الذي رويناه لشعراء هذه الفترة – رغم تنوعه - لا يعد في جملته من الشعر الجيد الذي يهز المشاعر ويخاطب الوجدان. وربما كان أجوده ما قاله ابن أبي الدنيا في الاستعطاف. وما قاله ابن معمر في مناسبات مختلفة. ومن الغريب ان يكون الاثنان من زمرة الفقهاء، وان يفوق شعر الفقهاء شعر الصوفية.

116- المرجع ص 114

117- ص 304 -308

ولا نجد من بين النماذج التي رويناها من شعر الصوفية ما يمكن ان يعد شعرا جيدا سوى أبيات سيدي عبد السلام الاسمر التي قالها حينما طرد من طرابلس، وهي مع ذلك لا تخلو من هنات.

وحتى الأبيات التي قالها سيدي عمر بن جحا في رثاء سيدي عبد السلام الأسمر – والرثاء من الأغراض التي تحرك العاطفة وتهز الوجدان – تعد أقرب إلى النظم منها إلى الشعر، ولا تكاد تجد فيها صورة خيالية واحدة.

وهناك ظاهرتان بارزتان أخريان في شعر الصوفية وهما: ركاكة اللفظ وضعف المحصول اللغوي، ثم الخروج على موسيقى الشعر وكسر الاوزان وارتكاب كثير من الضرورات الشعرية. ومن أمثلة ذلك تسكين الراء في:

سليل سليم الليث ظاهر مسماه (النص رقم 6)

حتى لا يختل الوزن، واختلال الوزن الواضح في أبيات ابن غرارة الصوفي، والضرورات الثلاث في أبيات سيدي عبد السلام رقم أ وهي تسكين سين «الحسد» في البيت الأول، ومد هاء «تاه» في البيت الثاني، وحذف تنوين «فقير» في البيت الثالث. وكذلك كثرة الخروج على الوزن في أبيات سيدي عبد السلام رقم ب.

وغير ذلك.

الفصل الثالث

الدراسات اللغوية

لا يمكـــن للمرء أن يتوقع اهتماما كبيرا بالدراســـات اللغوية، كذلك الذي لاقته الدراســـات الإســـلامية. فالحافز الشـــخصي، وعامل التقـــرب إلى الله، وعنصر التضحية بالجهد والمال: كل أولئك موجود في الثانية دون الأولى.

كذلـــك لا يمكن أن يبلغ الاهتمام بهذه الدرســـات مبلـــغ الاهتمام بالأدب وفنونه، فالأدب من ناحية فن جميل يغري بالدرس ويدعو إلى الاســـتزادة. وهو من ناحية ثانية يعتمد أساســـاً على الموهبة والذوق الفني وليس على معاناة البحـــث ونصب الدرس. وهو من ناحيـــة ثالثة محل اهتمام الحـــكام والأمراء، وإما بصفتهم الرســـمية في شكل خطب ورســـائل ديوانية، وإما بصفتهم الشـــخصية طمعا في نيل مدح شاعر أو رغبة في تسجيل مجد شخصي. والشـــعراء من ناحيتهـــم يجيدون حين يصادفـــون أذنا صاغية ويشـــعرون اذا وجدوا عطفا وتشجيعا:

يسقط الطير حيث يلتقط الحب (م) وتغشى منازل الكرماء

والدراســـات اللغوية – إلى جانب هذا – دراســـات شـــاقة عسيرة، تحتاج إلـــى صبر وجلد وطـــول معاناة، ومن ثم فهي لا تجد بـــين جمهور الناس رواجا، ولا يمكـــن أن تغـــري الا القلة القليلة من ذوي الجلـــد. والقدرة على تحمل وعورة البحث، وجفاف المادة، ومشاق الطريق.

وقد بدأت الدراســـات اللغوية في المنطقـــة بداية متواضعة، وقام بها في أول الأمر مجموعة من اللغويين الوافدين سواء كانوا متخصصين في الدرس اللغـــوي، أو في فـــروع أخرى تخدم الـــدرس اللغوي مثل الأدب ورواية الأشـــعار وتفسير القرآن. واستغرق تخريج لغويين مواطنين قرابة قرنين من الزمان.

ومـــن أقدم من ســـمعنا بهم من اللغويين الذين وفـــدوا إلى المغرب الأدنى عالمان جليلان هما:

1- يونس بن حبيب الضبي، وهو من أكابر نحاة البصرة. أخذ عن أبي عمرو بن العلاء وحماد بن سلمة، وأخذ عنه سيبويه والكسائي والفراء. وقد كانت له حلقة بالبصرة يقصدها طلبة العربية وفصحاء الأعراب والبادية. ولد يونس سنة 90 وقيل سنة 80 من الهجرة ومات سنة 182 هـ وقيل 183 وقيل 184 وقيل 185. وقد كان له قياس في النحو، ومذاهب ينفرد بها. قال عنه أبو عبيدة معمر بن المثنى: اختلفت إلى يونس أربعين سنة أملأ كل يوم ألواحي من حفظه. وقال أبو زيد الأنصاري النحوي: جلست إلى يونس بن حبيب عشر سنين وجلس إليه قبلي خلف الأحمر عشرين سنة. وقد ألف يونس كتباً منها: «معاني القرآن الكريم»، و«كتاب اللغات»، و«الأمثال»، و«النوادر»[1].

2- قتيبة الجعفي النحوي، وهو من أعلام نحاة الكوفة وكبار أصحاب الكسائي، وقد استقر في القيروان في كنف يزيد بن حاتم، وعنه أخذ جماعة من أبناء البلاد، ورووا عنه الشعر والأدب. وقد ذكر ابن منظور ان عبد الله ابن غانم قاضي افريقية دخل على يزيد بن حاتم فجرى بينهما كلام ذكر فيه هلال رمضان، فقال ابن غانم: أهلنا هلال رمضان، فتشايرناه بالأيدي، فقال يزيد: لحنت يا ابن غانم؛ إنما هو: تشاورناه. فقال ابن غانم: تشاورنا الشورى، وتشايرنا من الإشارة بالأيدي، واحتكم الخصمان إلى قتيبة النحوي فأفتى بأن الصواب تشايرنا وأنشد لكثير عزة:

وقلت وفي الأحشاء داء مخامر	ألا حبذا يا عز ذاك التشاير

فقال له يزيد: فأين أنت يا قتيبة من التشاور، فقال: هيهات أيها الأمير: هذا من الإشارة، وذاك من التشاور.

وأقام في ضيافة يزيد زمنا ثم رجع إلى المشرق[2].

ولكن منذ القرن الثالث الهجري اصبحنا نسمع عن لغويين مواطنين تخصصوا في الدرس اللغوي، ومنهم من خلف وراءه كتبا في

1- وفيات الأعيان 242/6 – 246 وبغية الوعاة 365/2 ونزهة الألباء 49-51

2- ورقات ص 148 ، 149

اللغة، ضاع – مع الأسف – معظمها فيما ضاع من تراث المغرب العربي، ولم يبق إلا النزر اليسير.

وعلى رأس هؤلاء اللغويين المواطنين نجد:

1- محمد بن صدقة المرادي النحوي الأطرابلسي الإفريقي الذي وضعه الزبيدي في الطبقة الثانية من النحاة واللغويين القرويين، وقال عنه هو والقفطي: كان عالما باللغة شاعرا متقعرا في كلامه. دخل يوما على أبي الأغلب بن أبي العباس بن إبراهيم بن الأغلب وهو أمير طرابلس فتكلم وأغرب وتجاوز المقدار فقال له أبو الأغلب: كان أبوك يتكلم بمثل هذا الكلام؟ فقال: نعم أعز الله الأمير، وأُميه (يريد وأمي أيضاً تتكلم بمثل ذلك) فقال الأمير: ما ينكر على الله أن يخرج بغيضا من بغيضين.

2- أبو عبيدة الأعرج الذي كان عالما باللغة إلى جانب علمه بالفقه والكلام والوثائق. وكان من علماء الأباضية في ولاية محمد بن أفلح (تولى عام 142). وكان التلاميذ يقرءون عليه ضمن ما يقرءون «إصلاح اللغة» لعبد الله بن مسلم ابن قتيبة .

3-، 4- الأخوان إبراهيم المهري وأبو الوليد عبد الملك المهري. وكلاهما نحوي لغوي، وكلاهما وضعه الزبيدي في الطبقة الثانية من القرويين. وكان الثاني اعلم من الأول، إذ لم يسمع بالأول الا القليل من الناس، وكان يعتنق مذهب الأباضية. أما الثاني فكان – كما قال الزبيدي- شيخ أهل العربية واللغة والنحو والرواية ورئيسهم والمقدم في عهده وزمانه. وكان أحفظ الناس لكلام العرب واشعارها ووقائعها وأيامها. وكان إلى جانب ذلك خطيبا بليغا، وألقى خطبة بين يدي زيادة الله بن محمد بن الأغلب وهو أمير افريقية يومئذ كانت طويلة فصيحة وذهب فيها إلى تقريظه ووصلها بشعر فيه.

وقد ترك مؤلفات منها: 1- تفسير المغازي للواقدي. 2- كتب في الألفاظ. 3- كتاب في اشتقاق الاسماء .

ويلي هؤلاء طبقة اخرى اعتبرها الزبيدي طبقة ثالثة من النحويين واللغويين القرويين، وعلى رأسها:

1- أبـو عبد الله حمدون بن إسـماعيل النحوي المعـروف بالنعجة الذي قـال عنـه الزبيدي: كان مقدما بعد المهري في اللغـة والنحو. وكان يقال انه أعلـم بالنحو خاصة مـن المهري، لأنه كان يحفظ كتاب سـيبويه. وله كتب فـي النحو وأوضاع في اللغة. وكان أحدالمتشـدقين فـي كلامهم والمتقعرين فـي خطابهم. وكان معلمه المهـري على خلاف ذلك. اذ كان المهري من عقلاء العلمـاء. وهو في النحـو والغريب والعربية الغاية التي لا بعدها. وله شـعر متكلف ضعيف، وقد مات بعد المائتين[3].

2- أبـو محمد عبـد الله بن محمود المكفـوف. كان من أعلم خلق الله بالعربيـة والغريب في الشـعر وتفسـير المشـروحات وأيام العـرب وأخبارها ووقائعهـا. وقـد أدرك المهـري وأخذ عنه. ثـم صحب بعده حمدونـا المعروف بالنعجـة فكان لا يبارحه. ولم يمت حمـدون حتى علا المكفوف عليه وفضله في أشياء.

وله كتب كثيرة أملاها في اللغة والعربية والغريب والعروض. وكتابه في العروض يفضله أهل العلم على سـائر الكتب المؤلفة فيه لما بين فيه وقرب. وعليه قرأ الناس المشروحات. واليه كانت الرحلة من جميع افريقية والمغرب.

وقـد كان ابن الصائغ صاحـب البريد يصله. وحكى أنـه اعطاه نحوا من خمسمائة دينار سوى الخلع وقضاء الحوائج والبر والإكرام.

وكان أبو محمد المكفوف من أهل سرت وهجاه إسحاق بن خنيس فقال:

ألا لعنت سرت وما جاء من سرت   فقد حل من أكفافها جبل المقت

في شعر طويل له. فقال فيه المكفوف:

إن الخنيسي يهجوني لأرفعه   اخسأ خنيس فإني غير هاجيكا
لم تبق مثلبة تحصى اذا جمعت   من المثالب الا كلها فيكا

وله أشعار فصيحة وأراجيز غريبة. كما أن له كتابا في شرح صفة أبي

3- المرجع ص 256 , 257

زبيد الطائي للأسد جود فيه وحسنه.

وقد مات المكفوف سنة 308 هـ[4].

3- خلـف بن مختار (أبو المختار) الأطرابلسـي المغربي النحوي الإفريقي. كان صاحـب نحو ولغـة. ولكنه كان يبخل بعلمه. حـدث تلميذه أبو عثمان سعيد ابن إسحاق قال: سألت خلف بن مختار ان أقرأ عليه قصيدة النابغة:

يا دار مية بالعلياء فالسند

فقال: افعل. فأنشدته حتى انتهيت إلى قوله:

فظل يعجم أعلى الروق منقبضا

في حالك اللون صدق غير ذي أود

فقال لي ليختبرني - وقد علمت ماأراد – ما الصدق. فقلت: لا أعلم. قال فمـا الصدق قلت: الصدق من القول. قال لي: فيجب عليك ان تروي ما تعرف وتدع ما لا تعرف. فأنشـدتها بالكسـر لأعلم ما يكون منه. فرأيته يتبسـم، فقلت: لم تبسـمت ؟ الصدق الصلـب. وكذلك الرواية. ولكـن تجاهلت لك لأعلـم ما يكون منك. فخجل من ذلك وقال: أنشـد ما أحببت فإني لا اخفي عنك شـيئا. فـكان بعد تلك الليلة كمـا وعد. وكان يقرض الشـعر. ويجيد المعاني. وقد ولد سنة 215 هـ وتوفي سنة 290 هـ[5].

4- محمد بن سـالم الأطرابلسـي المعروف بالعقعق. قال عنه الزبيدي والقفطـي: كان صاحب نحو ولغة وترسـل وبلاغة وعلـم بالجدل ونظر فيه. وكان معتزلياً. وزاد الشـيخ مجد الدين الشـيرازي فـي البلغة على ذلك أنه كان شاعرا[6].

5- عبد الله بن عبد الله الأندلسـي المعـروف بالبرقي. كان عالما بالنحو

4- الزبيدي ص 259 . والقفطي 2/ 149
5- الزبيدي ص 260 . والقفطي 351/1 والبقية 556/1
6- الزبيدي ص 261 والقفطي 142/3 والبقية 108/1

واللغة، وإماما فيهما، وعالما بالحساب والهندسة. وكان يشتغل أيضاً بصناعة الكيمياء، وكان الحكم المستنصر (توفي 366 هـ) يعظمه ويوقره. وله مؤلفات[7].

6- أبو بكر محمد بن مؤمن بن محمد بن مؤمن الكندي البرقي النحوي، كتب الحديث والنحو وأكثر، وكان رجلا صالحا، وذكره ابن الطحان المصري في « تاريخ الغرباء القادمين على مصر» وقال: توفي في ربيع الأول سنة 351 هـ وقد قارب الثمانين. وقد ذكر السيوطي – تبعا لياقوت – اسمه: محمد بن موسى بن أبي محمد بن مؤمن[8].

7- أبو الحسن على بن نصر بن سليمان البرنيقي نزيل مصر. وبرنيق مدينة على ساحل البحر المالح المغربي بين الإسكندرية وبرقة[9]. وهي احدى المراسي للمراكب الواردة من المغرب. كان نحويا لغويا فاضلا مشهورا بالأدب، وكتب بخطه الكثير، وكان الناس يتنافسون في خطه وتحصيله، واستمر ذلك حتى زمن القفطي. وقد قال القفطي: ولقد رأيت نسخة بخطه من الجمهرة لابن دريد، وقد بيعت بأربعة وعشرين دينارا مصريا، ولولا الحياء من تعرض لها، وهو مبارك بن منقذ التبريزي أحد أمراء الدولة الصلاحية.. لكان ثمنها قد زاد على ذلك.

وقد توفي عام 384 هـ[10].

8- عبد الله بن محمد بن جعفر القزاز التميمي ابن المؤلف اللغوي المشهور محمد بن جعفر القزاز. وقد سلك الابن مسلك أبيه في العلم والأدب. ولا نعرف عنه أكثر من أنه مات بزويلة بني الخطاب في أرض فزان بصحراء طرابلس، ودفن حذو قبر دعبل الخزاعي الشاعر المشهور[11].

7- القفطي 121/2
8- القفطي 218/3 والبقية 254/1
9- عرف بها الشيخ الزاوي قائلا: موقعها في مكان مدينة بني غازي عاصمة برقة الآن (ص 60)
10- القفطي 323/2 وقد وضع السيوطي في البغية (211/2) « الديبقي» مكان «البرنيقي» وهو تحرف ظاهر
11- ورقات ص 179 والخبر في العمدة 72/1

ونتقل بعد ذلك إلى **القرن الخامس أو السادس الهجري** فنجد العالم اللغوي المشهور أبو إسحاق ابراهم بن إسماعيل بن أحمد بن عبد الله اللواتي[12] الأجدابي[13]. ومع شهرة هذا العالم وكثرة ما خلفه وراءه من مؤلفات ذات قيمة كبيرة لم تصلنا عنه ولا عن أسرته وكيفية نشأته معلومات كافية. بل لم يتفق المؤرخون وكتاب التراجم حتى على تحديد زمان تقريبي لميلاده ووفاته:

أ- فوضعه كل من أحمد بن الحسين النائب الأنصاري[14]، وابن الطيب الفاسي[15] في صدر المائة السابعة للهجرة، وتبعهما الدكتور عزة حسن الذي ذكر انه توفي عام 650 هـ[16].

ب- أما الأستاذ المصراتي ففي كلامه عن هذه النقطة خلط واضطراب. فهو يذكر أن ابن الأجدابي من صدر المائة السابعة للهجرة[17]، ثم يذكر في مكان آخر[18] قصة صدامه مع ابن هانش الطرابلسي، ويذكر فترة ولاية ابن هانش بما بين عامي 744 هـ و777 هـ. ولم ينتبه الأستاذ المصراتي إلى ان التاريخ الذي ذكره لابن هانش يمتد فيشمل ثلاثة أرباع القرن الثامن فكيف يكون ابن الأجدابي على هذا من صدر المائة السابعة التي تبدأ بعام 601؟ وصحة تاريخ ولاية بابن هانش من 444 إلى 477 أي بفرق ثلاثة قرون فقط لا غير. وتبعا لذلك يتضح خطأ الأستاذ المصراتي الثاني حيث اعتبر ابن الأجدابي من صدر المائة السابعة وهو لم يتجاوز المائة الخامسة.

ج- وحدد حاجي خليفه في كشف الظنون واسماعيل باشا البغدادي

12- نسبة الى قبيلة لواتة البربرية التي كانت تسكن اجدابية (الزاوي: أعلام ليبيا ص4)
13- أجدابية بلد من بلاد برقة ولها شهرة في التاريخ الإسلامي وكان بها مسجد عرف باسم جامع سحنون لأن سحنونا بقي مدرسا فيه لمدة ثلاث سنوات (معجم البلدان الليبية ص 20)
14- نفحات النسرين ص 85 ومابعدها
15- شرح كفاية المتحفظ ورقة 3
16- الأزمنة والأنواء لابن الأجدابي بتحقيق د. عزة حسن – صفحة العنوان
17- أعلام من طرابلس ص 96
18- ص 98

في هدية العارفين وفاته بحوالي سنة 600 هـ[19]، أي أعتبراه من علماء القرن السادس الهجري.

د- ويضعه التجاني في القرن الخامس الهجري[20] ويتابعه في ذلك الشيخ الطاهر الزاوي[21]، والدكتور إحسان عباس[22].

وهذ الرأي هو أصح الآراء، وأقربها إلى القبول؛ لأن ابن الأجدابي - كما سنذكر فيما بعد - كان معاصرا لأبي محمد عبد الله بن محمد بن إبراهيم ابن هانش قاضي طرابلس في المدة من عام 444 إلى عام 477، وله معه قصة ذكرها التجاني في رحلته[23].

ومن مجموع ما ذكره المؤرخون وكتاب التراجم عن حياة ابن الأجدابي نعرف أنه وإن كان ينتسب إلى أجدابية، فقد ولد وعاش ومات في طرابلس؛ ولذا عرف كذلك بالطرابلسي. وقد زار التجاني قبره في طرابلس، وذكر أنه قبر معظم يكثر الناس زيارته والدعاء عنده[24]. وقد وصفه القفطي بقوله: « من أهل اللغة، ومن تصدر في بلده واشتهر بالعلم.. وكانت له يد جيدة في اللغة وتحقيقها وإفادتها»[25]. ووصفه التجاني بقوله: «وكان الفقيه أبو إسحاق هذا من أعلم زمانه بجميع العلوم كلاما وفقها ونحوا ولغة وعروضا ونظما ونثرا»[26].

وقد ألف ابن الأجدابي كتبا كثيرة في فروع متنوعة من العلم لم يصلنا منها سوى كتابين اثنين هما:

1- كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ.

2- الأزمنة والأنواء.

19- هدية العارفين مقتبس في ليبيا في كتب التاريخ والسير ص 314
20- ص 263 من رحلته
21- اعلام ليبيا ص 4، 5
22- تاريخ ليبيا ص 213
23- ص 263
24- ص 262
25- إنباء الرواة 158/1
26- ص 262

وسنفرد كلا منهما ببحث خاص. أما سائر مؤلفاته فلم يبق منها سوى أسمائها، وربما اسعدنا الحظ – فيما بعد – بالعثور على بعضها أو أحدها. وهذه الكتب هي:

3- كتاب في العروض قال عنه التجاني: «ناهيك به حسنا وترتيبا وتهذيبا. وهو نسختان كبرى وصغرى»[27].

4- كتاب في الرد على أبي حفص بن مكي في تثقيف اللسان.

5- كتاب في شرح ما آخره ياء مشددة من الأسماء وبيان اعتلال هذه الياء قال عنه التجاني: استوفى فيه جميع احكام هذه الياء على اختلاف أحوالها من تصغير وتكسير وغير ذلك. ولما استوفى فيه ذلك استيفاء جميلا تعرض لشرح المقاطع الواقعة في سورة مريم لاشتمالها على كثير من تلك الأحكام فجاء هذا التأليف في غاية الإفادة والتحقيق.

6- كتاب مختصر في علم الانساب. ولا ندري ان كان هو مختصر أنساب قريش[28] أو غيره. وقد وصف التجاني هذا المختصر قائلا: وحسبك بهذا التأليف الجليل علما وفائدة. وهو كما كان الشيخ أبو الحسن علي بن مغيث رحمة الله يقول: هو كتاب عجب لا كتاب نسب. ورأيت أبا إسحاق قد أدخل من حفظه في نفس هذا المختصر زوائد تشتمل على فوائد نبه عليها[29].

7- رسالة في الحول. وقد ألفها حين حضر يوما عند ابن هانش قاضي طرابلس فحكم بحكم أخطأ فيه فرده ابن الأجدابي فقال له ابن هانش: «اسكت يا أحول، فما استدعيت ولا استفتيت». وهي رسالة تدل على حفظ غزير وأدب كثير[30].

27- ص 262
28- أنساب قريش لأبي عبد الله الزبير بن ابي بكر بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام
29- ص 263 ، 264 وسبب شكنا فيما اذا كان لابن الأجدابي كتاب واحد في الأنساب أو كتابان ان التجاني ذكر له كتابا مختصرا في الأنساب ثم عاد بعد قليل وقال: وملكت بخطه ايضا تأليفه الذي اختصر فيه كتاب أنساب قريش فهل هو يشير الى كتاب واحد أو كتابين؟
30- التجاني ص 262 وإحسان عباس: تاريخ ليبيا ص 216.

8- تآليف جليلة وأسئلة مفيدة في الفقه[31].

ولابد ان يكون لابن الأجدابي كتب أخرى لم تصلنا حتى أسماؤها. ويبدو ان من بين هذه الكتب كتابا في الكيمياء أو الصنعة – كما كانت تعرف إذ ذاك. فقد عثرت على نص في أحد كتب الكيمياء المحفوظة في المتحف البريطاني، والمجهولة المؤلف والعنوان. وهذا النص يقول في معرض الرد على بعض الناس الذين لا يفهمون أقوال الحكماء وينسبونهم إلى الغلط: «فينبغي أولاً أن يأخذ بما أوضحه الشيخ الصالح الواصل الحكيم أبو إسحاق إبراهيم بن الشيخ أبي الطاهر بن إسماعيل الأجدابي رحمه الله تعالى آمين، حيث كشف رموز الحكماء وقربه للطالب، فمن طالع أبوابهم المرموزة، ولم يتبين له ما أومئوا إليه... فليرجع إلى مطالعة ما بينه الشيخ المذكور في أسماء ما أغمضوا به يقع من ذلك على كثير من مطلبه. فمن أول ما شرح في تأليفه انه قال: أعلم وفقك الله ان جميع ما في العالم من المصنوعات اربعة أجناس وهي الحيوان والإنسان والجماد والنبات. فأما الجماد فلا شيء فيه بالإجماع، وبقية الأجناس الثلاثة فيها العلم موجود... واعلم ان الأجساد سبعة والأزواج سبعة والأحجار سبعة، كل هذه تدخل في تدبير الصنعة..»[32].

ولم يقتصر جهد ابن الأجدابي على التأليف والشرح فقط، بل تجاوزه إلى النسخ والكتابة مع التحقيق لأمهات كتب اللغة، كما كان يحرص على أن يكتب مؤلفاته بنفسه. وقد قال التجاني بعد أن عدد بعض مؤلفات ابن الأجدابي: «وأكثر هذه التآليف ملكتها بخطه». وقال في موضع آخر: «وملكت بخطه أيضاً تأليفه الذي اختصر فيه كتاب أنساب قريش»[33]. وقال التجاني أيضاً عنه: «وكان رحمه الله من أحسن الناس خطاً. وأخبرت ان الأمير أبا زكرياء كان رحمه الله شديد البحث عن خطه وأنه سمع ان كتاب الفصيح بيع بخطه في طرابلس فبرد بريدا إليها في البحث عنه فبحث عنه ووجه به إليه. وكذلك أخبرت انه سمع بطرابلس كتاب «أمثلة الغريب» لأبي

31- التجاني ص 262

32- مخطوط بالمتحف البريطاني رقم OR3779- المجموعة رقم 4 وتشمل الاوراق من 20 الى 49 والنص الذي معنا يقع في ورقة 30 ومابعدها

33- رحلة التجاني ص 263 ، 264

الحسن علي بن الحسن بن الحسين الهنائي المعروف بكراع بخط الفقيه أبي إسحاق في ملك بعض بني النقاد وهم من أعيان طرابلس فوجه إليه فيها، فوجه النقاد بها إليه ..»[34].

وكانت سكنى ابن الأجدابي طرابلس طول حياته، لم يغادرها ولم يرحل عنها في طلب العلم، قال التجاني: «ولما سئل: اني لك هذا العلم ولم ترحّل؟ قال: اكتسبته من بابي هوارة وزنانة، وهما بابان من أبواب البلد، نسبا إلى من نزل بهما في أول الزمان. يشير إلى انه استفاد ما استفاد من العلم بلقاء من يفد على طرابلس، فيدخل من هذين البابين من المشرقيين والمغربيين»[35]. وكانت دار ابن الأجدابي في وسط البلد بمقربة من الجامع الأعظم[36]، وكان يتلقى فيها الوفود ويقوم بضيافتهم. وقد كانت دار ابن الأجدابي باقية حين زار التجاني طرابلس، وذكر ان بعض الطلبة اخبروه «أن خط الفقيه أبي إسحاق باق إلى الآن في بعض جدار داره من طرابلس»[37].

ولنعد الآن إلى كتابي ابن الأجدابي الباقيين بالعرض والتفصيل:

1-كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ

على الرغم مما أصاب معظم كتب ابن الأجدابي من ضياع، فقد كان مجدودا في هذا الكتاب؛ إذ بقيت منه عشرات النسخ موزعة في كثير من مكتبات العالم، ولا يكاد المرء يتصفح فهرسا من فهارس المكتبات الشهيرة حتى يجد نسخة أو أكثر من هذا الكتاب. ومن بين هذه المكتبات ليدن والمتحف البريطاني وبرلين ولننجراد وفينا وباريس والجزائر ولاله لى ورامبور وكمبردج ومعهد المخطوطات بالقاهرة[38]. كذلك طبع الكتاب أكثر من مرة

34- المرجع والصفحة

35- التجاني ص 264

36- من جوامع طرابلس القديمة وقد بناه في منتصف المينة في أكبر شوارعها بنو عبيد وتم بناؤه على يد خليل ابن اسحاق سنة 300هـ ولا يوجد هذا الجامع الآن (معجم البلدان الليبية ص 91 ، 92 ، 305 واعلام ليبيا ص 5)

37- التجاني ص 264 وابن غلبون ص 226 ، 227

38- راجع Brockelmann الجزء الاول ص 308 والملحق 1م541 وفهرس مكتبة كمبردج وهو مخطوط بها ومحفوظ برقم Add 3234 وفهرس معهد المخطوطات وفيه نسختان برقمي 214 ، 215 لغة

في أكثر من بلد عربي؛ فقد طبع في مطبعة وادي النيل بالقاهرة عام 1285 هـ[39] عن نسخة مضبوطة بقلم الشيخ نصر أبي الوفاء الهوريني، وفي بيروت عام 1305هـ، وفي المطبعة الخيرية بالقاهرة عام 1323هـ، وفي حلب ضمن مجموعة عام 1345هـ. والكتاب صغير الحجم؛ إذ يبلغ في بعض الطبعات 55 صفحة وفي بعضها الآخر 80 صفحة، ومع ذلك فقد لاقى رواجا عند العلماء وطلاب الدرس اللغوي. أما موضوعه فنترك ابن الأجدابي نفسه يحدثنا عنه في قوله في مقدمة الكتاب الموجزة: «هذا كتاب مختصر في اللغة وما يحتاج إليه من غريب الكلام، أودعناه كثيرا من الأسماء والصفات، وجنبناه حوشي[40] الألفاظ واللغات وأعريناه عن الشواهد ليسهل حفظه ويقرب تناوله، وجعلناه مغنياً لمن اقتصد في هذا الفن، ومعيناً لمن أراد الاتساع فيه، وصنفناه ابوابا »[41].

أما أبواب الكتاب فمنها:

باب في صفات الرجال المحمودة.

ومن صفات الرجال المذمومة.

باب في صفات النساء المحمودة.

ومن مذموم صفاتهن.

معرفة حلى النساء.

باب ما يحتاج إلى معرفته من خلق الانسان.

باب في الحلى.

39- هي النسخة المطبوعة التي رجعنا اليها ما لم يشر الى خلاف ذلك

40- قال ابن الطيب الفاسي: هكذا هو في غالب النسخ التي رأيناها ويوجد في بعض النسخ: وجنبناه وحشي منسوب الى الوحش وكلاهما بمعنى واحد واما الحوشى ففسره في القاموس بالغامض من الكلام وفي الصحاح: حوشى الكلام وحشيه وغريبه وفي المصباح: مستغربه وفي عمدة ابن رشيق: الوحشى من الكلام ما نفر عن السمع ويقال له ايضا حوشي ... قال واذا كانت اللفظة خشنة مستغربة لا يعلمها الا العالم المبرز والاعرابي القح فتلك وحشية .. (لوحة رقم 15)

41- ص 2، 3

باب في الإبل.

باب في الخيل.

باب في السلاح.

باب في السباع والوحش.

باب في الطير.

باب نعوت القفار والآرضين.

باب في الرمال ... الخ

ومن أمثلته النص الآتي:

(باب في صفات الرجال المحمودة) الجواد الرجل السخي، والخرق الكريم، والخضم الكثير العطية، والخضرم الكثير الإنفاق، والأريحي الذي يرتاح للعطاء، والحسيب الكريم الآباء، والماجد الشريف، والصنديد الرئيس العظيم وكذلك الهمام، والسميذع السيد، وكذلك الجحجاح، والأريب العاقل، والحُلاحل الوقور، والمنجذ الذي قد جرب الأمور، والمدره الذي يكون رأس القوم ولسانهم، واللوذعي الذكي القلب، والمصقع البليغ اللسان، والسرى المرتفع القدر، وجمعه سراة بفتح السين.

(فصل) البطل الشجاع وجمعه ابطال ومثله الكمى وجمعه كماة، والذمر وجمعه أذمار، والصمة وجمعه صمم، والبهمة وجمعه بهم، والشهم الحديد القلب، والغشمشم[42] الذي لا يرده شيء عما يريد، والنهيك الشجاع، والباسل مثله[43].

ومن امثلته كذلك:

(باب في الرمال) من أسماء التراب الصعيد، والبرا، والتراب، والتوراب، والدقعاء، والبوغاء التربة الرخوة، والعثان الغبار وجمعه عواثن، والكثيب ما

42- - وفي نسخة: والمغشم كمنبر وكلاهما صحيح (ابن الطيب الفاسي لوحة رقم 23)

43- ص 3 ، 4

اجتمع من الرمل، والحبل ما استطال منه، والأميل نحوه، والأجرع والجرعاء الرابية من الرمل، وكذلك الجزع أيضاً، والرغام الرمل اللين، والهيام الذي يسيل من رقته ولينه، والوعث الذي تغيب فيه الرجل، والعوكلة الرملة العظيمة، والعذاب الرمل المستدق، ومن نعوت الرمال: النقا واللوى والسقط وهو منقطع الرمل، والقوز والحقف والدعص والليث والعقد والأوعس والوعساء والعانك والعثعث، وهو الكثيب السهل، والهدملة وهي الرملة ذات الشجر، وكذلك الخميلة، والعاقر التي لاتنبت، والعقنقل المنعقد من الرمل، والصريمة القطعة من الرمل تنفرد عن معظمه[44].

وليس أدل على قيمة هذا الكتاب الخاصة، واحتفال العلماء به من كثرة الشروح والتعليقات والمؤلفات التي دارت حوله ومن ذلك:

1- شرح العلامة محمد بن الطيب المغربي الفاسي (توفي 1170هـ) المسمى «تحرير الرواية في تقرير الكفاية»[45]. وتوجد منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحمل رقم 14 لغة ش بخط علي بن محمد الجزائري. وقد جاء في آخر هذه النسخة انها كتبت «العالم الفاضل الورع العامل النحوي اللغوي فريد عصره ووحيد دهره حضرة الشيخ محمد محمود المغربي الشنقيطي التركزي المجاور بالمدينة المنورة.. وكان الفراغ من نسخه أواخر شعبان المعظم من شهور سنة 1304 من الهجرة النبوية».

ويبدو ان هذه النسخة منقولة عن نسخة اخرى قرئت على المؤلف فقد جاء في هامش الصفحة الأخيرة من المخطوطة: «بلغ تصحيحا على مؤلفه سامحه الله. كذا في الأصل المنقول منه». وتوجد بالمكتبة التيمورية الملحقة بدار الكتب المصرية نسخة من هذه المخطوطة. كما يحتفظ معهد المخطوطات بالقاهرة بمكروفلم للمخطوطة، وكلاهما مأخوذ من النسخة الأولى.

وقد بدأ ابن الفاسي كتابه بقوله «يا من التحفظ بذكره كاف عن كفاية المتحفظ والتلفظ بشكره إلى بدايته تنتهي نهاية المتلفظ». وذكر في

44- ص 46

45- جاء هذا العنوان في اللوحة رقم 18 من المصورة ولم يأت على صفحة العنوان

مقدمته انه رمى من وراء تأليفه إلى ضبط كلمات الكفاية وشرح غريبها، وانه لم يؤلف كتابه الا «بعدما سألنيه جماعة من الأصحاب الجهابذة الذين تكررت قراءتهم إياه كغيره عليّ، وطائفة من الشيوخ الأساتذة الذين كانوا يستندون في أمثاله من العلوم اللسانية إليّ. فلم يمكنّي الا جبر خواطرهم بالمقابلة بالامتثال، والمساعفة بالمبادرة إلى جمع ما راموه من تقييد ما هو كالشرح لذلك الكتاب العزيز المثال»[46].

ويعد شرح ابن الطيب الفاسي من الشروح المستفيضة كما يتضح من المثال الآتي، وقد وضعنا فيه نص ابن الأجدابي بين قوسين:

(باب في صفات الرجل المحمودة)

(الجواد) كسحاب (الرجل) ذكره توطئة لما بعده. على أن الترجمة مغنية عنه (السخي) تفسير للجواد. والسخي بفتح السين وكسر الخاء المعجمة وتشديد الياء التحتية هو الكريم الجواد كما في القاموس وغيره، وجمعه أسخياء، والأنثى سخية، وجمعها سخيات وسخايا. وفي الفعل منه لغات يقال سخى كسعى ودعا وسرو ورضي سخاء وسخى وسخوة وسخوا. وتسخى تكلفه، قاله في القاموس، وهو صريح في أن السخى مأخوذ من هذه الأفعال كلها. لكن في المصباح ان الصفة من سخا كدعا ساخٍ، ومن سخى كرضى سخٍ كشجٍ منقوصا، ومن سخو ككرم سخى على فعيل، وهو الذي يقتضيه القياس وتشهد له القواعد الصرفية. وقد أغفل المجد ذلك ولم يذكر في الأوصاف غير سخيّ كغنيّ. وهو قصور ظاهر. كما أن المصباح قصورا لأنه أغفل سخى كسعى وان ذكر اللغات الثلاث وذكر تصاريفها والله أعلم. وظاهر كلام المصنف ان الجواد وصف خاص بالرجل، وليس كذلك بل يقال رجل جواد ويقال امرأة جواد أيضاً بغير هاء. قال كعب:

فما عمرو بن مامة وابن سعدي   بأجود منك ياعمر الجوادا

وقال في انثى:

46- - لوحة 2 من المصورة

صناع بأشفاها حصان بشكرها   جواد بقوت البطن والعرق زاخر

وقد بينت ذلك في شرح نظم الفصيح، وشرحت البيت، وأوضحت أن الشكر بالفتح الفرج كما في الصحاح وغيره. ويقال عرق فلان زاخر اذا كان كريما، قاله أبو عبيدة. وقالوا معناه ان عرق الكريم يزخر بالكرم. وأشرت هناك إلى انه يقال جاد كقال جودا بالضم فهو جواد وهي جواد، وانهم سووا بين الذكر والأنثى، لأن هذه البنية من ابنية المصادر كما قالوا براء للذكر والأنثى... (والخرق) بكسر الخاء وسكون الراء آخره قاف (الكريم) أي الجواد السخي لأنه المراد عند الإطلاق، وإن كان الكريم أخص من الجواد لأنه ضد اللؤم وهو جمع الخصال القبيحة كما أن ضده وهو الكرم جمع الخصال الحسنة. وفيه كلام أودعناه شرح شواهد التوضيح وغيره. قال في الأساس: فلان خرق يتخرق في السخاء أي يتسع فيه، وهو متخرق الكف بالنوال لا يبقى شيئاً. قال الشماخ:

معي كل خرق في الغداة سميدع   وفي الحرب داري العشيات ذيال

قال: الداري المتطيب. وفي الصحاح: الخرق بالكسر السخي الكريم. يقال هو سخي، ويتخرق في السخاء إذا توسع فيه، وكذلك الخريق مثال فسيق. قال أبو ذؤيب يصف رجلا صحبه رجل كريم:

أتيح له من الفتيان خرق   أخو ثقة وخريق خشوف

ومثله في المحكم، والخلاصة، ومختصر العين، وغيرها من الدواوين اللغوية، بل ذكره قطرب في مثلثه الذي هو موضوع للولدان فضلا عمن له بالفن يدان. ومع شهرته وكثرة من ذكره أغفله المجد في القاموس واقتصر على الخريق كسكيت وفسره بالسخي أو الكريم في سخاوة، والفتى الحسن الكريم الخليقة. وان إغفاله إياه مع ذكره في كل كتاب لمما يقتضي منه العجب العجاب، ولا سيما وهو في الصحاح والمحكم، وهو شديد اقتفاء الأثر لعبارتهما. والله أعلم. (والخضم) بكسر الخاء وفتح الضاد المعجمتين وشد الميم (الكثير العطية) أي الذي كثرت عطيته لقاصديه. والعطية فعيلة

يريدون بها الشيء الذي يعطى. قال المجد: الخضم كخدب السيد الحمول العطاء خاص بالرجال، وجمعه خضمون. وقال الجوهري: الخضم الكثير العطاء. ومثله في المحكم، وخلاصته، ومختصر العين وغيرها. ومن أمثالهم قول الشاعر:

دعاني إلى غمر جوده   وقول العشيرة بحر خضم ... الخ.[47]

ويتضح من هذا النص ان عمل ابن الطيب الفاسي يتلخص فيما يأتي:

1- ذكر آراء العلماء المختلفة، وتوثيق النصوص، والشروح بالرجوع إلى المصادر اللغوية.

2- الاستشهاد كلما أمكن.

3- بيان اشتقاق الكلمات وتصريفها.

4- النص على ضبط الكلمة سواء من ناحية الحركات أو النقط أو شكل الحروف[48].

5- بيان أوجه الضبط أو الروايات المختلفة التي رويت بها الكلمة.

6- تتبع نسخ الكفاية وذكر الخلاف بينها[49].

7- توضيح ما غمض من عبارة المؤلف كقوله: «وظاهر كلام المصنف ان الجواد وصف خاص بالرجال وليس كذلك».

كذلك كان ابن الطيب الفاسي قليل النقد أو التعرض بالتجريح لابن الأجدابي اذا ما قورن موقف منه بموقفه من الفيروزابادي مثلا.

وهناك حقيقة أخيرة هي ان ابن الطيب الفاسي لم يضع في اعتباره محاولة الاستدراك على المؤلف، أو زيادة ألفاظ جديدة يكون قد أغفلها.

2- ونظمه جمال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك الطائي

47- اللوحتان رقم 18 ، 19

48- قد يقع تحريف أو تصحيف في قراءة الكلمة بدون ذلك كما حدث في مطبوعة الكفاية التي ذكرت «الحجاج والأريب العاقل» (ص 3) ولكن ما قاله ابن الطيب الفاسي (لوحة رقم 20): الجحجاح بجيمين بينهما حاء مهملة وآخره مثلها» يكشف عن هذا التصحيف.

49- كقوله والغشمشم، وفي نسخة والمغشم كمنبر الذي لا يرده شيء (لوحة رقم 23).

الأندلسي الجياني (ت 672 هـ). ويوجد من هذا النظم ميكروفلم محفوظ بمعهد المخطوطات برقمي 286 ، 287 لغة، عن نسخة سنة 793 هـ. ويبلغ عدد أوراقه 43 ورقة.

وقد بدأ ابن مالك نظمه بمقدمة تقول:

الحمد لله على ما علما ... وجاد في إحسانه وأنعما
حمدا يكافي ما علا من شأنه ... ويوجب المزيد من إحسانه
وبعده أخص خير البشر ... أحمد الشفيع يوم الحشر
بخير ما صلى عليه احد ... ما لاح في جو السماء فرقد
وبعده فقد رأيت حتما ... اذ كنت أكملت الفصيح نظما
أن أنتضى عزمة ذي عناية ... فانظم الوارد في الكفاية
اذ بها يتم نيل الأرب ... لمبتغى علم كلام العرب
وأجعل العمدة في تفسيري ... ألفاظه معتمد الجمهور
من غير ان أتبع المصنفا ... في الشرح ان عد به مخالفا
وربما اذكر ما يحكيه ... مع الذي يرضى بلا تمويه
وربما أزيده كثيرا ... من كلم كان بها جديرا
فإن يزد نظمي على الكتاب ... فهو لما قد زيد في الأبواب
من كلم مقصودة بالفهم ... ولم يزد حجما بحشو النظم
والله عوني وبه توفيقي ... وعمدتي في هبة التحقيق

ثم شرع في نظم الكتاب بابا بابا، ومن أمثلة ذلك نظمه للباب الأول من أبواب الكفاية وهو:

الخرق الكريم والسخي ... هو الجواد وهو أريحي

يرتاح للعطاء والهضوم ... لمنفق الأموال واللهوم
مفهومه الجواد والخضم ... لمكثر العطاء والغطم
للواسع الخلق واما الخضرم ... فكالخضم واللهم فاعلموا
ثم الذكي القلب ألمعي ... ولوذعى ثم اصمعى
ثم السرى للعلى القدر ... وجمعه على سراة فادر
والماجد الشريف والحسيب ... ذو كرم الآباء والأريب
يفهم منه في اللسان العاقل ... وللوقور يطلق الحلاحل
والرجل الصنديد ذو الهمام ... مع الرئيس من له الإعظام
والسيد الجحجاح والسميدع ... ثم البليغ في اللسان مصقع
والمدره الزعيم في الأقوام ... وهو لسان القوم في الكلام
منجد تطلق للمجرب ... والذال فيه لغة لم تعزب
والبطل الشجاع مثل الصمة ... ولاذمر والكمى ثم البهمة
غشمشم من ليس بالمرتد ... عما يريد فافهمن ما أبدى
والأحمس الشديد في القتال ... والدين أيضاً فاستمع مقالي
وقيل أيضاً للشجاع أحمس ... وباسل ثم نهيك حلبس

ويتضح من المقدمة ومن المثال الذي نقلناه ان عمل ابن مالك يتلخص فيما يأتي:

1- التحرر في شرح ألفاظ الكفاية، وعدم التقيد بشرح المؤلف، اذا كان في شرحه مخالفة لما عليه الجمهور.

2- زيادة إضافات على المعاني التي ذكرها المؤلف.

3- استدراك بعض الكلمات التي تركها المؤلف ويرى الناظم انها جديرة

بالذكر[50]. ويلاحظ بالإضافة إلى ما سبق ما يأتي:

أ- ان الناظم معجب بكتاب ابن الأجدابي ويتضح ذلك من قوله:

وبعده فقد رأيت حتما	**اذ كنت أكملت الفصيح نظما**
أن أنتضى عزمة ذي عناية	**فانظم الوارد في الكفاية**
اذ بها يتم نيل الأرب	**لمبتغى علم كلام العرب**

ب- أن ابن مالك كان ينظم الأبواب كذلك كقوله:

باب صفات المرأة المحمودة	**كالخود والغادة والخريدة**[51]
باب صفات المرأة القبيحة	**في اللغة المختارة الفصيحة** [52]
باب ما جاء عن الأعراب	**مخصصا بالرمل والتراب**[53]

3- كما نظمه قاضي الحرم جمال الدين محمد بن محب الدين أحمد بن عبد الله بن أبي بكر بن محمد المكي الشافعي في نحو 1300 بيت تحت عنوان «عمدة المتلفظ في نظم كفاية المتحفظ» وقد ذكر بروكلمان[54] وجود نسخ منه في بعض المكتبات ولكنني لم أتمكن من الحصول على إحداها. ووصف ابن الطيب الفاسي هذا النظم قائلا «نظما لطيفا حلوا على ارتكاب أوهام وبعد أفهام»[55].

4- مختصر كفاية المتحفظ. وقد ورد ذكره في فهرس كوبريلي زاده بتركيا . وهو يحمل الرقم 1561 عمومي. ولم يشر الفهرس إلى اسم من قام بالاختصار. ولم أتمكن من الحصول عليه.

وهناك منظومات اخرى عديدة لكتاب ابن الأجدابي ولكنها لم تصلنا.

50- من أمثلة ذلك اضافة كلمات اللهوم – الغطم – اللهم – الأصمعي في الباب الأول وحده.

51- في مقابل: باب في صفات النساء المحمودة

52- في مقابل: ومن مذموم صفاتهن

53- في مقابل: باب في الرمال

54- الملحق 541/1 وانظر كحالة 581/8 وهدية العارفين 2/ 139

55- لوحة رقم 3

ومن ذلك:

أ- نظم ابن الطيب الفاسي. وقد ورد ذكره في كشف الظنون وفي بروكلمان[56].

ب- نظم محمد بن أحمد بن الخليل بن سعادة بن جعفر بن عيسى قاضي القضاة شهاب الدين الخُويي المتوفى سنة 396 هـ[57].

ج- نظم محمد بن أحمد علي بن جابر الأندلسي الهواري المالكي الأعمى المتوفى سنة 780هـ[58].

د- نظم عماد الدين البعلي المتوفى سنة 764 هـ[59].

ولن نجد ما نختم به هذا العرض لكتاب ابن الأجدابي خيرا من أن نقتبس ما قاله علماء اللغة في شأنه:

1- قال عنه القفطي: صنف في اللغة مقدمة لطيفة سماها كفاية المتحفظ يشتغل بها الناس في المغرب ومصر[60].

2- مدحه الفقيه الأديب العلامة جمال الدين على بن صالح العدوي بقوله:

من كان يطلب في الغريب وسيلة	**من شاعر أو كاتب متلفظ**
أو كان يبغي في الكلام بلاغة	**فليحفظن كفاية المتحفظ**[61]

3- قال عنه ابن الطيب الفاسي: «واعتنى بهذا المختصر جمع من الأئمة المقتدى بهم واعتمدوه. وأكثر من النقل عنه الإمام الحافظ الثقة أحمد الفيومي في كتابه المصباح المنير. والإمام كمال الدين الدميري في حياة

56- بروكلمان: الملحق 541/1

57- بغية الوعاة ص 10 وقد ورد في القفطي 3/ 341 هامش رقم 1 ان الخويي نسبة الى خوى احدى مدن اذربيجان

58- بغية الوعاة ص 14

59- نخبة من كتاب كفاية المتحفظ ملحق بفقه اللغة للثعالبي

60- 158/1

61- ابن الطيب الفاسي لوحة رقم 3

الحيوان، وغيرهما وعدلوه بالمصنفات الكبار كالصحاح والتهذيب والجمل ونحوها، وربما أختار كلامه في المصباح عليهم احياناً... وشهرته بين أهل الفن كافية»[62].

4- ذكر ناشر كتاب «فقه اللغة» للثعالبي[63] ان كتاب ابن الأجدابي تصنيف فريد في بابه، ولذا ألحق بكتاب الثعالبي نخبة من كتاب ابن الأجدابي هذا. وقد شغل الملحق الصفحات من 334 إلى 347 وشمل عدة أبواب.

2- الأزمنة والأنواء

لم يكن احد يعرف بوجود هذا الكتاب حتى حققه الدكتور عزة حسن ونشره عن نسخة مخطوطة مكتوبة في حلب سنة 742، وكان نشره في دمشق عام 1964م.

وقد بدأ الكتاب بمقدمة مختصرة شغلت عدة أسطر جاء فيها: «هذا كتاب مختصر أودعناه أبوابا حسنة في علم الأزمنة وأساساتها، والفصول وأوقاتها، ومناظر النجوم وهيئاتها، بأوضح ما أمكننا من التبيين، وبأسهل ما حضرنا من التقريب، وبالله نستعين ...»[64].

وليس أفضل في التعريف بهذا الكتاب ومنهجه في التأليف وفائدته، مما ذكره الدكتور عزة حسن في مقدمة تحقيقه، ولذا سنعتمد عليه هنا مع قليل من التصرف.

كان العرب قديما في حاجة شديدة إلى معرفة الكواكب ومواقعها؛ لكثرة اسفارهم الليلية، ولارتباط حياتهم الصحراوية بالطبيعة، وأوضاع الشمس والقمر وتغير فصول السنة، وما يصحب ذلك من مطر وريح، وبرد وحر وغيرها. وقد عرف العرب السنة القمرية، وألفوا في النجوم والفلك، كما ترجموا فيهما من اليونانية والهندية. وقد وضع كثيرون من أئمة اللغة منذ أواخر القرن الثاني، وحتى أواخر القرن الرابع الهجري كتبا في

62- المرجع واللوحة
63- طبع مطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت سنة 1885م
64- ص 27

الانواء ذكروا فيها كل ما كان يعرفه العرب في هذا الباب، وجمعوا أقوالهم فيها من الأشعار والأسجاع والأمثال. ومن أشهر هؤلاء المؤلفين الأصمعي (تـ 216 هـ)، وابن قتيبة (تـ 276 هـ). ثم أخذ العلماء بعد ذلك يدخلون في كتبهم فصولا كثيرة من معارف الأمم الأخرى كالسريانيين والعبرانيين والفرس واليونان والقبط. وبعد انقضاء القرن الرابع قل التأليف في الأزمنة والأنواء على مذهب العرب القدامى. ويرجع ذلك إلى استيفاء العلماء ما قيل في الموضوع، والى تطور علوم الهيئة والنجوم وازدهارها في القرنين السادس والسابع مما جعل الأزمنة والأنواء المعروفة على مذهب العرب القدامى شيئا ساذجا بسيطا. ثم جاء ابن الأجدابي فألف كتابه في هذا العصر الذي قل الاهتمام فيه بمذهب العرب، وهو يعد آخر حلقة في السلسلة، ولا نعرف كتابا وضع بعده في هذا الموضوع.

ويضم الكتاب زبدة علم الأزمنة والأنواء عند العرب في الجاهلية والإسلام، وخلاصة ما أخذه العرب في هذا الفن من الأمم الأخرى التي اتصلوا بها بعد الإسلام، وفصولا مستمدة من علوم الهيئة والنجوم التي نشأت عند العرب بعد الإسلام، كما أنه يحوي مجموعة من الأشعار والأسجاع المتعلقة بالموضوع مع العناية بشرحها، مما يجعل الكتاب ذا قيمة أدبية خاصة.

وقد اتبع المؤلف خطة الإيجاز فلم يحشر فيه الآراء المختلفة، والنظريات المتضاربة، ولم يأخذها بحذافيرها، وانما اخذ الخطوط العامة، والأفكار الرئيسية في سهولة ويسر، وبلغة نقية بعيدة عن التعقيد العلمي[65].

ونقتبس من الكتاب النص الآتي الذي يبين منهج المؤلف:

ذكر القمر:

القمر يقطع الفلك في كل شهر عربي مرة، ويقطع في كل ليلتين وثلث برجا، وفي كل ليلة منزلة، ويقارن الشمس في آخر كل شهر، ثم يفارقها من جهة المغرب، ويبدو للأبصار عشاء فيسمى هلالاً إلى تمام ثلاث ليال ثم يسمى بعد ذلك قمرا حتى ينقضي الشهر.

65- انظر مقدمة المحقق ص 7-19

ولا يزال من حين يهل زائدا في النور حتى يبلغ ثلاث عشرة فتسمى تلك الليلة الليلة السواء لاستوائه فيها. ثم يقابل الشمس ليلة اربعة عشر فيطلع عند غروبها ويغرب عند طلوعها. ويسمى حينئذ بدر التمام لامتلائه من النور. وقيل لأنه يبادر الشمس بالطلوع والغروب.

ثم يأخذ في النقصان حتى يّمحق ويستسر. واستسراره ان يدخل في شعاع الشمس فيخفي عن الأبصار فلا يرى. فإن كان الشهر تسعة وعشرين استسر ليلة ثمان وعشرين وان كان ثلاثين استسر ليلة تسع وعشرين. وتسمى تلك الليلة ليلة المحاق وهي ليلة السّرار أيضاً. يقال سِرار الشهر وسَراره وسَرره بمعنى واحد قال الشاعر:

تلقى نوؤهن سِرار شهر وخير النوء ما لقى السرارا

وكانوا يستحبون المطر في سرار الشمس. ويرجون غزارته اذا وقع فيه. وكل ثلاث من ليالي الشهر مسماة باسم على حسب حالة القمر فيها: فاولها ثلاث غُرر ثم ثلاث نُفَل ثم ثلاث تُسع ثم ثلاث عُشر ثم ثلاث بيض ثم ثلاث دُرع ثم ثلاث ظلم ثم ثلاث حنادس ثم ثلاث دآدىء ثم ثلاث محاق.

وتسمى الغرر الغر أيضاً لأن ضوء الهلال في اوائلها بمنزلة الغرة فيها. وقيل سميت غررا لأن فيها غرة الشهر وهي أول ليلة منه. وكذلك التسع لأن فيها الليلة التاسعة. والعشر سميت عشر لأن فيها الليلة العاشرة. وسميت البيض بيضاً لابيضاضهن بضوء القمر فليس في أولهن ولا آخرهن ظلمة. وبعدهن الدرع سُمِّين درعا لأن القمر يتأخر طلوعه فيهن قليلا. فاسودت أوائلهن وابيض سائرهن كما يقال شاة درعاء اذا اسود رأسها وابيض سائرها. ثم الظلم سميت ظلما لتزايد الظلمة في اوائلهن. ثم الحنادس وهن الشديدات السواد. لأن القمر دائما يطلع في أواخرهن. فالظلام مستول على جلهن. ثم الدآدىء وهي التي في أواخرهن بقايا ضوء القمر. والدأدأ البقية. ثم المحاق وهي التي يّمحق فيها القمر... الخ[66].

ونجد في نفس الفترة علماء آخرين،ولكنهم لم يشتروا شهرة ابن

66- ص 84 وما بعدها

الأجدابي مثل:

1- علي بن علي أبو الحسن البرقي. قال في بغية الوعاة: هو الشاعر النحوي مات في ربيع الأول سنة 522. ذكره ياقوت[67].

2- خلوف بن عبد الله البرقي النحوي المقرىء نزيل صقلية. كان عالماً بالقراءات والإعراب متفننا في سائر الآداب. كان في وسط المائة الخامسة وله شعر جيد ومنه قوله:

يأيها المغرور دهـ رك كم تقيم على الغرارة
اذ جمع شملك للشتا ت وربح مالك للخسارة[68]

وقوله:

كتبت إليك مشتاقا كثير الوجد تواقا
سئولا داعيا للـ ـه آصالا وإشراقا
بأن تبقى على الأيا م للأقران سباقا

ونجد في القرنين السابع والثامن عالما مشهورا تتنازعه أقطار عربية ثلاثة هي: مصر وليبيا وتونس وهو محمد بن مكرم بن علي جمال الدين المعروف باسم «ابن منظور» ومؤلف «لسان العرب».

وكل ما يعرف عن ابن منظور انه من نسل رويفع بن ثابت الأنصاري. وقد ذكر ذلك ابن منظور نفسه في معجمه لسان العرب مادة جرب. وأن رويفع هذا سكن مصر واختط بها دارا ثم أمره معاوية على طرابلس سنة 46. فغزا من طرابلس افريقية سنة 47. ومات بالشام ويقال ببرقة[69]. وقد خدم ابن

67- المنهل العذب 80/2
68- القفطي 358/1
69- لسان العرب مادة جرب وليست مادة جدب كما ذكر الاستاذ المصراتي (ص 47 مقدمة نفحات النسرين) ويلاحظ ان ابن منظور هنا (وهو حفيد رويفع) يذكر موت رويفع ودفنه ببرقة بصورة تبعث على التشكيك ولا نظن ان في وجود مقام ببرقة ينسب لرويفع ما يجعلنا نرفض رواية ابن منظور فقد ذكر العياشي عن برقة « بها قبر مشهور يزار ويزعم اعراب البلد انه قبر نبي والغالب انه قبر صحابي ولعله رويفع بن ثابت أو زهير بن قيس البلوي» (انظر ليبيا في كتب الجغرافيا والرحلات ص 219) فصاحب المقام ليس معروفا على وجه التأكيد

منظور في ديوان الإنشاء بمصر طول عمره[70] ثم ولي القضاء في طرابلس وعاد إلى مصر ومات بها عام 711 هـ وله من العمر 82 سنة وذكروا انه حدث بمصر ودمشق، وان له نظماً ونثراً، وأنه كانت فيه شائبة تشيع[71].

وكل الذي يربطه بطرابلس جده الأعلى رويفع بن ثابت ثم توليه القضاء بها فترة قصيرة. أما الذي يربطه بمصر فهو توليه دار الإنشاء بها فترة طويلة عبر عنها بعضهم بقوله «طول عمره» وموته بمصر عن اثنين وثمانين عاماً.

ولهذا لا نجد أحداً من الأقدمين ينسب ابن منظور إلى طرابلس وإنما نجد منهم من نسبه إلى مصر أو إلى إفريقية فقال المصري أو الإفريقي. والوحيد الذي نسبه إلى طرابلس هو أحمد النائب في كتابيه نفحات النسرين[72] والمنهل العذب[73]، فقال: أبو عبد الله محمد بن مكرم.. الأنصاري الطرابلسي نزيل مصر.

وقد وقف المحدثون من هذه النسبة التي انفرد بها أحمد النائب موقفين مختلفين:

1- فمنهم من قبلها ودافع عنها وتمسك بها مثل الشيخ الطاهر الزاوي الذي قال ما خلاصته:

أ- لم يذكر أحد ممن ترجموا له أنه طرابلسي الا أحمد النائب المؤرخ الطرابلسي.

ب- لا نسيء الظن بغير النائب ولكنهم جهلوا ما علمه، فالنائب طرابلسي عالم بعلماء طرابلس وبالأسر الطرابلسية، وقد أدرك بعض أفراد أسرة ابن مكرّم مما جعله يجزم بأن ابن مكرم طرابلسي.

ج- ذكر أكثر من ترجموا له أنه تولى قضاء طرابلس ويبعد ان يكون ولد بمصر ثم جاء إلى طرابلس وتولى بها لاقضاء عدة سنين ثم رجع إلى مصر ومات بها.

70- الدرر الكامنة 32/5 وبغية الوعاة 248/1
71- شذرات الذهب 27/6 وفوات الوفيات 524/2
72- ص 146
73- 169/1

د- أسرة ابن مكرم تنتمي إلى ريفع الأنصاري ورويفع كان أمير طرابلس ولاه معاوية إياها سنة 46 هـ.

هـ- أقرب الآراء إلى القبول انه بعد تولى قضاء طرابلس واتسعت مداركه العلمية رأى أن إشباع رغبته العلمية لا يتسع له المحيط الطرابلسي فانتقل إلى مصر وتولى فيها رياسة ديوان الإنشاء وبقي بها حتى توفي.

و- يجب الرجوع إلى ما قاله النائب لأنه أمين فيما نقل وعالم فيما كتب وابن منظور لا يضيره ان يكون طرابلسياً كما هي الحقيقة[74].

2- ومنهم من رفضها أو تشكك فيها على الأقل مثل الأستاذ علي مصطفى المصراتي الذي يقول ما خلاصته:

أ- المؤلف من شدة شغفه بتاريخ علماء بلده وأعيانها يشد بقوة بتلابيب ابن منظور الذي تتنازعه طرابلس وتونس ومصر.

ب- المؤلف يذكر ان ابن منظور من طرابلس الغرب وكان بودنا لو ساق دليلاً يؤكد به أن هذا العلم اللغوي طرابلسي.

ج- لم يشر ابن غلبون إلى ابن منظور مما يدل على تثبت ابن غلبون أكثر من النائب.

د- ليس لدينا دليل الإثبات أو النفي[75].

فأين الحقيقة في كل هذا؟

74- أعلام ليبيا ص 301 ، 302 وانظر ما ذكره على الفقيه حسن (في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مجلد 32-466/3 ومابعده) وهو لا يخرج عما ذكره الاستاذ الزاوي ولكنه أضاف أن أسرة ابن مكرم كانت معروفة بطرابلس وانقرضت منذ قرن تقريبا

75- مقدمة الاستاذ المصراتي لنفحات النسرين ص 46 ، 47 ومن الغريب ان يتخذ الاستاذ المصراتي موقفا آخر في كتاب آخر له هو «أعلام من طرابلس» وفيه يقول:
ابن منظور صاحب لسان العرب طرابلسي نشأة واصلا وفرعا ومتنا ويقول: اهل مصر اغنياء جدا بالشخصيات العلمية والدبية وطرابلس في تاريخها الأدبي احوج الى ابنائها ورجالها من غيرها (ص 69) وهو موقف من ناحية يناقض موقفه السابق من دعوى النائب ومن ناحية اخرى يتسم بالغرابة اذ يناشد اهل مصر ترك ابن منظور لطرابلس نظرا لغنى الأولى وفقر الثانية في الشخصيات .

اذا احتكمنـا إلى ابن منظور نفسـه نجده في مقدمة معجمه لسـان العـرب يقـول «قال عبـد الله بن محمد بـن المكرم بن أبي الحسـن بن أحمد الأنصاري الخزرجي» فهو لا يعترف بنسـبة سـوى انه أنصاري من الخزرج. وفي هذا ما يوحي بأنه لم يكن يعتبر نفسـه مواطناً اقليمياً يخص منطقة دون منطقة بل يعتبر نفسه ملكاً للأمة العربية جمعاء.

أما من نسـبه إلى طرابلس فقد نظر إلى توليه القضاء بها. ومن نسـبه إلى مصر فقد نظر إلى توليه دار الإنشـاء بها معظم حياته وإلى وفاته بها. فإذا اردنا ان نرجح احدى النسبتين رجحنا – ولاشك - نسبته إلى مصر حيث كان توليه ديوان الإنشـاء بها معظم عمره وحيـث مات بها. أما دعوى أحمد النائب فليس من دليل عليها – كما ذكر الاسـتاذ المصراتي نفسـه - وليس في ترجمة النائب التي ذكرها لابن منظور أي جديد يضاف إلى ما ذكره كتاب التراجم السـابقون عليه حتى يمكن ان نقبل قول الأسـتاذ الـزاوي ان النائب طرابلسـي عالم بعلماء طرابلس وبالأسـر الطرابلسـية. بـل ان النائب في ترجمته ينقـل عن بغية الوعاة وعن الدرر الكامنـة وعن الصفدي ولم يذكر واحـد من هؤلاء أن ابن منظور طرابلسـي[76]. ولا أدري لماذا يسـتبعد الأسـتاذ الزاوي – من الناحية العقلية – أن يكون ابن منظور قد ولد بمصر ثم جاء إلى طرابلـس وتولى القضاء بها ثم عاد إلى مصر مسـقط رأسـه؟ ومن المعروف ان العلمـاء في هـذا العصر لم يكونوا يعترفون بالحواجـز بين الدول. كما لم يكونوا ملتصقين بمسقط رأسهم كما نراه اليوم.

أما كون ابن منظور ينتمي إلى رويفع الانصاري، ورويفع كان أمير طرابلس مـن قبل معاوية فليس فيه مايدل على طرابلسـية ابن منظور. فرويفع كان من قبل يسـكن مصـر واختط بها داراً - كما سـبق ان ذكرنـا – وبين رويفع وابن منظور ما يزيد على سـتمائة وخمسـين سـنة، وهي فترة يكفي عشر معشارها إلى انتقال أي أسرة من بلد إلى بلد.

76- ويقول الاسـتاذ المصراتي موجها النقد لترجمة النائب:» اكتفى بمجرد الترجمة العادية تلك الترجمة المتداولة والتي لاكها السـيوطي وغيره « نفحات النسـرين ص 47) فاين ثمرة علم النائب بالأسر الطرابلسية؟

وتبقـى بعد ذلك كلمة أخيرة تتعلـق بالدقة والتحري في نقل النصوص والاستشـهاد بها؛ فقد ذكر الأسـتاذ المصراتي في مقدمة تحقيقه لنفحات النسـرين «أن أبـن منظور قد عـاش ردحاً مـن الزمن وفترة غيـر قصيرة في طرابلس وولى من أهله القضاء بها كما أشار هو إلى ذلك في مادة جدب في كتابه لسان العرب»[77] وليس في مادة جدب شيء من هذا. ولعله يعني مادة جرب. وحتى ما جاء في مادة جرب لا علاقة له بما ذكره الأستاذ المصراتي فكل ما في هذه المادة يتعلق بجد ابن منظور الأعلى رويفع بن ثابت وسكناه مصر وانتـداب معاوية له لغزو افريقية وموته بالشـام أو ببرقة. وليس فيها كلمة واحدة عن ابن منظور.

ثم نجد في القرنين التاسع والعاشر أسماء مثل:

1- الشـيخ يوسـف بن علـي الجعراني المسـلاتي الذي قـال عنه أحمد النائب: إمام في علوم القرآن، ومقدم في علوم اللسـان. ألف شرح القرطبية وشرح الأجرومية ونظمها وغير ذلك. وكان موجودا عام 820 هـ[78].

2- محمـد بـن محمد بـن عبد الرحمـن الحطاب الذي ولد سـنة 902 وتوفي سـنة 954 بطرابلـس، وهو مؤلف متنوع الثقافـة مكثر في كل فن. ومـن مؤلفاته اللغوية: مختصر اعراب خالد الأزهري للألفية، وحاشـية على توضيـح النحو، وشـرح خالد الوقاد عليه، والمواضـع التي غلط فيها صاحب القامـوس وصاحب الصحاح، والألفاظ الغريبة التي فسـر صاحب الصحاح كل لفـظ منها بمرادفه فاسـتغنى بها عن التفسـير كقوله: الجدب نقيض الخصب، وحاشية على قطر الندى[79].

3- أبو يوسـف يعقوب بن أحمد بن موسـى المتوفى سنة 894 هـ. وقد نشـأ في مدينة يفرن (بجبل نفوسـة). ويبدو انه سـافر إلـى تونس لطلب العلم، فقد كان البَيْدموري (أحد أساتذة تونس) يسأل عنه التلامذة الليبيين ويثنـي عليـه ويقول عنه: ما فـي تونس أنحى منه. واختلف أبو يوسـف مع

77- - ص 47
78- المنهل العذب 190/1
79- المنهل العذب 207/1 ونفحات النسرين 111-114

بعض الأشياخ في مسألة في النحو فأحضر في إثباتها ما يقرب من عشرين شاهداً من أشعار العرب. وكان لا يلحن في إعراب ولا تصريف. وعبر بعضهم عن تمكنه من العلم قائلاً: «أما النحو فعشه الذي يعرف كيف يدخل فيه ويخرج. وأما اللغة والتصريف فيا للعجب. وأما التفسير فلو ادعى أحد انه ما شذ عليه شيء من التفسير ما كذب ...»

ولكنه مات ولم يترك تأليفاً[80].

80- ترجمته في: الأباضية في موكب التاريخ 3/121-123

خاتمة

الانتاج الليبي في الميزان

والآن، وبعــد أن جلنا هذه الجولة المتأنية نقف لنســأل: ما قيمة دور ليبيا الثقافــي طوال هذه الحقبة؟ ومــا مكانتها بين أخواتهــا العربيات في مجال البحث والدراسة؟

وأول شـــيء نحــب أن ننبــه إليــه هو أن ما وصلنــا من تــراث ليبي لا يمثل كل الإنتــاج الليبــي؛ فقد تعرضت ليبيا خلال تاريخهــا الطويل إلى كثير من الهزات والاضطرابــات التي أدت إلى ضياع كثير من إنتاجها وحرق العديد من مكتباتها. وأضرب على ذلك الأمثلة الآتية:

1- مكتبــة الجغبوب التي كانت من أندر المكتبات في العالم الإســلامي نسفها الاستعمار الإيطالي وضاع كثير منها.

2- مكتبــة إســماعيل كمال التي أحرقتها زوجتــه التركية كانت تحوي كتباً نادرة يتعلق كثير منها بتاريخ البلد والتراث الثقافي.

3- تعرضــت كتب كثيرة في خزائن آل الصــارى والزدام وغيرهم لجحافل الطليــان والمرتزقــة وضاع منها تــراث علمي كبير. وقــد كان يوجد إلى عهد قريب كتاب في تاريخ علماء طرابلس ولكنه ضاع.

4- أحرقــت مكتبــات كثيــرة فــي مصراتــة وزليطن وبعضها ســرق أو ضاع[81].

5- حينما اكتسح العبيديون بلاد المغرب أتوا على الإنتاج العلمي للدولة الرستمية، وعلى مؤلفاتها التي لا تحصى، وأحرقوا مكتباتها الضخمة[82].

6- حرقت مئات الخزائن المملوءة بالكتب النفيسة في الفتن المتصلة التي تلاحقت على جبل نفوســة بعد القرن العاشــر الهجري، وانتهب الإيطاليون الغزاة كثيرا مما أبقت عليه الفتن[83].

ومــع ذلك، ففي حدود ما وصلنا من إنتاج ليبي، نســتطيع أن نقرر أن كل الذيــن عرفوا في تلــك الفترة من أعــلام ليبيا كانوا من المشــتغلين بالعلوم

81- مقدمة نفحات النسرين للمصراتي ص52 ، 53
82- دبوز 387/3
83- المرجع 388/3

الدينية وما يرتبط بها. ولم ينبغ منهم أحد ممن له اشتغال بالعلوم الدنيوية. ولهذا فقد كان الحشائشي على حق في قوله: «أما العلوم والمعارف العصرية. فلا توجد عندهم بل لا يشتمون لها رائحة»[84].

فماذا كانت ثمرة جهودهم في مجال الدراسات الدينية وما يدور حولها أو يرتبط بها؟

يتضح مما سبق أن ذكرناه وجود نهضة ثقافية دينية كبرى في ليبيا خلال فترات متقطعة من تاريخها الذي ندرسه مثل القرن الرابع الذي نبغ فيه أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي، وأبو الحسن علي بن محمد بن المنمر. ومثل القرن السابع الذي نبغ فيه أبو محمد عبد السلام المسراتي وأبو محمد بن أبي الدنيا وأبو فارس عبد العزيز بن عبد العظيم بن عبد السلام والدرجيني. ومثل القرن الثامن الذي كاد يخلو من علماء غير أباضيين ولكنه توج بعلمين من أعلام الأباضية هما عامر الشماخي واسماعيل الجيطالي. ومثل القرن التاسع الذي نبغ فيه سيدي الزروق وحلولو وبدر الدين الشماخي. ومثل القرن العاشر الذي اشتهر فيه أبناء الحطاب والإمام الخروبي وسيدي عبد السلام الأسمر.

وهكذا نجد القرن الرابع في ليبيا كنظائره في البلدان العربية الأخرى قرن نهضة ورقي ثقافي. أما النهضة العلمية في القرن السابع فيعزوها الأستاذ المصراتي إلى التبادل الثقافي بين بلدان المغرب العربي وبخاصة تونس وذلك في قوله: «كان القرن السابع ازدهرت فيه الحركة العلمية، واتصلت فيه طرابلس بتونس بل بالشمال الإفريقي اتصالا وثيقا تبودلت فيه حركات القضاء والتدريس، وكثرت رحلات العلماء ومواكب الحجاج. حتى إن قاضي تونس من أبناء طرابلس وهو الإمام أبو موسى بن عمران الهواري»[85].

وفيما بين القرنين الرابع والسابع نجد ركودا علميا رده بعضهم إلى الاضطراب السياسي، والفوضى التي عمت البلاد عقب الغزوة الهلالية. وفي ذلك يقول الحشائشي: «كانت (طرابلس) متصلة العمارة من جميع جهاتها

84- مقتبس في: ليبيا في كتب الجغرافيا والرحلات ص 262

85- أعلام من طرابلس ص 73

كثيرة شجر التين والزيتون، وبها فواكه جمة ونخل. إلا أن العرب أفسدت ما حولها، وأضرت به، وأخلت بواديها، وغيرت أحوالها، وأبادت أشجارها وغورت مياهها»[86]. ويقول الدكتور إحسان عباس إن «الموجة البدوية كان لها تأثير في الحركة العلمية؛ إذ قضت على مدن كان فيها مراكز دراسية، وألجأت بعض العلماء إلى الهجرة، وأودت بفريق آخر منهم»[87]. ويضيف إلى هذا العامل عاملين آخرين هما:

1- اضطراب الأوضاع السياسية، وخصوصا أيام مغامرات قراقوش وابن غانية.

2- عدم ظهور الفرد الحاكم لتشجيع أي نوع من أنواع النشاط العلمي[88] ويبدو ان العبدري حينما قام برحلته في أواخر القرن السابع الهجري وزار ليبيا صادفت رحلته فترة من فترات الركود العلمي، ولذلك نراه يتحسر على ضياع العلم في طرابلس. ويقول الناصري في الرد على ذلك: «وغاية ما يجاب به عن العبدري أنه أثر بعض الفتوحات دخلها قبل أن يقوى ساعد أهل الإسلام بها، فكان بها إذ ذاك ما به وصفها»[89].

ويضاف إلى علماء ليبيا الأعلام الذين اشتهروا بالتأليف ووفرة الإنتاج، أولئك العلماء الليبيون الذين تولوا مناصب دينية كبرى خارج بلادهم سواء في مصر أو في تونس أو في غيرهما من بلدان العالم العربي؛ مثل ابن أبي الدنيا الذي قال عنه الغبريني: «وظهر أمره، واشتهر خبره، فوجه إليه من حاضرة تونس، واستدعى للسكنى بها من قبل ملك افريقية.. فوصل مرفَّع القدر جليل الخطر»[90]. وغيره كثيرون سبق ذكرهم في فصل الدراسات الإسلامية.

وأما في مجال الإنتاج الأدبي فقد وجدنا نماذج لا بأس بها لشعراء ليبيين سواء كانوا من الأباضيين أو غيرهم، وإن كنا قد وجدنا كثيراً من هذه النماذج

86- ص 65

87- تاريخ ليبيا ص 211

88- تاريخ ليبيا ص 217 وراجع تاريخ طرابلس الغرب ورقة 4 . 5

89- صفحة ض من مقدمة محمد الفاسي

90- مقتبس في: ليبيا في كتب التاريخ والسير ص267

لا يرقى إلى مرتبة الشعر الجيد. ولهذا فنحن نوافق الدكتور إحسان عباس في قوله إن «طبيعة الحياة في ليبيا لم تتح فرصة لظهور شعراء وأدباء من الطراز الأول. وكان أكثر المتمرسين بالشعر أما من فئات اللغويين مثل ابن الأجدابي. وإما من الفقهاء مثل ابن أبي الدنيا. وأبي علي بن معمر الهواري. ولذا غلبت عليهم النزعة الدينية أو التعليمية»[91].

ومع ذلك فقد وجدنا من الأدباء الليبيين من غادر ليبيا. واستوطن صقلية أو غيرها من البلدان العربية. فتفوق وبرز. ومن هؤلاء:

1- أبو الحسن علي بن أبي إسحاق الوداني الذي ذكره ابن القطاع ضمن الشعراء الذين استوطنوا صقلية. ووصفه بالرياسة والنفاسة. وذكر صاحب خريدة القصر أنه كان في عهد ابن رشيق وأنه كان بينهما مكاتبات.

2- سليمان بن محمد الطرابلسي الذي سافر إلى افريقية ثم انتقل إلى الأندلس وتوطنها واتخذها لمخالطة ملوكها سكناً[92].

وأما في ميدان الدراسات اللغوية فلم نجد من برز منهم – على الرغم من كثرة الأسماء التي تناقلتها كتب التاريخ والتراجم – سوى ابن الأجدابي صاحب كفاية المتحفظ. والأزمنة والأنواء.

ولعل انصراف علماء ليبيا عن الدراسات اللغوية يرجع إلى عزوفهم عن الدراسات غير الإسلامية. وهي فكرة عبر عنها العبدري صاحب الرحلة المشهورة في قوله وهو بتلمسان:

فما أنا نحو النحو أسمو بهمتي — وفي اللغو إخطار اللغات ببالي

ولا عارضت علم العروض عنايتي — لأجعله قبان نظم لآل

ولكنه فقه علا عن تناقض — وليس لآراء الهوى بمجال[93]

فإذا كان دور ليبيا الثقافي أقل من غيره في بعض البلدان الأخرى. فإلام يعزى هذا؟ قد يعزى إلى جملة عوامل أهمها:

91- تاريخ ليبيا ص 227
92- جريدة القصر ص 591-597
93- ص 22 . 24

1- فقر البلاد وقلة مواردها حتى إنها كانت تحصل على منحة سنوية من مصر تبلغ مائة ألف دينار حتى أبطلها إبراهيم بن الأغلب. ويؤيد هذا ما روى ان عبد الرحمن بن محمد التاجوري الطرابلسي حينما أقام بمكة زاره جماعة من الطرابلسيين وسألوه ان يدعو لهم. فرفع يديه وقال: اللهم خفف حساب أهل مصر. وكرروا سؤالهم فكرر جوابه. ولما سئل عن ذلك قال: الذي يأكل الشعير ويلبس الصوف (يعني أهل طرابلس) لا يحتاج إلى الدعاء. وإنما يحتاج إلى الدعاء أهل مصر وغيرهم من أهل الرفاهية[94].

2- اتساع أرجاء البلاد وغلبة الطابع الصحراوي[95] عليها. حتى كانت ملجأ للفارين أو الخارجين. ومن أمثلة ذلك لجوء دعبل الخزاعي إليها حين تناوش مع حاكم مصر[96]. وتوجه العباس بن أحمد طولون إلى ليبيا لغزوها حين اختلف مع أبيه كما سبق أن ذكرنا.

3- الاضطراب السياسي الذي غطى الشمال الإفريقي كله. وتقلب البلاد بين حكام متعددين من الداخل والخارج. وقيام دويلات كثيرة مستقلة. وقد كان هذا الاستقلال – كما يقول جوستاف لوبون – «شؤماً على افريقية فقد قسمها زمراً بدلاً من تأليف أمة كبيرة. وقامت في افريقية دويلات كثيرة متقاتلة قياما لم ترَ افريقية معه سوى بصيص من الحضارة»[97]. ويقول الشيخ الزاوي في وصف هذا الإضطراب السياسي: «توالت على طرابلس الفتن في تاريخها القديم. فما تكاد تنتهي ثورة حتى تقوم أخرى. ودامت الحال على ذلك مئات السنين حتى أتت الحروب المتواصلة على الرجال والثروة. وكان لها أسوأ الأثر في تأخر أطرابلس ثقافة واقتصاداً وعمرانا»[98].

94- أعلام ليبيا للزاوي ص 158 . 159
95- يقول مؤلف « تاريخ طرابلس الغرب «: « أقطارها الجنوبية تكثر فيها الصخور والرمال وتقل فيها النباتات جدا فهي الصحراء بعينها ... وليس بها من الأمكنة الصالحة للسكنى غير الواحات ... ولهذا سكان هذه البلاد قليلين .. وهم في الشمال اكثر منهم في الجنوب» (ورقة 2) ويدعي مؤلف «الممالك الإسلامية في غرب افريقيا» ان مناخ الشمال الإفريقي قد تغير وأن المطر أخذ يقل تدريجيا وأن الصحراء تزحف على الأرض التي تقع وراء الشاطىء الشمالي لإفريقيا ثم يقول «وأي دليل آخر يمكن ان يوجد أكثر من إقليم طرابلس» (ص 12)
96- - لمحات أدبية عن ليبيا للمصراتي ص 29
97- ص 256
98- ص 107 من التذكار لابن غلبون وما بين ص 11 و ص 135 زيادة على الأصل بقلم الشيخ

وما يدخل في المجال السياسي ما هو ثابت من ان ليبيا - في الحقبة التي ندرسها – لم تتخذ – في أي وقت من الأوقات – قاعدة لحكم يشملها ويشمل جيرانا لها. ففي أي حكم تجاوز نفوذه حدود ليبيا لم تكن العاصمة تختار من بين المدن الليبية، وإنما كانت ليبيا تتبع دائماً دولة لها عاصمة خارجها. ولا يهمنا تعليل هذه الظاهرة بقدر ما تهمنا النتائج التي ترتبت عليها. فقد أدى هذا إلى حرمان طرابلس – أو غيرها من المدن الكبرى- من التمتع بميزات العاصمة ذات النفوذ السياسي، والنشاط العلمي القوي، وقوة الجذب للعلماء والأدباء من مختلف أنحاء العالم العربي.

ومع تسليمنا بأن الدور الذي أسهم به الليبيون كان – في الجملة – أقل مما أسهم به غيرهم، فلا يعني هذا أن جهدهم لا يستحق الذكر، وإنتاجهم لا يستأهل الدراسة، أو أن ما قدموه مما يصح إغفاله أو السكوت عنه. ولهذا فإننا لا نرى معنى لإغفال الكثيرين ممن كتبوا عن الثقافة العربية دور ليبيا الثقافي؛ كما فعل أحمد أمين مثلا في كتابه ظهر الإسلام حين قال: «اشتهرت بلدان في المغرب بتقدمها في الحضارة والعمران والعلم والأدب كالقيروان والمهدية وتاهرت وسلجماسة وفاس»[99]. ثم لايزيد!! وكما فعل الدكتور محمد عوض محمد في كتابه الشعوب والسلالات الإفريقية، الذي – بعد أن تحدث عن الإنتاج الثقافي الممتاز للشمال الإفريقي – قال: «وأصبحت فيه مراكز للثقافة والعلوم الإسلامية في مدن مثل القيروان وفي مسجد القرويين بفاس»[100]. كأن ليبيا قد خلت من مدن عرفت بالحضارة والعلم والأدب كذلك!!.

وفعل مثل هذا الأستاذان محمد بن تاويت ومحمد الصادق عفيفي مؤلفاً كتاب «الأدب المغربي» اللذان أقصيا ليبيا عن مجال دراستهما. وذكرا في المقدمة أن الكتاب سيكون في ثلاثة أجزاء يتناول اولها أدب المغرب الأقصى، وثانيها أدب المغرب الأوسط (الجزائر)، وثالثها أدب المغرب الأدنى. ولا يشمل

الزاوي
99- 294/1
100- ص 338

ذلك سوى تونس وحدها!![101].

وبعد: فلن نجد ما نختم به هذه الدراسة خيراً من أن نقتبس بعض الشعر الذي قيل في مدح طرابلس والإشادة بفضلها. فمن ذلك ما قاله التجاني حين ودع أستاذه أبا فارس عبد العزيز بن عبيد بعد إقامة في طرابلس استمرت عاماً ونصف:

سقى ربوعك يامغنى طرابلس … حيا يحييك منه كل منبجس
فكم يد لك في تأنيس مغترب … شطت به الدار عن أنس وعن أنس
أقمت فيكم على حكم النوى زمنا … كأنني فيه للسراء في عرس
أثوب من أهلك الغر الكرام إلى … قوم أوافي لديهم كل ملتمس
ما بين جد وتأنيس بمثلهما … نأى عن الخاطر استيحاشه ونُسي
لو لم يكن لك عندي في الزمان يد … أثنى عليك بها ما امتد في نفسي
الا ملاقاة من حزت الفخار به … عبد العزيز الإمام العالم الندسِ
محيي العلوم ومحظيها ومبرزها … من حلى ألفاظه في أحسن اللبس
ومحرز الشيم الغر التي كرمت … ففاه بالمدح فيها كل ذي خرس
يجلو اذا أشكلت في العلم مسألة … ذهنا يجلي سناه كل ملتبس
نعمت من قربه لما اتصلت به … بوقت أنس من الأيام مختلس
والله يحفظه غوثاً لمستبق … لكشف نازلة نوراً لمقتبس[102]

ومنه ما قاله أحمد بن عبد الدائم الأنصاري الطرابلسي من قصيدة طويلة يرد بها على العبدري:

طرابلس لا تقبل الذم انها … لها حسنات جاوزت سيئاتها

101- ص 5 مقدمة
102- الرحلة ص 306 ، 307

بها فضلاء ما الفضيل يفوقهم ... فوارس الجاد وهم من حماتها

قد اختارها الزروق داراً وموطناً ... كذا ابن سعيد مقتد بهداتها

تواترت الأقطاب تترى بأرضها ... وكم سيد رام المقام بذاتها[103]

103- التذكار ص 279 . 280